

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بمقنن

محمد بن الفضل بن همام

دار الفوائد العلمية

بيبي الباني الجليلي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد



الجزء الحادي عشر

دار الخلاء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد المعدل

(١٩٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَغَذُّوا مِنْ مَمَرٍ كُمْ لِمَقَرِّ كُمْ؛
وَلَا تَهْتِكُوا أَسْطَارَ كُمْ، عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَ كُمْ، وَآخِرِ جُؤَا مِنْ الدُّنْيَا قُلُوبَ كُمْ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُ كُمْ، فَفِيهَا أُخْتِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ.
إِنَّ لَكُمْ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ! وَقَالَتِ لِللَّائِكَةِ : مَا قَدَّمْتَ ! اللَّهُ آهَاتُ كُمْ !
فَقَدِّمُوا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ، وَلَا تُخْلِفُوا كَلًّا يَكُونُ قَرْضًا عَلَيْكُمْ.

الشرح :

ذكر أبو العباس محمد بن يزيد اللبّرد في " الكامل " (١) عن الأصمعي ، قال :
خطبنا أعرابي بالبادية ، فحمد الله واستغفره ، ووحدّه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ؛
فأبلغ في إيجاز ، ثم قال : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بِلَاحٍ ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ ، نَغْذُوا
لِمَقَرِّ كُمْ مِنْ مَمَرٍ كُمْ ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْطَارَكُمْ ، عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ . فِي الدُّنْيَا أَنْتُمْ ،

(١) الكامل ٤ : ١٠٨ (طبعة نهضة مصر) .

ولغيرها خلقتم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، والمصلّى عليه رسول الله ، والدعوت له الخليفة^(١) ، والأمير جعفر بن سليمان

وذكر غيره الزيادة التي في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وهي : « إن المرء إذا هلك ... » ، إلى آخر الكلام .

وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمر المؤمنين عليه السلام .
ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه فأورده كما بورده الناس كلام غيرهم .

قوله عليه السلام : « دار مجاز » ، أي يُجاز فيها إلى الآخرة ، ومنه سمى المجاز في الكلام مجازاً ، لأن التكلم قد عبّر الحقيقة إلى غيرها ، كما يعبر الإنسان من موضع إلى موضع .

ودار القرار : دار الاستقرار الذي لا آخر له .

نخذوا من ممركم ، أي من الدنيا . لممركم ؛ وهو الآخرة .

قوله عليه السلام : « قال الناس : ماترك ! » ، يريد أن بني آدم مشغولون بالعاجلة ، لا يفكرون في غيرها ، ولا يتساءلون إلا عنها ، فإذا هلك أحدكم ، فإنما قولهم بعضهم لبعض : ما الذي ترك فلان من المال ؟ ما الذي خلف من الولد ؟ وأما الملائكة فإنهم يعرفون الآخرة ، ولا تسهبوهم شهوات الدنيا ، وإتمام مشغولون بالذكور والتسبيح ، فإذا هلك الإنسان ، قالوا : ما قدم ؟ أي أي شيء قدم من الأعمال ؟

ثم أمرهم عليه السلام ، بأن يقدموا من أموالهم بعضها صدقة ، فإنها تبقى لهم ، ونهاهم أن يخلفوا أموالهم كلها بعد موتهم ، فتكون وبالاً عليهم في الآخرة .

(١) يريد به أبا جعفر النصور ؛ وقد ولي ابن عمه جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس المدينة سنة ست وأربعين ومائة .

(١٩٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام كان كثيرا ما ينادى به أصحابه :

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَقَدْ نُوْدِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْمَرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا،
وَأَثْقِلُوا بِصَالِح مَا يَحْضُرُكُمْ مِنَ الزَّادِ؛ فَإِنْ أَمَّاكُمْ عَقَبَةٌ كَثُودًا، وَمَنَازِلَ تَخُوفَةٌ
مَهُولَةٌ، لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ اللَّيْثَةِ تَحْوَسُّكُمْ دَائِبَةٌ^(١)، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ
فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُقْطِعَاتُ الْأُمُورِ، وَمُضْلِمَاتُ^(٢) الْخُذُورِ .
فَقَطِّعُوا عِلَاقَ الدُّنْيَا، وَأَسْتَظْهِرُوا بَرَادَ التَّقْوَى .

مرکز تحقیقات کلامی و فقهی

وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدم بخالف هذه الرواية .

الشرح :

تَجَهَّزُوا الكذا ، أى تَهَيَّئُوا له .

والمَرْجَةُ: التمريج ، وهو الإقامة، تقول : مالى على ربك عَرْجَةٌ^(٣)، أى إقامة، وعرَج

فلان على المنزل ، إذا حبس عليه مطيته .

(١) مغلطة النهج : « داية » .

(٢) مغلطة النهج : « المضلات » .

(٣) فى اللسان : « مالى عندك عرجة [مثثة المين مع إسكان الراء] ، ولا عرجة [بفتحين] ، ولا تمريج ، ولا عرج ، أى مقام ، وقيل : عيس » .

والعقبة الكثود: الشاقة الصعد . ودائبة : جادة . والمقلب للسُّجُع بمنزلة الغافر للإنسان .
وأفزع الأمرُ ، فهو مفزع ، إذا جاوز المقدار شدة .

ومضلعات المحذور : الخطوب التي تُضِلِّع ، أي تجعل الإنسان ضليعاً ، أي معوجاً ،
والماضي ضلِّع بالكسر يَضْلَع ضَلَعاً .

ومن رواها بالفاء ، أراد الخطوب التي تجعل الإنسان ظالماً ، أي ينمز في مشيه لثقلها
عليه ، والماضي ظَلَع بالفتح ، يَظْلَع ظَلَعاً ، فهو ظالم .



مركز تحقيقات مخطوطات وكتب نادرة

(١٩٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة ، وقد عتبا عليه ^(١) من ترك مشورتها والاستماعة في الأمور بهما :

لَقَدْ قَتَمْتُمَا بِسِيرًا ، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا . أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ ، أَمْ أَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْهِمَا بِهِ ، أَوْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفَتْ عَنْهُ ، أَمْ جَهِلْتُهُ ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ !

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْإِخْلَافَةِ رَغْبَةٌ ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزَّةٌ ؛ وَلَكِنْ كُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا ، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا ، فَلَمَّا أَفَضْتُ إِلَيْكُمْ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا ، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ ، وَمَا اسْتَنْ ^(٢) النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْتَدَيْتُهُ . فَلَمْ أُحْتَجْ إِلَى رَأْيِكُمَا ، وَلَا رَأْيٍ غَيْرِكُمَا ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَأَسْتَشِيرَ كُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأَسْوَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أُحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي ، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَى مَنِي ، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ ، فَلَمْ أُحْتَجْ إِلَيْكُمَا فَيَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسَمِهِ ، وَأَمَضَى فِيهِ حُكْمَهُ . فَلَيْسَ لَكُمَا وَاللَّهِ عِنْدِي وَلَا لِمَنْزِلِكُمَا فِي هَذَا عُنْفٍ .

أَخَذَ اللَّهُ يَتْلُو بَيْنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْخَلْقِ ، وَاللَّهُمَّ وَإِنَّا كُفَّ الصَّبْرَ !

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) مخطوطة النهج « استسن » .

ثم قال عليه السلام :

رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ .

الشرح :

نَقِمْتُ عَلَيْهِ ، بالفتح أَنْقِمَ ، هذه اللفظة الفصيحة ، وجاءتْ نَقِمْتُ بالكسر ، أَنْقَمَ .
وَأَرْجَأْتُمَا : أَخَّرْتُمَا ، أَيْ نَقِمْتُمَا مِنْ أَحْوَالِ الْيَسِيرِ ، وَتَرَكْنَا الْكَثِيرَ الَّذِي لَيْسَ لَكُمَا
وَلَا لغيرِكُمَا فِيهِ مَطْمَنٌ ، فَلَمْ تَذْكُرَاهُ ، فَهَلَّا اغْتَفَرْتُمَا الْيَسِيرَ لِلْكَثِيرِ !
وَلَيْسَ هَذَا اعْتِرَافًا بِأَنْ مَا نَقَمَاهُ مَوْضِعَ الطَّمَنِ وَالْعَيْبِ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى جِهَةِ الْجِدَالِ
وَالاحتجاج ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَطْلَعُ فِي بَيْتٍ مِنْ شُعْرٍ شَاعِرٌ مَشْهُورٌ : لَقَدْ ظَلَمْتَهُ إِذْ تَتَعَلَّقُ
عَلَيْهِ بِهَذَا الْبَيْتِ ، وَتَنْسِي مَا لَهُ مِنَ الْمَحَاسِنِ الْكَثِيرَةِ فِي غَيْرِهِ !
ثُمَّ ذَكَرَ وَجْهَ الْعِتَابِ وَالْإِسْتِرَادَةَ^(١) ، وَهِيَ أَقْسَامٌ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا حَقٌّ يَدْفَعُهَا
عَنْهُ ، أَوْ اسْتَأْثَرُ عَلَيْهِمَا فِي قَسَمٍ ، أَوْ ضَمُّفٌ عَنِ السِّيَاسَةِ ، أَوْ جَهْلٌ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ
الشَّرِيعَةِ ، أَوْ أَخْطَأَ بِأَبِهِ .

فإن قلت : أَيْ فَرَقَ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ؟

قلت : أَمَّا دَفْعُهَا عَنْ حَقِّهَا ، فَتَنْعَمُ عَنْهُ ؛ سِوَاهُ صَارَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ ،
أَوْ لَمْ يَصِرْ إِلَى أَحَدٍ ، بَلْ بَقِيَ بِحَالِهِ فِي بَيْتِ الْمَالِ .

(١) الاسترداد : طلب الرجوع واللين والاعتدال ، ومنه الحديث : فاسترد لأمر الله ، أَيْ رَجَعَ وَلَانَ
وَانْقَادَ . (المان) .

وأما القسم الثاني فهو أن يأخذَ حقَّهما لنفسه ، وبين القسمين فرق ظاهر ، والثاني أغش من الأول .

فإن قلت : فأى فرق بين قوله : « أم جهلته » ، أو « أخطأت بابه » !
قلت : جهل الحكم أن يكون الله تعالى قد حكم بحكمة شيء ، فأحله الإمام أولفتى ، وكونه يخطئ بابه ؛ هو أن يصيب في الحكم ويخطئ في الاستدلال عليه .
ثم أقسم أنه لم يكن له في الخلافة رغبة ولا إزبة ، بكسر الهمزة ، وهي الحاجة .
وصدق عليه السلام ! فهكذا نقل أصحاب التواريخ وأرباب علم السير كلهم ، وروى الطبري في التاريخ ورواه غيره أيضاً أن الناس غشوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته ، وهو يأبى ذلك ويقول : دعوني والتمسوا غيري ، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تثبت عليه القول ، ولا تقوم له القلوب . قالوا : ننشدك الله ! ألا ترى الفتنة ! ألا ترى إلى ما حدث في الإسلام ! ألا تخاف الله ! فقال : قد أجبتكم لما أرى منكم ، واعلموا أنني إن أجبتكم ركبتُ بكم ما أعلم ، وإن تركتكموني فإنما أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمرهم إليه . فقالوا : ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك . قال : إن كان لابد من ذلك ففي المسجد ؛ فإن ييمتى لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ، وفي ملأ رجاعة . فقام والناس حوله ، فدخل المسجد ، وانثال عليه المسلمون فبايعوه ، وفيهم طلحة والزبير ^(١) .

قلت : قوله : « إن ييمتى لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا في المسجد بمحض من جمهور الناس » ، يشابه قوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس لما سأمه مدته بدله للبيعة : « إني أحب أن أصحِر بها ^(٢) » ، وأكره أن أباع من وراء رتاج .

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٥٢ (المطبعة الحسينية) مع تصرف .

(٢) أصحِر : من قولهم : أصحِر الأمر وبه ، إذا أظهره .

ثم ذكر عليه السلام أنه لما بُرِيعَ عِلِّ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى رَأْيِهَا
وَلَا رَأْيِ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يَقَعْ حُكْمٌ يَجْهَلُهُ فَيَسْتَشِيرُهَا ، وَلَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لاسْتَشَارَهَا وَغَيْرَهَا ،
وَلَمْ يَأْتَفَ مِنْ ذَلِكَ .

ثم تكلم في معنى التَّنْفِيلِ فِي الْعَطَاءِ ، فَقَالَ : إِنِّي عَمِلْتُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وآلِهِ فِي ذَلِكَ . وَصَدَقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ! فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ سَوَى فِي
الْعَطَاءِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي بَكْرٍ .

وَالْمُتَّبِعِيُّ : الرِّضَا ، أَيْ لَسْتُ أَرْضِيكَ بِارْتِكَابِ مَا لَا يَحِلُّ لِي فِي الشَّرْعِ ارْتِكَابَهُ .
وَالضَّبِيرِيُّ : صَاحِبُهُ ، وَهُوَ الْهَاءُ الْمَجْرُورَةُ بِرَجْعٍ إِلَى الْجُوزِ ، أَيْ وَكَانَ عَوْنًا بِالْعَمَلِ
عَلَى صَاحِبِ الْجُوزِ .



[مِنْ أَخْبَارِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ]

قَدْ تَقَدَّمَ مَتَى ذَكَرُ مَاعْتَبَرٍ بِهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَمَّا
قَالَا : مَا نَرَاهُ يَسْتَشِيرُنَا فِي أَمْرِ ، وَلَا يَفَاوِضُنَا فِي رَأْيٍ ، وَيَقْطَعُ الْأَمْرَ دُونَنَا ، وَيَسْتَبْدِ
بِالْحُكْمِ عَنَّا ! وَكَانَا يَرْجَوَانِ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَأَرَادَ طَلْحَةُ أَنْ يُولِّيَهُ الْبَصْرَةَ ، وَأَرَادَ الزُّبَيْرُ أَنْ
يُولِّيَهُ الْكُوفَةَ ، فَلَمَّا شَاهَدَا صَلَاحَتَهُ فِي الدِّينِ ، وَقُوَّتَهُ فِي الْعِزِّ ، وَهَجَرَهُ الْإِدْهَانُ وَالْمِرَاقِبَةُ ،
وَرَفَضَهُ الْمَدَالَةُ وَاللُّوَارِبَةُ ، وَسَلُوكُهُ فِي جَمِيعِ مَسَالِكِهِ مِنْهُجِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَدْ كَانَ
يَسْلُكُ ذَلِكَ قَدِيمًا مِنْ طَبْعِهِ وَسَجِيَّتِهِ ، وَكَانَ عَمْرًا قَالَهَا وَلَغِيرَهَا : إِنَّ الْأَجْلَحَ ^(١) إِن
وَلِيَّهَا نِيحَمَلْتُمْ عَلَى الْحَبِيبَةِ الْبَيْضَاءِ وَالصَّرَاطِ السَّعِيمِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

(١) الْأَجْلَحُ ، مِنَ الْجَلْحِ ، وَهُوَ ذُعَابُ الشَّعْرِ مِنْ مَقْدَمِ الرَّأْسِ ، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَذَلِكَ .

من قبل قال : وإن تولوها علياً ، تجدوه هادياً مهدياً ، إلا أنه ليس الخبر كالعيان ، ولا القول كالفعل ، ولا الوعد كالإنجاز . وحالاً عنه ، وتذكراً له ، ووقفاً فيه ، وعاباًه وغصاه^(١) ، وتطلباً له العمل والتأويلات ، وتنقماً عليه الاستبداد وترك المشاورة ، وانتقلاً من ذلك إلى الوقعة فيه بمساواة الناس في قسمة المال ، وأثنيًا على عمر ، وحيداً سيرته ، وصوباً رأيه ، وقالوا : إنه كان يفضل أهل السوابق ، وضللاً علياً عليه السلام فيما رآه ، وقالوا : إنه أخطأ ، وإنه خالف سيرة عمر ، وهي السيرة المحمودة التي لم تفضحها النبوة ، مع قرب عهدنا منها ، واتصالها بها . واستنجدوا عليه بالرؤساء من المسلمين ، كان عمر يفضلهم وينقلهم^(٢) في القسمة على غيرهم . والناس أبناء الدنيا ، ويحبون للمال حباً جماً - فتكثرت على أمير المؤمنين عليه السلام بتفكيرها قلوب كثيرة ، ونفقت^(٣) عليه نيات كانت من قبل سليمة ، ولقد كان عمر موقفاً حيث منع قريشاً والمهاجرين وذوي السوابق من الخروج من المدينة ، ونهاهم عن مخالطة الناس ، ونهى الناس عن مخالطتهم ، ورأى أن ذلك أسوأ الفساد في الأرض ، وأن الفتوح والغنائم قد أبطرت المسلمين ، ومتى بعد الرعوس والكبراء منهم عن دار الهجرة ، وانفردوا بأنفسهم ، وخالطهم الناس في البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسبوا لهم الوثوب ، وطلب الإمرة ومفارقة الجماعة ، وجل نظام الألفة ، ولكنه رضى الله عنه قضى هذا الرأي الشديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من أمر الشورى ، فإن ذلك كان سبب كل فتنة وقعت ، وتقع إلى أن تنقضى الدنيا . وقد قدمنا ذكر ذلك ، وشرحنا ما أدى إليه أمر الشورى من الفساد بما حصل في نفس كل من الستة من ترشيحه للخلافة .

(١) غصاه : تهاونا بحقه .

(٢) ينقلهم : يطيهم النقل .

(٣) نفقت : فسدت .

وروى أبو جعفر الطبري في تاريخه ، قال : كان عمر قد حَجَرَ على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا يأذن وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام فخطب ، فقال : ألا إني قد سنتُ الإسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنيّاً ^(١) ، ثم يكون رباعياً ^(٢) ، ثم سدسياً ، ثم بازلاً ^(٣) . ألا فهل يُنتظر بالبازل إلا نقصان الأول وإن الإسلام قد صار بازلاً ، وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معوناتٍ على ما في أنفسهم . ألا إن في قريش من يُضير الفرقة ، ويروم خلع الرُبقة . أما وابنُ الخطابِ حتى فلا؛ إني قائمٌ دون شعب الحرّة ، آخذٌ بحلّاقيم قريش وحجّرها أن يتم افتوا في النار .

وقال أبو جعفر الطبري في التاريخ أيضاً : فلما وليّ عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ورأوا الدنيا ، ورآهم الناس ، خمل من لم يكن له طول ولا قدّم في الإسلام ، ونه أصحاب السوابق والفضل ، فانقطع إليهم الناس ، وصاروا أوزاعاً معهم ، وأملّوم ، وتقربوا إليهم ، وقالوا : يملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة ، فكان ذلك أول وهنٍ على الإسلام ، وأول فتنة كانت في العامة .

وروى أبو جعفر الطبري ، عن الشعبي ، قال : لم يمّت عمر حتى ملّته قريش ، وقد كان حصّرم بالمدينة ، وسأله أن يأذن لهم في الخروج إلى البلاد ، فامتنع عليهم ، وقال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، حتى إن الرجل كان يستأذنه في غزو الروم أو الفرس ، وهو ممن حبسه بالمدينة من قريش ، ولا سيما من المهاجرين فيقول له : إن لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يكفيك ويبلغك ويحسبك ^(٤) ، وهو خيرٌ لك من الغزو اليوم ، وإن خيراً لك ألا ترى الدنيا ولا تراك .

(١) الثني : الذي يلي ثلثه .

(٢) الرباعي : هو الذي ألقى رباعيته ، والرباعية : السن التي بين الثنية والنايب .

(٣) البازل : البعير فطر فاه وانثني ، ويكون ذلك في السنة الخامسة .

(٤) يقال : أحسبه إذا أرضاه أو أعطاه ما يرضيه وكفاه .

فلما مات عمر وولى عثمان خَلِيَّ عنهم فانتشروا في البلاد واضطربوا ، وانقطع إليهم الناس وخالطوهم ، فلذلك كان عثمان أحبَّ إلى قريش من عمر .

فقد بان لك حسنُ رأى عمر في مَنعِ المهاجرين وأهل السَّابِقة من قُريش من مخالطة الناس والخروج من المدينة ، وبان لك أنَّ عثمان أَرخى لهم في الطَّوَل ^(١) ، فخالطهم الناس ، وأفسدوهم ، وحبَّبوا إليهم الملك والإمرة والرئاسة ، لاسيَّما مع الثروة العظيمة التي حصلت لهم ، والثراء مفسدة وأى مفسدة ! وحصل لطلحة والزبير من ذلك ما لم يحصل لغيرهما ثروة وبسارا ، وقدما في الإسلام ، وصار لهما لقيف عظيم من المسلمين يمتنون بها الخلافة ، ويحسِّنون لها طلب الإمرة ، لاسيَّما وقد رشحهما عمر لها ، وأقامها مقام نفسه في تحملها ، وأى امرئ مَنى بها قطَّ نفسه فقارقها حتى ينشِب في اللُعد ! ولا سيَّما طلحة ، قد كان يحدث بها نفسه وأبو بكر حتى ، ويروم أن يحملها فيه ، بشبهة أنه ابنُ عمه ، وسخط خلافة عمر ، وقال لأبي بكر : ما تقول لربك وقدوليتَ علينا فظنا غليظا ، وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه ، ويحادثونه سرًّا في معنى الخلافة ، ويقولون له : لو مات عمر لباعناك بَفْتَةٍ ، جلب الدهرُ علينا ما جلب ! وبلغ ذلك عمر ، فخطب الناس بالكلام للشهور ، إنَّ قوما يقولون : إنَّ بيعة أبي بكر كانت قِلَّة ، وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا ، أما أن بيعة أبي بكر كانت قِلَّة ، إلَّا إنَّ الله وَفَّى شرَّها ، وليس فيكم من تقطع إليه الرقاب كَأبي بكر ، فأى امرئ بايع امرا من غير مشورة من المسلمين ، فإنَّهما بَغْرَةٌ أن يقتلا ، فلما صارت إلى عثمان سخطها طلحة بعد أن كان راضيها ، وأظهر ما في نفسه ، وألب عليه حتى قُتِل ، ولم يشك أن الأمر له ، فلما صارت إلى علي عليه السلام ، حدث منه ما حدث ، وآخر السَّوء الكي . وأما الزبير فلم يكن إلَّا عُلُوَّى الرَّأْي ، شديد الولاء ، جاريا من الرجل مجرى نفسه .

(١) الطول : الجبل ، يريد أنه لأن وترك لهم الجبل على الغارب ، حتى فعلوا ما فعلوا .

ويقال : إنه عليه السلام لما استنجد بالمسلمين عقيب يوم السقيفة وما جرى فيه ، وكان يحمل قاطمة عليها السلام ليلا على حمار ، وابناها بين يدي الحمار ، وهو عليه السلام يسوقه فيطرق بيوت الأنصار وغيرهم ، ويسألم النصرة والمعونة ، أجا به أربعون رجلا ، فبايعهم على اللوت ، وأمرهم أن يصبحوا بكرة محلقى رؤوسهم ومعهم سلاحهم ، فأصبح لم يوافقه منهم إلا أربعة : الزبير ، والقناد ، وأبوذر ، وسلمان . ثم أتاها من الليل ، فداشدهم ، فقالوا : نصبحك غدوة ؛ فما جاءه منهم إلا أربعة ، وكذلك في الليلة الثالثة ، وكان الزبير أشدهم له نصرة ، وأنفذهم في طاعته بصيرة ، حلق رأسه ، وجاء مرارا وفي عنقه سيفه ، وكذلك الثلاثة الباقون ، إلا أن الزبير هو كان الرأس فيهم . وقد نقل الناس خبر الزبير لما هجم عليه بيت قاطمة عليها السلام ، وكسر سيفه في صخرة ضربت به ، ونقلوا اختصاصه بعلية عليه السلام ، وخلواته به . ولم يزل مواليا له ، متمسكا بحبه ومودته ، حتى نشأ ابنه عبدالله وشبه ، فترع به عرق من الأم ، ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه ، ومحبة الوالد لولد معروفة ، فانحرف الزبير لانحرافه ؛ على أنه قد كانت جرت بين علي عليه السلام والزبير هنات في أيام عمر كدّرت القلوب بعض التكدير ، وكان سببها قصة موالى صفية ومنازعة علي للزبير في الميراث ، ففضى عمر للزبير ، فأذعن علي عليه السلام لقضائه بحكم سلطانه ، لارجوعا عما كان يذهب إليه من حكم الشرع في هذه المسألة وبقيت في نفس الزبير ، على أن شيخنا أبا جعفر الإسكافي رحمه الله ذكر في كتاب "نقض العثمانية" عن الزبير كلاما ، إن صح ، فإنه يدل على انحراف شديد ، ورجوع عن موالاة أمير المؤمنين عليه السلام .

قال : تفاخر علي عليه السلام والزبير ، فقال الزبير : أسلمت بالنار ، وأسلمت طفلا ، وكنت أول من سل سيفا في سبيل الله بمكة وأنت مستخف في الشعب^(١) ، يكفلك الرجال ،

(١) هو شعب أبي يوسف بمكة ؛ وانظر معجم البلدان ٥ : ٢٧٠

وَيَمُوتُكَ الْأَقَارِبُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ . وَكَنتُ فَارِسًا ، وَكَنتُ رَاجِلًا ، وَفِي هَيْئَتِي نَزَلْتُ
لِلْمَلَائِكَةِ ، وَأَنَا حَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال شيخنا أبو جعفر : وهذا الخبر مقتعل مكذوب ، ولم يجر بين علي والزبير شيء
من هذا الكلام ، وإن كان من وضع العثمانية ، ولم يسمع به في أحاديث المشوية ، ولا في كتب
أصحاب السيرة .

واعلم عليه السلام أن يقول : طفلٌ مسلمٌ خيرٌ من بالغٍ كافرٍ ، وأما سَلَّ السيف
بِمَكَّةَ ، فلم يكن في موضعه ، وفي ذلك قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا
أَيْدِيَكُمْ ... ﴾ ^(١) الآية ، وأنا على منهاج الرسول في الكف والإقدام ، وليس كقالة الرجال
والأقارب بالشعب عارًا عليّ ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب يكفله
الرجال والأقارب . وأما حربُك فَارِسًا ، وحربي راجلًا ، فهلا أغتت فروسيَّتُك يوم عمرو
ابن عبدود في الخندق أو هلا أغتت فروسيَّتُك يوم طلحة بن أبي طلحة في أحد ، وهلا أغتت
فروسيَّتُك يوم مرجب بخيبر ، ما كانت فرسُك التي تحارب عليها في هذه الأيام إلا أذلّة
من العنز الجرباء ، وَمَنْ سَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ أَفْضَلَ مِمَّنْ نَزَلَتْ فِي هَيْئَتِهِ ، وقد نزلت
الملائكة في صورة دحية الكلبي ، أفيجب من ذلك أن يكون دحية أفضل مني ؟
وأما كونك حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو عددت خصائصي في مقابلة هذه
اللفظة الواحدة لك ، لاستغرقت الوقت ، وأفنيت الزمان ، وربّ سميت أبلغ من
نطق ^(٢) .

ثم نرجع إلى الحديث الأول ، فنقول : إن طلحة والزبير لما إيسا من جهة علي عليه

(١) سورة النساء ٧٧ .

(٢) انظر رسالة العثمانية ٢٢٤ وما بعدها .

السلام ، ومن حصول الدنيا من قبيله ، قلباً له ظهر الميكن ، فكاشفاه وعائباه قبل المفارقة عتاباً لا ذعاً ، روى شيخنا أبو عثمان قال :

أرسل طلحة والزبير إلى علي عليه السلام قبل خروجهما إلى مكة مع محمد بن طلحة ، وقال : لا تقل له : « يا أمير المؤمنين » ، ولكن قل له : « يا أبا الحسن » ، لقد قال فيك رأيتنا ، وخاب ظننا . أصلحنا لك الأمر ، ووطدنا لك الإمرة ، وأجلبنا على عثمان حتى قتل ، فلما طلبك الناس لأمرهم ، أسرعنا إليك ، وبايعناك ، وقضينا إليك أعناق العرب ، ووطئ المهاجرون والأنصار أعقابنا في بيئتك حتى إذا ملكت هناك ، استبددت برأيك عنا ، ورفضنا رفض التريكة ^(١) ، وأذللتنا إذالة ^(٢) الإمام ، وملكك أمرك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب ونزاع الأمصار ، فكذافها رجوناك منك ، وأملناه من ناحيتك ، كما قال الأول :

فكنت كهمري الذي في سيفائه لرقراق آل فوق راية صلد

فلما جاء محمد بن طلحة ، أبلغه ذلك ، فقال : اذهب إليهما ، فتل لها : فما الذي يرضيكما ؟ فذهب وجاءه ، فقال : إنهما يقولان : ولأحدنا البصرة والآخر الكوفة ! فقال : لاها الله ! إذن يحلم الأديم ، ويسنشرى الفساد ، وتنقض على البلاد من أقطارها ، والله إنى لا آمنهما وهما عندي بالمدينة ، فكيف آمنهما وقد وليتهما العراقيين ! اذهب إليهما فقل : أيها الشيخان ، احذرا من سطوة الله ونقمته ، ولا تبغيا للمسلمين غائلة وكيداً ، وقد سمعنا قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَكُمُ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) . فقام محمد بن طلحة فأتاها ، ولم يعد إليه ، وتأخرا عنه أباما ، ثم جاءاه فاستأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة ، فأذن لهما بعد أن أحلفهما

(٢) الإذالة : الإهانة .

(١) التريكة : التي ترك فلا يتزوجها أحد .

(٣) سورة القصص ٨٣ .

ألا ينفضا بيعته ، ولا يندرا به ، ولا يشقا عصا المسلمين ، ولا يؤقما الفرقة بينهم ، وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالدينة ، فحلقا على ذلك كله ثم خرجا ففصلا ماضلا .

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : لما خرج طلحة والزبير إلى مكة ، وأوذاها الناس أنهما خرجا للعمرة ، قال علي عليه السلام لأصحابه : والله ما يريدان العمرة ، وإنما يريدان الفدرة (فمن نكث فإني نكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ^(١)) .

وروى الطبري في التاريخ ، قال : لما بايع طلحة والزبير عليا عليه السلام ، سألاه أن يؤتمرها على الكوفة والبصرة ، فقال : بل تكونان عسدي أتجمل بكما ، فإني أستوحش لفراقكما .

قال الطبري : وقد كان قال لما قبل بيعتهما له : إن أحييتما أن تبايعاني ، وإن أحييتما بايعتكما ؛ فقالا : لا ؛ بل نبايعك ؛ ثم قالوا بعد ذلك : إنما بايعناه خشية على أنفسنا ، وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا . ثم ظهرا إلى مكة ، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر .

وروى الطبري أيضا في التاريخ قال : لما بايع الناس عليا ، ونم له الأمر ، قال طلحة للزبير : ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلا كحجة ^(٢) أنف الكلب .

وروى الطبري أيضا في التاريخ ، قال : لما بايع الناس عليا عليه السلام بعد قتل عثمان ، جاء علي إلى الزبير ، فاستأذن عليه . قال أبو حبيبة مولى الزبير : فأعلمته به ، فسل السيف ، ووضعته تحت فراشه ، وقال : انذن له ، فأذنت له ، فدخل فسلم على الزبير وهو واقف . ثم خرج ، فقال الزبير : لقد دخل لأمر ماقضاه ، قم مقامه وانظر : هل ترى من

(١) سورة الفتح ١٠

(٢) كذا في تاريخ الطبري ١ : ٣٠٦٩ (طبع أوروبا) ، والسكينة غير واضحة في الأصول .

(٢ - نهج - ١١)

السيف شينا ! فقامت في مقامه ، فرأيت ذُباب السيف ، فأخبرته وقلت : إن ذُباب
السيف ليظهر لمن قام في هذا الموضع ، فقال : ذاك أعجل الرجل .

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : كتب مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك :
مِنْ مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان : سلام عليك ، فإني أحمد إليك
الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

سَتَمْسِلُ يَا فَيَّ الزُّرْقَاءُ أَنِّي سَاهَيْتُكَ عَنْ حِلَاثِكَ الْحِجَابَا
وَأَنْتَ بِلَدَةٍ أَصْبَحْتَ فِيهَا تَهْوَرُ مِنْ جَوَانِبِهَا خَرَابَا

أما إن الله على الوفاء بذلك ؛ إلا أن تتراجع أو تتوب ! ولعمري ما أنت كعبد الله بن
الزبير ، ولا مروان كالزبير بن العوام ، حوارى رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته .
فسلم الأمر إلى أهله ، فإن نجاتك بنفسك أعظم الفئتين . والسلام .
فكتب إليه عبد الملك :

من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إلى الذلول الذي أخطأ من سماه المُصعب ؛ سلام
عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

أَتُوْعِدُنِي وَلَمْ أَرَ مِثْلَ يَوْمِي خَشَّاشَ الطَّيْرِ يُوْعِدُنِ الْمُقَابَا
مَتَى تَتَلَقَّ الْمُقَابَ خَشَّاشَ طَيْرٍ يَهْتِكُ عَنْ مَقَانِلِهَا الْحِجَابَا
أَتُوْعِدُ بِالذَّنَابِ أَسْوَدَ غَابٍ وَأَسْمَدُ الْغَابِ تَلْتَهُمُ الذَّنَابَا !

أما ما ذكرت من وفائك ، فلعمري لقد وثق أبوك لتيمة وعدى بعداء قريش وزعانفها ،
حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان ، الشريف النسب ، الكريم الحسب ، بغناه
الدوائل ، وأعد له الخاتل ، حتى نال منه حاجته ، ثم دعا الناس إلى عليّ وبإيعه ، فلما

دانت له أمور الأمة ، وأجمعت له الكلمة ، وأدركه الحسد القديم لبني عبد مناف ، فنقض عهده ، ونكت بيعته بعد توكيدها ، ف«فَكَرُّوْا قَدْرًا ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدْرًا» ؛ وتمزقت له الضباع بوادي السباع . ولعمري إنك تعلم يا أخا بني عبد المزى بن قصي ؛ أنا بنو عبد مناف لم نزل سادتكم وقادتكم في الجاهلية والإسلام ، ولكن الحسد دعاك إلى ما ذكرت ، ولم ترث ذلك عن كلاله ، بل عن أهلك ، ولا أظن حسدك وحسد أخيك يؤول بكما إلا إلى ما آل إليه حسد أبيك من قبل ﴿ وَلَا يَحِقُّ الشُّكْرُ النَّبِيِّ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ^(١) ؛ ﴿ وَسَيَمْلَأُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ^(٢) .

وروى أبو عثمان أيضا ، قال : دخل الحسن بن علي عليهما السلام على معاوية ، وعنده عبد الله بن الزبير - وكان معاوية يحب أن يغري بين قريش - فقال : يا أبا محمد ، أيهما كان أكبر سناً ؛ علي أم الزبير ؟ فقال الحسن : ما أقرب ما بينهما ، وعلي أسن من الزبير . رحم الله عليا ! فقال ابن الزبير رحم الله الزبير - وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب ، فقال : يا عبد الله ، وما يهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه ! قال : وأنا أيضا ترحت على أبي ! قال : أنظفه نذاله وكفوا ؟ قال : وما يُمدلُ به عن ذلك اكلاهما من قريش ، وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتم له . قال : دع ذاك عنك يا عبد الله ؛ إن عليا من قريش ومن الرسول صلى الله عليه وآله حيث تعلم ، ولما دعا إلى نفسه أتبع فيه ، وكان رأسا ، ودعا الزبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة ، ولما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وولى مدبرا قبل أن يظهر الحق فيأخذه ، أو يدحض الباطل فيتركه ، فأدركه رجل لوقيس ببعض أعضائه لكان أصفر ، فضرب عنقه ، وأخذ سلكه ، وجاء برأسه ، ومضى على قدما كعادته مع ابن عمه ، رحم الله عليا !

(١) سورة طاهر ٤٣ .

(٢) سورة الشعراء ٢٢٧ .

قال ابن الزبير : أما لو أن غيرك تكلم بهذا يا أبا سعيد ، لعلم ! فقال : إن الذي تعرض به يرغب عنك . وكفه معاوية ، فسكتوا .

وأخبرت عائشة بمقاتلتهم ، ومرت أبو سعيد بفنائها ، فنادته : يا أبا سعيد ، أنت القاتل لابن أختي كذا ؟ فالتفت أبو سعيد ، فلم ير شيئا ، فقال : إن الشيطان يرانا ولا نراه ! فضحكت عائشة ، وقالت : لله أبوك ! ما أذاني لسانك !



(١٩٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يستون أهل الشام أيام
حربهم بصفين :

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ ،
وَذَكَّرْتُمْ حَالَهُمْ ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْمَذَرِ ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ
سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ :

اللَّهُمَّ احْقِنِ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَأَهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ ،
حَقِّ بَعْرِفِ الْخَلْقِ مَنْ جِهَلَهُ ، وَبِرْهَوِي عَنِ الْغَى وَالْمُدُونِ مَنْ لَهَجَ بِهِ .

الشرح :

السب : الشتم ، سبه يسبه بالضم ، والنسب : النشام ، ورجلٌ مسَّبٌ بكسر الميم :
كثير السباب ، ورجلٌ سُبَّةٌ ، أى يسبه الناس ، ورجلٌ سُبَّيَّةٌ ، أى يسب الناس ، ورجلٌ
سَبٌّ : كثير السباب ، وسببك : الذى يسابك ، قال :

لَا تَسْبِنِي فَلَسْتُ بِسَيٍّ إِنْ سَيٍّ مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ ^(١)

والذى كرهه عليه السلام منهم ، أنهم كانوا يشتمون أهل الشام ، ولم يكن يكره
منهم لعنهم إياهم ، والبذاءة منهم ، لا كانوا قوم من الحشوية ، فيقولون : لا يجوز

(١) لمجد الرحمن بن حسان ، وانظر الصحاح ١ : ١٤٥ .

لعن أحدر ممن عليه اسم الإسلام ، ويفكرون هلّى من يلعن ، ومنهم من يغالى فى ذلك ، فيقول : لا ألعن الكافر ، ولا ألعن إبليس ، وإن الله تعالى لا يقول لأحدر يوم القيامة : لم لم تلعن ؟ وإنما يقول : لم لآمنت ؟

واعلم أن هذا خلاف نص الكتاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال فى إبليس : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ^(٣) .

وقال : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا شُفُوا ﴾ ^(٤) .

وفى الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع .

وكيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرؤ ممن يجب التبرؤ منه ! ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ ^(٥) وإنما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله ؛ فإن كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحق بها اللعن والبراءة ؛ فلا ضير على من يلعنه ويبرأ منه ، وإن لم يكن قد قارف كبيرة لم يجز لعنه ، ولا البراءة منه .

ومما يدل على أن من عليه اسم الإسلام إذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنه ، بل يجب فى وقت ، قول الله تعالى فى قصة اللعان : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ

(١) سورة الأحزاب ٦٤ .

(٢) سورة البقرة ١٥٩ .

(٣) سورة من ٧٨ .

(٤) سورة الأحزاب ٦١ .

(٥) سورة الممتحنة ٤ .

لَيْنَ الصَّادِقِينَ • وَأَعْلَاسَةً أَنْ كَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ^(١) .
وقال تعالى في القاذف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ
لُعِنُوا فِي اللَّهِ نِيًّا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٢) .
فهاتان الآيتان في المكلفين من أهل القبلة ، والآيات قبلهما في الكافرين والمنافقين ؛
ولهذا قنّت أمير المؤمنين عليه السلام على معاوية وجماعة من أصحابه ، راعهم في
أدبار الصلوات .

فإن قلت : فما صورة السب الذي نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنه ؟
قلت : كانوا يشتمونهم بالآباء والأمهات ، ومنهم من يظن في نسب قوم منهم ،
ومنهم من يذكرهم باللؤم ، ومنهم من يمتهم بالجبن والبخل وبأنواع الأهاجي التي
يتهاجى بها الشعراء ، وأساليبها معلومة ، فهاهم عليه السلام عن ذلك ، وقال : إني أكره
لكم أن تكونوا سبّايين ؛ ولكن الأصوب أن تصفوا لهم أفعالهم ، وتذكروا حالهم ؛
أي أن تقولوا : إنهم فساق ؛ وإنهم أهل ضلال وباطل .

ثم قال : اجملوا عوض سبهم أن تقولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم !
حققت الدم أحقنه ، بالضم : منعت أن يسفك ، أي ألهمهم الإنابة إلى الحق والمدول
عن الباطل ؛ فإن ذلك إذا تم حققت دماء الفريقين .

فإن قلت : كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يفعله ؟ أليس من أصولكم أن الله
تعالى لا يضطر المكلف إلى اعتقاد الحق ، وإنما يكله إلى نظره ؟ !
قلت : الأمر وإن كان كذلك ، إلا أن المكلفين قد تبدؤا بأن يدعوا الله تعالى

(١) سورة النور ، ٦ ، ٧ .

(٢) سورة النور ، ٢٣ .

بنك ، لأن في دعائهم إياه ذلك لطفاً لهم ومصالح في أديانهم ؛ كالدعاء بزيادة الرزق وتأخير الأجل .

قوله : « وأصلح ذات بيننا وبينهم » ؛ يعني أحوالنا وأحوالهم . ولما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : « ذات البين » ؛ كما أنه لما كانت الضمائر ملابسة للصدر قيل : « ذات الصدور » ، وكذلك قولهم : اسقني ذا إنائك لما كان ما فيه من الشراب ملابساً له ، ويقولون للمتبرز قد وضع ذا بطنه ؛ وللعجلى نضع : ألقت ذا بطنها .
وارعوى عن الغي : رجع وكف .

لمحج به بالكسر ، بلمحج : أغرى به وثابر عليه .



(٢٠٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صيفين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرع إلى الحرب :

أُمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْفُلَامَ لَا يَهْدِي ؛ فَإِنِّي أَنَفْسُ يَهْدِي - يَمْنِي الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَام - عَلَى الْمَوْتِ لَثَلًا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ الرَّضِيُّ أَبُو الْحَسَنِ رَجَعَهُ اللَّهُ : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أُمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْفُلَامَ » مِنْ أَغْلِ الْكَلَامِ وَأَفْصَحِهِ .

الشرح :

الألف في « أُمْلِكُوا » ألف وصل ، لأن الماضي ثلاثي ، من ملكت الفرس والعبد والدار ، أملك بالكسر ، أي احجروا عليه كما يحجر لئالك على مملوكه .

وعن ، متعلقة بمحذوف تقديره : استولوا عليه وأبعدوه عني . ولما كان الملك سبب الحجر على المملوك عبر بالسبب عن السبب ، كما عبر بالنكاح عن العقد ، وهو في الحقيقة اسم الوطء ، لما كان العقد طريقا إلى الوطء ، وسببا له .

ووجه علو هذا الكلام وفصاحته أنه لما كان في : « املكوا » معنى البعد ، أعقبه

بن ، وذلك أنهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلا وقد أبدره عنه؛ ألا ترى أنك إذا حجرت على زيد دون عمرو ، فقد باعدت زيدا عن عمرو ! فلذلك قال : املسكوا عني هذا الغلام ، واستفصح الشارحون قول أبي الطيب :

إذا كان شَمُّ الرُّوحِ أَذْنِي إِلَيْكُمْ فَلَا بَرَحَتِي رَوْضَةً وَقَبُولٌ ^(١)

قالوا : ولما كان في « فلا برحتي » معنى « فارقني » عدوى اللفظة ، وإن كانت لازمة ، نظرا إلى المعنى ^(٢) .

قوله : « لا يهدني » أي لثلا يهدني ، فحذف كما حذف طرفة في قوله :

• أَلَا أَيْهَذَا الزَّاجِرِ أَحْضَرَ الْوَعْيِ ^(٣) •

أي لأن أحضر .

وأنفس : أبخل ، نفست عليه بكذا ، بالكسر .

فإن قلت : أيجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما : أبناء رسول الله وولد رسول الله ، وذرية رسول الله ، ونسل رسول الله ؟

قلت : نعم ؛ لأن الله تعالى سمّاهم « أبناء » في قوله تعالى : ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ ^(٤) ، وإنما عني الحسن والحسين ، ولو أوصى لولد فلان بما دخل فيه أولاد البنات ، وسمى الله تعالى عيسى ذرية إبراهيم في قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ^(٥) إلى أن قال : ﴿ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَى ﴾ ؛ ولم يختلف أهل اللغة في أن ولد البنات من نسل الرجل .

(١) ديوانه ٣ : ٩٦ .

(٢) من المعلقة - يشرح التهريزي ٨٠ ، وبقية :

• وَأَنْ أَشْهَدَ أَلَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِئِي •

(٣) سورة آل عمران ٦١ .

(٤) سورة الأنعام ٨٤ .

فإن قلت : فما تصنع بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ ؟ قلت :
أسألك عن أبوته لإبراهيم بن مارية ؛ فكما تجيب به عن ذلك ؛ فهو جوابي عن الحسن
والحسين عليهما السلام .

والجواب الشامل للجميع أنه عني زيد بن حارثة ؛ لأن العرب كانت تقول : « زيد بن محمد »
على عادتهم في تبنى العبيد ، فأبطل الله تعالى ذلك ، ونهى عن سنة الجاهلية ، وقال : إن محمداً
عليه السلام ليس أباً لواحدٍ من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتزى إليه بالنبوة ،
وذلك لا يبنى كونه أباً لأطفال ، لم تطلق عليهم لفظة الرجال ، كما إبراهيم وحسن وحسين
عليهم السلام .

فإن قلت : أقول إن ابن البنت ابنٌ على الحقيقة الأصلية أم على سبيل المجاز ؟
قلت : لذاذهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصلية ؛ لأن أصل الإطلاق الحقيقة ، وقد يكون
اللفظ مشتركاً بين مفهومين وهو في أحدهما أشهر ، ولا يلزم من كونه أشهر في أحدهما ألا
يكون حقيقة في الآخر .

ولذاذهب أن يذهب إلى أنه حقيقة عرفية ، وهي التي كثر استعمالها ؛ وهي في الأصل كثر
مجاز ؛ حتى صارت حقيقة في العرف ، كالراوية للمزادة ، والسقاء للمطر .

ولذاذهب أن يذهب إلى كونه مجازاً قد استعمله الشارع ، فجاز إطلاقه في كل حال ؛
واستعماله كسائر المجازات المستعملة .

ومما يدل على اختصاص ولد فاطمة دون بنى هاشم كافة بالنبي عليه السلام ، أنه ما كان
يحمل له عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذريتهما ،
وإن بُدُنَ وطال الزمان ، ويحمل له نكاح بنات غيرهم من بنى هاشم من الطالبين وغيرهم ؛
وهذا يدل على مزيد الأقربية ، وهي كونهم أولاده ، لأنه ليس هناك من القرى غير

هذا الوجه ، لأنهم ليسوا أولاد أخيه ولا أولاد أخيه ، ولا هناك وجه يقتضى حرمتهم عليه إلا كونه والدًا لهم ، وكونهم أولاد له ، فإن قلت قد قال الشاعر :

بَنُونًا بَنُوا أَبْنَانًا وَبَنَاتًا • بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْبَاعِدِ

وقال حكيم العرب أكنتم بن صيفي في البنات بدمتهن : إسن يلدن الأعداء ، ويورثن البعداء .

قلت : إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر ، وليس في قول أكنتم ما يدل على نفي بنوتهم ، وإنما ذكر أنهم يلدن الأعداء ؛ وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدواً ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ ^(١) ، ولا ينفي كونه عدواً كونه ابناً ، قيل ل محمد ابن الحنفية عليه السلام : لم يفرر بك أبوك في الحرب ، ولم لا يفرر بالحسن والحسين ؟ فقال : لأنهما عيناها ؛ وأنا بميمنة ، فهو يذب عن عيني يمينه .

مركز توثيق التراث الحضاري والحضاري

(٢٠١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة :
أيها الناس ، إنه لم يزل أمرى معكم على ما أحب ، حتى نهكتكم الحرب ،
وقد والله أخذت منكم وتركت ، وهي لعدوكم أنهلك .
لقد كنت أمتس أميرا ، فأصبحت اليوم مأمورا ، وكنت أمتس ناهيا ، فأصبحت
اليوم مناهيا . وقد أحببتكم البقاء ؛ وليس لي أن أجعلكم على ما تكرهون .



الشرح :

نهكتكم ، بكسر الهاء : أدفقتكم وأذاجتكم ، ويجوز فتح الهاء ، وقد نهك الرجل
أي دنف وضني ، فهو منهوك . وعليه نهكة للرض ، أي اثره الحرب ، مؤنثة .
وقد أخذت منكم وتركت ، أي لم تستأصلكم ، بل فيكم بعد بقتية ، وهي لعدوكم
أنهلك ، لأن القتل في أهل الشام كان أشد استعرازا ، والوهن فيهم أظهر ، ولولا فساد
أهل العراق برفع المصاحف ، لاستؤصل الشام ، وخلص الأشتر إلى معاوية ، فأخذه بعقه ،
ولم يكن قد بقي من قوة الشام إلا كهركة ذئب الوزغة عند قتلها ، بضرب يمينها وشمالا ؛
ولكن الأمور السماوية لا تغالب .

فأما قوله : « كنت أمتس أميرا ، فأصبحت اليوم مأمورا » ، فقد قدمنا شرحا لم
من قبل ، وأن أهل العراق لما رفع عمرو بن العاص ومن معه للمصاحف على وجه الكيدة

حين أحسّ بالمعطب وعلوّ كلمة أهل الحقّ ، أزموا أمير المؤمنين عليه السلام بوضع أوزار الحرب ، وكفّ الأبدى عن القتال ، وكانوا في ذلك على أقسام :

فمنهم مَنْ دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف ، وغلب على ظنه أن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خُدعة وحيلة ، بل حقاً ودعاء إلى الدين وموجب الكتاب ، فرأى أن الاستسلام للحجة أولى من الإصرار على الحرب .

ومنهم مَنْ كان قد ملّ الحرب ، وآثر السّلم ، فلما رأى شبهة ما يسوغ التعلّق بها في رفض المحاربة وحسب العافية أخذ إليهم .

ومنهم مَنْ كان يَبْغِضُ علياً عليه السلام بباطنه ، ويطيحه بظاهره ، كما يطيع كثير من الناس السلطان في الظاهر ويبغضه بقلبه ، فلما وجدوا طريقاً إلى خذلانه وترك نصرته ، أسرعوا نحوها ، فاجتمع جمهور عسكره عليه ، وطالبوه بالكفّ وترك القتال ، فامتنع امتناع عالم بالمكيدة ، وقال لهم : إنها حيلة وخديعة ، ولأني أعرفُ بالقوم منكم ، إنيهم ليسوا بأصحاب قرآن ولا دين ، قد صعبتهم وعرفتهم صغيراً وكبيراً ، فعرفت منهم الإعراض عن الدين ، والركون إلى الدنيا ، فلا ترأّعوا برفع المصاحف ، وصمّموا على الحرب ، وقد ملكتموم ، فلم يبق منهم إلّا حشاشة ضعيفة ، وذمّاء قليل . فأبوا عليه ، وألحوا وأصرّوا على القمود والخذلان ، وأسرّوه بالإفّاذ إلى المحاربين من أصحابه ، وعليهم الأشر أن يأمرهم بالرجوع ، وتهذّوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية . فأرسل إلى الأشر بأمره بالرجوع وترك الحرب ، فأبى عليه فقال : كيف أرجع وقد لاحت أمارات الفطر ! فقالوا له : « ليمهني ساعة واحدة » ، ولم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت ، فلما عاد إليه الرسول بذلك ، غضبوا ونفروا وشغبوا ، وقالوا : أنفذت إلى الأشر سرّاً وباطناً ، تأمره بالتصميم ، ونهاه عن الكفّ ، وإن لم تمده الساعة ، وإلّا قتلناك كما قتلنا عثمان ، فرجعت الرّسل إلى الأشر فقالوا له : أئحبّ أن نظنّ بمكانك وأمير المؤمنين قد سلّ عليه

خمسون ألف سيف ! فقال : ما الخبر ؟ قال : إن الجيش بأسره قد أحرق به ، وهو قاعد
فيهم على الأرض ، تحته نطع ، وهو مطرق ، والبارقة تلمع على رأسه ، يقولون : لئن لم تعد
الأشتر قتلناك ! قال : ويحكم ! فما سبب ذلك ؟ قالوا : رفع المصاحف ، قال : والله لقد ظننت
حين رايتها رفعت أنها ستوقع فرقة وفقنة .

ثم كرر راجعاً على عقبيه ، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر ، قد رده
أصحابه بين أمرين : إما أن يسلموه إلى معاوية ، أو يقتلوه ، ولا ناصر له منهم إلا ولداه
وابن عمه ونفر قليل لا يبلغون عشرة ، فلما رآهم الأشتر سبهم وشتمهم ، وقال : ويحكم !
أبعد الظفر والنصر صب عليكم الخذلان والفرقة ! يا ضعاف الأحلام ! يا أشباه النساء !
يا سفهاء العقول ! فشتموه وسبوه ، وقهروه وقالوا : المصاحف المصاحف ! والرجوع إليها ،
لا نرى غير ذلك ! فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم ، دفعاً للمحذور الأعظم
بارتكاب المحذور الأضعف ، فلذلك قال : « كنت أميراً فأصبحت مأموراً ؛ وكنت
ناهياً فصرت منهيّاً » . وقد سبق من شرح حال التحكيم وما جرى فيه ما يغني عن إعادته .

(٢٠٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي ؛
وهو من أصحابه يموده ، فلما رأى سعة داره قال :

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا ، أَمَا أَنْتَ إِنِّي فِي الْآخِرَةِ كُنْتُ أَخْوَجَ
وَلَمْ يَلْنِي إِنْ شِئْتَ بَلَمْتُ بِهَا الْآخِرَةَ : تَقْرَى فِيهَا الضَّيْفَ ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ ، وَتُطْلِعُ
مِنْهَا الْخُلُقُوقَ مَطَاعِمَهَا ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَمْتَ بِهَا الْآخِرَةَ !
فَقَالَ لَهُ الْعَلَاءُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ .

قال : وما له ؟

قال : لَيْسَ الْعِبَاءُ ، وَتَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا .

قال : قَلَى بِهِ . فلما جاء ، قال :

يَا عَدَى نَفْسِي ! أَقْدِرْ أَشْتَهَامَ بَيْتِكَ أَتَطْبِثُ ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ ! أَتَرَى اللَّهَ
أَحْلَى لَكَ الطَّيِّبَاتِ ، وَهُوَ بِكَرُهُ أَنْ تَأْخُذَهَا ! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ !
قال :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا أَنْتَ فِي خُشُوعَةٍ مَلْبَسِيكَ ، وَجُشُوعَةٍ مَا كَلِمَتِكَ !

قال :

وَيَحْكُ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنْ اللَّهُ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أُمَّةٍ أَنْ يَقْدَرُوا أَنْفُسَهُمْ
بِضَعْفَةِ النَّاسِ ، كَيْلًا يَتَّبِعُ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ !

الشرح

كنت هاهنا زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (١).

وقوله : « وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة » ، لفظ فصيح ، كأنه استدرك ، وقال : وبلى على أنك قد تحتاج إليها في الدنيا لتجعلها وصلة إلى نيل الآخرة .
بأن تفري فيها الضيف ؛ والضيف لفظ يقع على الواحد والجمع ، وقد يجمع فيقال : ضيوف وأضياف . والرحم : القرابة .

ونطلع منها الحقوق مطالعها : توقمها في مغان استحقاقها .
والعباء جمع عبادة ، وهي الكساء وقد تلين ، كالألوا : عطاءة وعظاية ، وصلاة وصلاية .
ونقول : على بفلان ، أى أحضره ، والأصل أهمل به على ، لحذف فصل الأمر ، ودل الباقي عليه .

ويأعدى نفسه ، تصغير « عدو » ، وقد يمكن أن يراد به التحقير المحض هاهنا ، ويمكن أن يراد به الاستعظام لمدادوته لها ، ويمكن أن يخرج مخرج التعنن والشفقة ، كقولك : يابنى .

واستهام بك الخبيث ، يعنى الشيطان ، أى جعلك هائما ضالاً ، والهاء زائدة .
فإن قيل : ما معنى قوله عليه السلام : « أنت أهون على الله من ذلك » ؟
قلت : لأن في الشاهد قد يحل الواحد منا لصاحبه فلا مخصوصا ، محابة ومراقبة ،

وهو يكره أن يفعله ، والبشر أهونُ على الله تعالى من أن يحلّ لهم أمراً بجمالة واستصلاحاً
للحال معهم ، وهو يكره منهم فعله .

وقوله : « هذا أنت ا » ، أى فإنا نراك خشن اللبس ا والتقدير : « فهأنت تفعل
كذا ، فكيف تنهى عنه ا »

وطعام جَشِب ، أى غليظ ، وكذلك مجشوب ، وقيل : إته الذى لا أدمّ معه .

قوله عليه السلام : « أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس » ، أى يشبهوا ويمثلوا .

وتبَيِّغَ الدم بصاحبه ، وتبوغ به ، أى هاج به ، وفى الحديث : « عليكم بالحجامة
لا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله » ، وقيل : أصل « يتبيغ » يتبغى ، قلب ، جذب وجذب ، أى يجب
على الإمام العادل أن يشبه نفسه فى لباسه وطعامه بضعة الناس - جمع ضعيف - لسكنا
يهلك الفقراء من الناس ، فإنهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطعم ، كان أدعى لهم إلى
سُلُوَان لذات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس .

[ذكر بعض مقامات العارفين والزهاد]

وروى أن قوماً من المتصوفة دخلوا خراسان على بن موسى الرضى ، فقالوا له :
إن أمير المؤمنين فكر فيما ولّاه الله من الأمور ، فرآكم - أهل البيت - أولى الناس أن تؤمّوا
الناس ، ونظر فيك من أهل البيت ، فرآك أولى الناس بالناس ، فرأى أن يرّد هذا الأمر
إليك ، والإمامية تحتاج إلى من يأكل الجشِب ، ويلبس الخشن ، ويركب الحار ، ويعود
المريض . فقال لهم : إن يوسف كان نبياً ، يلبس أقبيبة الديباج المزوّرة بالذهب ، ويجلس
على متكآت آل فرعون ، ويحكم ؛ إنما يراد من الإمام قِسْطه وعدله ؛ إذا قال صدق ،

وإذا حكم عدل ، وإذا وعد أنجز . إن الله لم يحرم لبوساً ولا مطعماً ، ثم قرأ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ^(١) الآية .

وهذا القول مخالف للقانون الذي أشار أمير المؤمنين إليه ، وللفلاسفة في هذا الباب كلام لا بأس به ، وقد أشار إليه أبو علي بن سينا في كتاب ” الإشارات “ وعليه يخرج قولاً أمير المؤمنين وعلي بن موسى الرضى عليهما السلام . قال أبو علي في مقامات العارفين : « العارفون قد يختلفون في المهم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر ، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العبر ، فربما استوى عند العارف الكشف والتدبر ، بل ربما أثر الكشف ، وكذلك ربما سوى عنده التقليل والمطر ، بل ربما أثر التقليل ، وذلك عند ما يكون الهاجس بباله ، استحضار ما عدا الحق ، وربما صفا إلى الزينة ، وأحب من كل شيء عقيلته ^(٢) ، وكره الخلداج والسقط ، وذلك عندما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة ، فهو يرتاد إليها في كل شيء ، لأنه مزينة خطوة من المناسبة الأولى ، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه ، وقد يختلف هذا في عارفين ، وقد يختلف في عارف بحسب وقتين .

واعلم أن الذي رويته عن الشيوع ، ورأيت به بخط عبد الله بن أحمد بن الحشاش رحمه الله ، أن الربيع بن زياد الحارثي ، أصابته شابة في جيبته ، فكانت تنقص عليه في كل عام ، فأناه على عليه السلام عائداً ، فقال : كيف تجدك أبا عبد الرحمن ؟ قال : أجدني يا أمير المؤمنين لو كان لا يذهب ما بي إلا بذهب بصرى لتنيت ذهابه ، قال : وما قيمة بصرى عندك ! قال : لو كانت لي الدنيا لغديته بها ، قال : لا جرم ! كيوم يطيقك الله على قدر ذلك . إن الله تعالى يعطي على قدر الألم والمصيبة ، وعنده تضييف كثير . قال الربيع :

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

(٢) العقيلة من كل شيء . أكرمها ، جنبها عقائل

يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخى ؟ قال : ماله ، قال : لبس العباء، وترك الللاء ، وغم أهله ، وحزن ولده .

فقال على : ادعوا الى عاصم ، فلما أتاه عيسى في وجهه ، وقال : ويحك يا عاصم أترى الله أباح لك الذات، وهو يكره ما أخذت منها ! لأنك أهون على الله من ذلك. أو ما سمعته يقول : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ ^(١) ، ثم يقول : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَاكُؤُنٍ لِّمَآ طَرِبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ^(٣) ، أما والله إن اجتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من اجتذالها بالمقال ، وقد سمعتم الله يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ، إن الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ^(٥) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ ^(٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض نسائه : « مالي أراك شعثاء مرهاء سلتاء » ^(٧) .

قال عاصم : فلم اقتصر يا أمير المؤمنين على لبس الخشن ، وأكل الجشيب ؟ قال : إن الله تعالى افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام ، كيلا يتبجح بالفقر فقره . فما قام على عليه السلام حتى نزع عاصم العباء ، ولبس ملأمة .
والزبيح بن زياده هو الذي افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر: دُلُونِي عَلَى رَجُلٍ إِذَا كَانَ

(١) سورة الرحمن ١٩ .

(٢) سورة الرحمن ٢٢ .

(٣) سورة قاطر ١٢ .

(٤) سورة الضحى ١١ .

(٥) سورة البقرة ١٧٢ .

(٦) سورة المؤمنون ٥١ .

(٧) المرهء : التي لا تكتحل . والسلتاء : التي لا تخضب .

في القوم أميراً فكانه ليس بأمير ، وإذا كان في القوم ليس بأمير فسكانه الأمير بعينه !
وكان خيراً متواضعاً ، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فنوحش له الربيع ،
وتقشف وأكل معه الخشب من الطعام ، فأقره على عمله ، وصرف الباقي ، وقد ذكرنا
هذه الحكاية فيما تقدم .

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد ، وهو على قطعة من خراسان : إن أمير المؤمنين
معاوية كتب إلى يأسرك أن تحرز الصفراء والبيضاء وتقسم الخمرني^(١) وما أشبهه على أهل
الحرب . فقال له الربيع : إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ثم نادى في
الناس : أن اغدوا على غنائمكم ، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين ، ثم دعا الله أن يعينه ؛
فما جمع حتى مات .

وهو الربيع بن زياد بن أنس بن ديان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن
ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وائلة بن خالد بن مالك
ابن أدد .

وأما العلاء بن زياد الذي ذكره الرضى رحمه الله فلا أعرفه ، لعل غيري يعرفه .

(١) الخمرني : أردأ المتاع .

(٢٠٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع، وعما في أيدي
الناس من اختلاف الخبر، فقال عليه السلام :

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا ، وَصِدْقًا وَكَذِبًا ، وَنَاسِخًا وَمَنْسُوحًا ، وَعَامًّا
وَخَاصًّا ، وَنُحْكَمًا وَمُنْتَشَاهَا ، وَحِفْظًا وَوَهْمًا .

وَقَدْ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَهْدِهِ ، حَتَّى قَامَ خَطِيبًا ،
فَقَالَ : « مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَنْتَبِهُوا مُقَعَّدُهُ مِنَ النَّارِ » . وَإِنَّمَا أَنْتَ بِالْحَدِيثِ
أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ :

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ ، مُنْصَنِعٌ بِالإِسْلَامِ ، لَا يَتَأَنَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ ،
يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَعَمِّدًا ، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ
لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ ، وَلَسَكِنْهُمْ قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رَأَاهُ وَسَمِعَ مِنْهُ ، وَلَقِيتُ عَنْهُ ؛ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ
الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ ، ثُمَّ يَقُولُوا بَعْدَهُ ، فَيَقْرَبُوا إِلَى أُلُمِهِ
لِلضَّلَالَةِ ، وَالِدُعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ ، فَوَلُّوهُمْ الْأَعْمَالَ ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا
عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالِدُّنْيَا ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ
اللَّهُ . فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ .

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَوَيْمَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ

كُذِّبًا فَهُوَ فِي يَدَيْهِ ، وَيَرْوِيهِ وَيَسْمَلُ بِهِ ، وَيَقُولُ : أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ .

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ ، تَسْمَعُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا ، يَأْمُرُ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، فَحَفِظَ النَّسْوَخَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ .

وَأَخْرَجَ رَابِعٌ ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَهْمُ ، بَلْ حَفِظَ مَا تَسْمَعُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى تَمَعِهِ ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَسِيلَ بِهِ ، وَحَفِظَ النَّسْوَخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ ، وَالْحُكْمَ وَالْمُتَشَابِهَ ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَلَامُ ، لَهُ وَجْهَانِ ، فَكَلَامٌ خَاصٌّ ، وَكَلَامٌ عَامٌّ ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنِ اللَّهِ مُبْجَاهُهُ بِهِ ، وَلَا مَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ ، وَمَا قَصَدَ بِهِ ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَأَيْسَرَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ ، وَيَسْتَفْهِمُهُ ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُجِيبُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِي ، فَيَسْأَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى يَسْمَعُوا ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، وَحَفِظْتُهُ .

فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَعِلْمِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ .

الشرح :

الكلام في تفسير الألفاظ الأصولية ؛ وهي العام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، والصدق والكذب ، والحكم والنشابة ، موكول إلى فن أصول الفقه ، وقد ذكرناه فيما أمليناه من الكتب الأصولية ، والإطالة بشرح ذلك في هذا الموضع مستهجنة .

قوله عليه السلام : « وحفظا ووهما » الهاء مفتوحة ، وهي مصدر وهمت بالكسر ، أَوْهَمَ ، أى غلطت ومهوت ، وقد روى : « وَهْمًا » بالتسكين ، وهو مصدر وهمت بالفتح أَوْهَمَ ، إذا ذهب وهْمُك إلى شيء وأنت تريد غيره ، والمعنى متقارب .

وقول النبي صلى الله عليه وآله : « فليقبوا مقعده من النار » كلام صيغته الأمر ، ومعناه الخبر ، كقوله تعالى : « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا »^(١) ، وتبوءات المنزل : نزله ، وبوأتة منزلا : أنزله فيه .

والقائم : الكف عن موجب الإثم ، والتعرج مثله ، وأصله الضيق ، كأنه بضيق على نفسه .

ولَقِفَ عنه : تناول عنه .

وجَنَّبَ عنه : أخذ عنه جانبا .

و « إن » في قوله : « حتى إن كانوا ليحبون » مخففة من الثبيلة ، ولذلك جاءت اللام في الخبر .

والطارى ، بالهمز : الطالع عليهم ، طَرَأَ أى طلع ، وقد روى : « عَلَّيْهِمْ » ، بالرفع عطفا على « وجوه » ، وروى بالجزم عطفا على « اختلافيهم » .

[ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة محمد عليه السلام]

واعلم أن هذا التقسيم صحيح ، وقد كان في أيام الرسول الله صلى الله عليه وآله منافقون ، وبقوا بعده ، وليس يمكن أن يقال : إن الاتفاق مات بموته ، والسبب في استتار حالهم بعده أنه صلى الله عليه وآله كان لا يزال يذكرهم بما ينزل عليه من القرآن ، فإنه مشحون بذكرهم ، ألا ترى أن أكثر ما نزل بالمدينة من القرآن يملؤه بذكر المنافقين ، فكان السبب في انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن ، فلما انقطع الوحي بموته صلى الله عليه وآله لم يبق من ينغى عليهم سقطانهم ويؤتخهم على أعمالهم ، ويأمر بالحدز منهم ، ويجاهرهم تارة ، ويعاملهم تارة ، وصار التوتى للأمر بعده بحمل الناس كلهم على كاهل الحاملة ، ويعاملهم بالظاهر ، وهو الواجب في حكم الشرع والسياسة الدنيوية ، بخلاف حال الرسول الله صلى الله عليه وآله فإنه كان تكليفه معهم غير هذا التكليف ، ألا ترى أنه قيل له : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ ^(١) فهذا يدل على أنه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلا كان النهى له عن الصلاة عليهم تكليف مالا يطاق ، والوالى بعده لا يعرفهم بأعيانهم ، فليس مخاطباً بمخاطب به صلى الله عليه وآله في أمرهم ، ولسكوت الخلقاء عنهم بعده تخل ذكرهم ، فكان قصارى أمر المنافق أن يسير ما في قلبه ، ويعامل المسلمين بظاهره ، ويعاملونه بحسب ذلك . ثم فتحت عليهم البلاد ، وكثرت الغنائم ، فاشتغلوا بها عن الحركات التي كانوا يعتمدونها أيام رسول الله ، وبعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والروم ، فألهتهم الدنيا عن الأمور التي كانت تنغم منهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومنهم من استقام اعتقاده ، وخلصت نيته ، لما رأوا الفتوح وإلقاء الدنيا أفلاذ كبدها من الأموال العظيمة ، والسكنوز الجليلة إليهم ، فقالوا : لو لم يكن هذا الدين

حقاً لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه . وبالجملة أما تر كوا تر كوا ، وحيث سكت عنهم سكتوا عن الإسلام وأهله ؛ إلا في دسيسة خفية يعملونها ، نحو الكذب ، الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنه خالط الحديث كذب كثير ، صدر عن قوم غير صحيحين المتقيدة ، قصدوا به الإضلال وتخبيط القلوب والمقائد ، وقصد به بعضهم الذنوبية بذكر قوم كان لهم في الذنوبية بذكرهم غرض دنيوي . وقد قيل : إنه افتيل في أيام معاوية خاصة حديث كثير على هذا الوجه ، ولم يسكت المحدثون الراسخون في علم الحديث عن هذا ، بل ذكروا كثيراً من هذه الأحاديث الموضوعة ، ويثبتوا وضعها ؛ وأن رواها غير موثوق بهم ، إلا أن المحدثين إنما يطمعون فيما دون طبقة الصحابة ، ولا يتجاسرون في الطعن على أحد من الصحابة ؛ لأن عليه لفظ « الصحبة » ؛ على أنهم قد طعنوا في قوم لهم صحبة كبشر بن أرطاة وغيره .

فإن قلت : من هم أئمة الضلالة ، الذين يتقرب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومحبوه للزور والبهتان ؟ وهل هذا إلا نصريح بما تذكره الإمامية ، وتعتقده !

قلت : ليس الأمر كما ظننت وظنوا ، وإنما يمتنع معاوية وعمر بن العاص ومن شابعهما على الضلال ، كالخبر الذي رواه من رَوَاهُ في حق معاوية : « اللهم قهر المذاب والحساب ، وعلقه الكتاب » ؛ وكرواية عمرو بن العاص تقرأ بها إلى قلب معاوية : « إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء ، إنما واتي الله وصالح المؤمنين » وكرواية قوم في أيام معاوية أخبارا كثيرة من فضائل عثمان ، تقرأ بها إلى معاوية بها ، واسنانجحد فضل عثمان وسابقته ، ولكنا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيه موضوع ، كخبر عمرو بن مرة فيه وهو مشهور ، وعمرو بن مرة ممن له صحبة ، وهو شامي .

[ذكر بعض ما مَنَى به آل البيت من الأذى والاضطهاد]

وليس يجب من قولنا : إن بعض الأخبار الواردة في حق شخص فاضل مفتعلة أن تكون قاذحة في فضل ذلك الفاضل ؛ فإننا مع اعتقادنا أن علياً أفضل الناس ، نعتقد أن بعض الأخبار الواردة في فضائله مفتعل ومختلق .

وقد روى أن أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام ، قال لبعض أصحابه : يا فلان ، ما قمنا من ظلم قريش إيانا ، وتظاهروا علينا ، ومالوا شيعتنا ومحبوها من الناس إلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وقد أخبر أنا أولى الناس بالناس ، قبالاً علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن مئذنه ، واحتجبت على الأنصار بحقنا وحجبتنا . ثم تداوتها قريش ، واحد بعد واحد ، حتى رجعت إلينا ، فنكحت بيعتنا ، ونصبت الحرب لنا ، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كنود ، حتى قيل ، فبوع الحسن ابنه وعوهد ثم غدير به ، وأسلم ، ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه ، ونهبت عسكره ، وعولجت خلاليل أمهات أولاده ، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته ، وهم قليل حق قليل . ثم بايع الحسين عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفاً ، ثم غدروا به ، وخرجوا عليه ، وبيعته في أعناقهم وقتلوه ، ثم لم يزل - أهل البيت - نستذل ونستضام ، ونقصي ونمنهن ، ونحرم ونقتل ، ونخاف ولا نأمن على دماءنا ودماء أوليانا ، ووجد الكاذبون الجاحدون الكذبههم وجعودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاء السوء وعمال السوء في كل بلدة ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ، ليبعضونا إلى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، ففتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الأبدى والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والاقطاع إلينا سجن أو سرب ماله ، أو هدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد ،

إلى زمان عبید الله بن زیاد قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتيلة ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له : زنديق أو كافر ، أحب إلي من أن يقال : شيعه علي ، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخبر سولته يكون ورعاً صدوقاً . يحدث بأحاديث عظيمة محببة ، من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها ، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حق ! لكثرة من قد رَوَاهَا من لم يعرف بكذب ولا بقلة ورع .

وروى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدايني في كتاب « الأحداث » قال : كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة : أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة ، وعلى كل منبر ، يأمنون علياً ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته ؛ وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ؛ لكثرة من بها من شيعه علي عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، وضم إليه البصرة ، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف ؛ لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام ؛ فقتلهم تحت كل حجر ومدبر ، وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق ؛ فلم يبق بها معروف منهم . وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق : ألا يميزوا لأحد من شيعه علي وأهل بيته شهادة . وكتب إليهم : أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومعبيه وأهل ولايته ، والذين يروون فضائله ومناقبه ؛ فأدنوا بحالهم وقرّبوهم وأكرمّوهم ، واكتبوا لي بكل ما يروى كل رجل منهم ، واسمه واسم أبيه وعشيرته .

ففعّلوا ذلك ، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان بيعته إليهم معاوية من الصلوات والديكساء والحباء والقطائع ، وبقيضه في العرب منهم والموالي ؛ فكثر ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في المنازل والدنيا ، فليس يحى أحد مردود من الناس عاملاً من

عمال معاوية ، فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه . فلبثوا بذلك حيناً .

ثم كتب إلى عماله أن الحسد يث في عثمان قد كثر وقتاً في كل مصروف في كل وجه وناحية ؛ فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة ؛ فإن هذا أحب إلي وأقر لعمري ، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته ، وأشد إلبهم من مناقب عثمان وفضله .

فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة متعلقة لا حقيقة لها ، وجدة الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وأتوا إلى معلمي الكتاتيب ؛ فعلموا صبيانهم وغلانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رَووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمتهم وحشمتهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا مَنْ قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته ، فاحموا من الديوان ، وأسقطوا عطائه ورزقه ، وشفع ذلك بنسخة أخرى : مَنْ اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم ، فذكّلوا به ، واهدوا داره . فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ؛ ولا سيما بالكوفة ، حتى إن الرجل من شيعة علي عليه السلام كيأتيه مَنْ يثق به ، فيدخل بيته ، فيأتي إليه سره ، ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ، ليكتنّ عليه ، فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ؛ وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراءون ، والمستضعفون ، الذين يُظهرون الخشوع والنسك فيفتلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولائهم ، ويقرّبوا بحالهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع

والمسازل ؛ حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان ؛ فقبلوها ورووها ، وهم يظنون أنها حق ، ولو علموا أنها باطلة لما رَووها ، ولا تدبّروا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام ، فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه ؛ أو طريد في الأرض .

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام ، ووُلّيَ عبد الملك بن مروان ، فاشتدّ على الشيعة ، ووُلّيَ عليهم الحجاج بن يوسف ، فتقرّب إليه أهل النّسك والصلاح والدين بيفض على رموالة أعدائه ، وموالة من يدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه ، فأكثروا في الرواية في فضيلهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الفض من علي عليه السلام وعيبه ، والطمع فيه ، والشنآن له ، حتى إن إنساناً وقف للحجاج - ويقال إنه جد الأصمعي - عبد الملك بن قريب - فصاح به : أيها الأمير إن أهلي عتّوني فسوّني علياً ، وإني فقير بانس ، وأنا إلى صلة الأمير محتاج . فضاحك له الحجاج ، وقال : للطف ما توسّلت به قد وليتكَ موضع كذا .

وقد روى ابن عروة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر محدّثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر ، وقال : إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُعلت في أيام بني أمية ، تقرّبا إليهم بما يظنون أنهم يرغبون به أنوف بني هاشم .

قلت : ولا يلزم من هذا أن يكون علي عليه السلام يسوءه أن يذكر الصحابة والمتقدمون عليه بالخير والفضل ، إلا أن معاوية وبني أمية كانوا يبنّون الأمر من هذا على ما يظنون في علي عليه السلام من أنه عدوّ من تقدم عليه ؛ ولم يكن الأمر في الحقيقة كما

يظنون أنه ، ولكنه كان يرى أنه أفضل منهم ، وأنهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيق منه لهم ، ولا براءة منهم .

فأما قوله عليه السلام : « ورجل سمع من رسول الله شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوم فيه » ، فقد وقع ذلك . وقال أصحابنا في الخبر الذي رواه عبد الله بن عمر : « إن التيت ليعذب بكاء أهله عليه » : إن ابن عباس لما روى له هذا الخبر ، قال : ذهل ابن عمر ، إنما مر رسول الله صلى الله عليه وآله على قبر يهودي ، فقال : إن أهله ليبكون عليه ، وإنه ليعذب .

وقالوا أيضاً : إن عائشة أنكرت ذلك ، وقالت : ذهل أبو عبد الرحمن ، كما ذهل في خبر قليب بدر ، إنما قال عليه السلام : « إنهم ليبكون عليه ، وإنه ليعذب بجرمه » . قالوا : وموضع غلظه في خبر القليب أنه روى أن النبي صلى الله عليه وآله وقف على قليب بدر ، فقال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » ثم قال : « إنهم يسمعون ما أقول لهم » ، فأنكرت عائشة ذلك ، وقالت : إنما قال : « إنهم يعلمون أن الذي كنت أقوله لهم هو الحق » ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ ^(١) .

فأما الرجل الثالث ، وهو الذي يسمع للنسخ ولم يسمع الناسخ ، فقد وقع كثيراً ، وكتب الحديث والفقهاء مشحونة بذلك ، كالذين أباحوا لحوم الحمر الأهلية لخبر روه في ذلك ، ولم يرووا الخبر الناسخ .

وأما الرجل الرابع فهم العلماء الراستخون في العلم .

وأما قوله عليه السلام : « وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له

وجهاً ، فهذا داخلٌ في القسم الثاني وغير خارج عنه ، ولكنه كالنوع من الجنس ، لأن الوهم والغلط جنس تحته أنواع .

واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصاً من دون الصحابة بقرضه وإن الله عليهم يخفوات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، لا يطلع أحدٌ من الناس على ما يدور بينهما ، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وآله ، وإذا لم يسأل ابتداء النبي صلى الله عليه وآله بالتعليم والتنقيف ولم يكن أحدٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كذلك ، بل كانوا أقساماً : فمنهم من يهابه أن يسأله ، وهم الذين يحبون أن يحيى الأعرابي أو الطاري فيسأله وهم يسمعون ، ومنهم من كان يلبداً بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث ، ومنهم من كان مشغولاً عن طلب العلم وفهم المعاني ، إما بعبادة أو دنيا ، ومنهم المقلد يرى أن فرضه السكوت وترك السؤال ، ومنهم المبهض الشأني الذي ليس للذين عنده من الموقع ما يضيّع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه ؛ وانضاف إلى الأمر الخاص بعلي عليه السلام ذكاؤه وفطنته ، وطهارة طينته ، وإشراق نفسه وضوءها ، وإذا كان المحلل قابلاً متهيئاً ، كان الفاعل المؤثر موجوداً ، وللوانع مرتفعة ، حصل الأثر على أتم ما يمكن ؛ فلذلك كان علي عليه السلام - كما قال الحسن البصري - رباني هذه الأمة وذا فضلها ؛ ولذا تسميه الفلاسفة: إمام الآئمة وحكيم العرب .

[فصل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث]

واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا

في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حلهم على وضعها عداوة خصومهم ، نحو حديث « السطل » وحديث « الرمانة » وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين ، وتعرف كما زعموا بـ « ذات العلم » ، وحديث غسل سلمان الفارسي ، وطى الأرض ، وحديث الجحمة ، ونحو ذلك . فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث ، نحو « لو كنت متخذاً خليلاً » ، فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء ، ونحو سد الأبواب؛ فإنه كان لملى عليه السلام قلبته البكرية إلى أبي بكر، ونحو « اتقوني بدواة وبياض أكتب فيه لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه اثنان » . ثم قال: « يأبى الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر » ، فإنهم وضعوه في مقابلة الحديث المروي عنه في مرضه : « اتقوني بدواة وبياض أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً » ، فاختلفوا عنده . وقال قوم منهم : لقد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله ونحو حديث : « أنا راضٍ عنك فهل أنت عني راضٍ ! » ، ونحو ذلك . فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أو سموافى وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه قتله في عنق خالد ، وحديث اللوح الذي زعموا أنه كان في غدائر الحنفية أم محمد ، وحديث : « لا يفعلن خالد ما أمر به » ، وحديث الصحيفة التي علقت عام الفتح بالكعبة ، وحديث الشيخ الذي صعد المدير يوم بريد أبو بكر ، فسبق الناس إلى بيعته ، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضى اتفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم ، وعلى أدون الطبقات فيهم ، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في علي وفي ولديه ، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها . ولقد كان الفرقان في غنية عما اكتسبناه واجترأه ، ولقد كان في فضائل علي عليه السلام الناجية الصحيحة ، وفضائل أبي بكر المحققة

المعلومة ما ينبغي عن تكلف العصبية لها ، فإن العصبية لها أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تعدد المحاسن إلى تعدد المساوئ والمقايص . ونسأل الله تعالى أن يعصنا من الميل إلى الهوى وحب العصبية ، وأن يجزيّا على ما عودنا من حب الحق أين وجد وحيث كان ؛ سخط ذلك من سخط ، ورضى به من رضى ، بمنه ولطفه ا



(٢٠٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَكَانَ مِنْ أَفْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنَعَتِهِ ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ
الرَّاحِرِ الْمَقْرَأِ الْمُتَقَاصِفِ ، بَيْسًا جَامِدًا ، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا ، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ
بَعْدَ أَرْبَعِهَا ، فَاسْتَسَكَّتْ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ بِحَمْلِهَا الْأَخْضَرُ الْمُشْتَعَجِرُ ،
وَالْقَنَاقَمُ الْمُسَخَّرُ .

قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِتَهْدِيَتِهِ ، وَوَقَفَ الْخَارِيُّ مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ . وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا ،
وَنَشُورَ مُتُونِهَا ، وَأَطْلُودَهَا ؛ فَأَرْسَلَهَا فِي مَرَاسِيهَا ، وَالزَّمَهَا قَرَارَتَهَا ، فَمَضَتْ رُءُوسُهَا
فِي الْهَوَاءِ ، وَرَسَتْ أَصُولُهَا فِي الْمَاءِ ، فَأَنَهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا ، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي
مُتُونِ أَطْطَارِهَا ، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا ، فَأَشْبَقَ قِلَالُهَا ، وَأَطَالَ أَنْشَارُهَا ، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ
عِمَادًا ، وَأَرْزَهَا فِيهَا أَوْتَادًا ، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَعِيدَ بِأَهْلِهَا ، أَوْ تَسِيخَ
بِحَمْلِهَا ، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا .

فَتُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا ، وَأُجِدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا ؛
فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَادًا ، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا ، فَوَقَّى بِحَمْرِ لُجِيِّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي ، وَقَائِمٍ
لَا يَسْرِي ، تُسَكَّرُ كِرُهُ الرِّيحُ الْمَوَاضِعُ ، وَتَمُخَضُّهُ الْقَمَامُ الدَّوَارِفُ .
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى !

الشبح :

أراد أن يقول : « وكان من افتداره » فقال : « وكان من افتدار جبروته » ، تعظيماً وتفضيلاً ، كما يقال للملك : أمرت الحضرة الشريفة بكذا .

والبحر الزاخر : الذي قد امتد جداً وارتفع .

والتراكم : المجتمع بعضه على بعض .

والتقاصف : الشديد الصوت ، قصف الرعد وغيره قصيفا .

واليبس ، بالتحريك : المكان يكون رطبا ثم يبس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَضْرِبْ لَهُمْ مَخْرِجًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾^(١) ، واليبس بالسكون : اليابس خلقة ، حطب يبس ، هكذا يقوله أهل اللغة وفيه كلام ، لأن الحطب ليس يابساً خلقة بل كان رطبا من قبل ، فالأصوب أن يقال : لا تكون هذه اللفظة بحركة إلا في المكان خاصة .

وفطر : خلق ، والمضارع يفطر بالضم ، فطراً .

والأطباق : جمع طبق ، وهو أجزاء مجتمعة من جراد أو غيم أو ناس أو غير ذلك من حيوان أو جاد ، يقول : خلق منه أجساماً مجتمعة مرتفعة ، ثم ففقا سبع سموات ، وروى : « ثم فطر منه طباقاً » أي أجساماً منفصلة في الحقيقة متصلة في الصورة بعضها فوق بعض ، وهي من ألفاظ القرآن^(٢) المجيد .

والضمير في « منه » يرجع إلى ماء البحر في أظهر الأنظر ، وقد يمكن أن يرجع إلى اليبس .

واعلم أنه قد تكرر في كلام أمير المؤمنين ما يماثل هذا القول ويناسبه ، وهو مذهب

(١) سورة طه ٧٧

(٢) وهو قوله تعالى في سورة الملك ٣ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ، وقوله في سورة نوح ١٥ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ .

كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء، منهم ثاليس الملقب، قالوا: أصل الأجسام الماء، وخلقت الأرض من زبد، والسماء من بخاره، وقد جاء القرآن العزيز بنحو هذا، قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(١). قال شيخنا أبو علي وأبو القاسم رحمهما الله في تفسيريهما: هذه الآية دالة على أن الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والأرض، قالوا: وكان الماء على الهواء، قالوا: وهذا يدل أيضاً على أن الملائكة كانوا موجودين قبل خلق السموات والأرض، لأن الحكماء سبحانه لا يجوز أن يقدم خلق الجاد على خلق المكلفين، لأنه يكون عبثاً.

وقال علي بن عيسى الرماني من مشايخنا: إنه غير ممتنع أن يخلق الجاد قبل الحيوان، إذا علم أن في إخبار المكلفين بذلك لطفاً لهم، ولا يصح أن يخبرهم إلا وهو صادق فيما أخبر به، وإلما يكون صادقاً إذا كان المخبر خبره على ما أخبر عنه، وفي ذلك حسن تقديم خلق الجاد على خلق الحيوان. وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدل على أنه كان يذهب إلى أن الأرض موضوعة على ماء البحر، وأن البحر حامل لها بقدرته الله تعالى، وهو معنى قوله: «يحملها الأخضر للثعنجير، والقمام المسخر»، وأن البحر الحامل لها قد كانت جارية فوق تحتها، وأنه تعالى خلق الجبال في الأرض، فجعل أصولها راسخة في ماء البحر الحامل للأرض وأعلىها شائخة في الهواء، وأنه سبحانه جعل هذه الجبال عماداً للأرض، وأوتادا تمنعها من الحركة والاضطراب، ولولاها لما جت واضطربت، وأن هذا البحر الحامل للأرض تصعد فيه الرياح الشديدة فتحرّك حركة عنيفة، وتموج السحب التي تنفرف الماء منه لتطر الأرض به، وهذا كله مطابق لما في الكتاب العزيز، والسنة النبوية، والنظر الحكيم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وليس قوله : « تكرره الرياح » منافياً للنظر الحكيم أيضاً، لأن كرة الهواء محيطة بكرة ، وقد تمصف الرياح في كرة الهواء للأسباب المذكورة في موضعها من هذا العلم ، فيتموج كثير من الكرة المائية لعصف الرياح .

وليس قوله عليه السلام : « وتمخض الغمام الذوارف » صريحاً في أن السحب تنزل في البحر ، ففترف منه ، كما قد يعتقد في المشهور العامي ، نحو قول الشاعر :

كالبحر يُمطرُ السحاب وما لها فُضْلٌ عليه لأنها من مائه

بل يجوز أن تكون الغمام الذوارف تمخضه وتحركه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها ، فقد ثبت أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام موجه ؛ إن شئت فسرته بما يقوله أهل الظاهر ، وإن شئت فسرتة بما يعتقده الحكماء .

فإن قلت : فكيف قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ؛ وهل كان الذين كفروا راينين لذلك ؛ حتى يقول لم ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؟

قلت : هذا في قوله : « اعلوها أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ، كما يقول الإنسان لصاحبه : ألم تعلم أن الأمير صرف حاجبه الليلة عن بابه ؟ أى اعلم ذلك إن كنت غير عالم ؛ والرؤية هنا بمعنى العلم .

واعلم أنه قد ذهب قوم من قدماء الحكماء - ويقال : إنه مذهب سقراط - إلى تفسير القيامة وجهم بما يبنى على وضع الأرض على الماء ، فقالوا : الأرض موضوعة على الماء ، والماء على الهواء ، والهواء على النار ، والنار في حشوات الأفلاك ؛ ولما كان المنصران الخفيفان ، وهما الهواء والنار - يقتضيان صموداً محيطان به ، والمنصران الثقيلان اللذان في وسطهما ، وهما

الماء والأرض ؛ يقتضيان النزول والهبوط ، وقعت المدانة والمدافعة ، فلزم من ذلك وقوف
الماء والأرض في الوسط .

قالوا : ثم إن النار لا تزال يتزايد تأثيرها في إسخان الماء ، وينضاف إلى ذلك حر الشمس
والكواكب إلى أن تبلغ البحار والعنصر المائي غايتهما في الغليان والقوران ، فيتصاعد
بخار عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة ، وينضاف إلى ذلك حر فلك الأثير الملاصق للأفلاك
فتذوب الأفلاك كما يذوب الرصاص ، وتهافت وتتساقط وتصبح كالمهل الشديد الحرارة .
ونفوس البشر على قسمين : أحدهما ما تجوهر وصار مجردا بطريق العلوم والمعارف وقطع
العلائق الجسمانية حيث كانت مدبرا للبدن ، والآخر ما بقي على جسمانيته بطريق خلوه
من العلوم والمعارف ، وانغمسه في اللذات والشهوات الجسمانية ، فأما الأول فإنه يلتحق
بالنفس الكلية المجردة ، ويخلص من دائرة هذا العالم بالسكينة . وأما الثاني فإنه تنصب
عليه تلك الأجسام الفلكية الذائبة ، فيحترق بالسكينة ، ويتمذب وبلقي آلاما شديدة .
قالوا : هذا هو باطن ماوردت به الرواية من العذاب عليها ، وخراب العالم
والأفلاك وانهدامها .

ثم نعود إلى شرح الألفاظ :

قوله عليه السلام : « قامت على حد ما أمرت به » ، أي وقفت وثبتت .

والهاء في « حده » تعود إلى أمره ، أي قامت على حد ما أمرت به ؛ أي لم تتجاوز
ولا تعدته .

والأخضر : البحر ، ويسمى أيضا « خضارة » معرفة غير مصروف ، والعرب تسميه بذلك ؛
إما لأنه يصف لون السماء فيرى أخضر ، أو لأنه يرى أسود لصفائه فيطلقون عليه لفظ

الأخضر؛ كما سموا الأخضر أسود، نحو قوله: ﴿مُذَاهِمَاتَانِ﴾^(١)، ونحو تسميتهم قري العراق سوادا لخضرتها وكثرة شجرها، ونحو قولهم لا ديزج^(٢) من الدواب أخضر.

المتعرج : السائل، تعجرت الدم وغيره فامتدج، أى صبغته فانصب، وتصغير المتعرج مَتَّعِج ومَتَّعِيج .

والفقام، بالفتح : من أسماء البحر، ويقال لمن وقع في أمر عظيم : وقع في فقام من الأمر، تشبيها بالبحر .

قوله عليه السلام : « وَجَبَلْ جَلَامِيذَهَا » ، أى وخلق صخورها ؛ جمع جُلُود .

والنُشُوز : جمع نُشِرَ ، وهو المرتفع من الأرض . ويجوز فتح الشين .

ومتونها : جوانبها . وأطوادها : جبالها : « وبرى » : « وأطوادها » بالجر عطفًا على متونها .

فأرساها في مراسيها ، أثبتها في مواضعها ، رسا الشئ يرسو : ثبت . ورسا أفداهم في

الحرب : ثبتت ، ورسا السفينة ترسو رسوا ورسوا ، أى وقفت في البحر . وقوله تعالى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ يَجْرَاهَا وَرُءْسَاهَا ﴾^(٣) ؛ بالضم من أجريت وأرسيه ، ومن قرأ بالفتح

فهو من « رست » هى ، « وجرت » هى .

وألزمها قراراتها : أمسكها حيث استقرت .

قوله : « فأنهد جبالها » ، أى أعلاها . نهدي الجارية ينهد بالضم ، إذا أشرف وكعب ،

فهى ناهد وناهدة .

وسهولها : ما تطامن منها عن الجبال .

وأساخ قواعدها ، أى غيَّب قواعد الجبال في جوانب أقطار الأرض ، ساخت قوائم

(٢) فى اللسان : « يقال : فرس أخضر ، وهو الديزج » .

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

(٣) سورة هود ٤١ .

الفرس في الأرض تَسُوخ وتَسِيخ ، أى دخلت فيها وغابت ، مثل ثاغت ، وأسخطها أنا مثل أنحتها .

والأنصاب : الأجسام المنصوبة ، الواحد نُصْب بضم النون والصاد ، ومنه سميت الأصنام نُصُبا في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ ^(١) ؛ لأنها نصبت فسميت من دون الله ، قال الأعشى :

وذا النُّصْب المنسوب لا تنسكته لعاقبة ، والله ربك فاعبدا ^(٢)

أى وأساح قواعد الجبال في متون أقطار الأرض ؛ وفي المواضع الصالحة لأن تكون فيها الأنصاب المائلة ، وهى الجبال أنفسها .
قوله : « فأشبهق قلالها » ، جمع قَلَّة وهى ما علا من رأس الجبل ، أشبهقها : جعلها شاهقة ، أى عالية .

وآرزها : أثبتها فيها ، رزت الجرادة تَرْزُرًا ، وهو أن تدخل ذنبها في الأرض فتلقى بيضها ، وآرزها الله : أثبت ذلك منها في الأرض ، ويجوز « آرزت » ، لازما غير متعد ، مثل رزت ، وارتز السهم في الفرطاس : ثبت فيه . وروى « وآرزها » بالمد من قولم : شجرة آرزة ، أى ثابتة في الأرض ، آرزت بالفتح ، تأرز بالكسر ، أى ثبتت ، وآرزها بالمد . غيرُها ، أى أثبتها .

وتמיד : تتحرك . وتسيخ : تنزل ونهوى .

فإن قلت : ما الفرق بين الثلاثة : تميد بأهلها ، أو تسيخ بحملها ، أو نزول عن مواضعها ؟

قلت : لأنها لو تحركت لكانت إما أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها ،

(١) سورة المائدة ٣ .

(٢) ديوانه ١٠٣ .

والأول هو المراد بقوله : « تميد بأهلها » ، والثاني تنقسم إلى أن تنزل إلى تحت أول أنزل إلى تحت ، فالنزل إلى تحت هو المراد بقوله : « أو نسيخُ بحملها » والقسم الثاني هو المراد بقوله : « أو يزول عن مواضعها » .

فإن قلت : ما المراد بـ « على » في قوله : « فسكنت على حركتها » ؟ .

قلت : هي الهيئة الحال ، كما تقول عفوت عنه على سوء أدبه ، ودخلت إليه على شربه ، أى سكنت ، على أن من شأنها الحركة ؛ لأنها محمولة على سائل متدوج .
قوله : « مَوْجَان مياهما » ، بناء « قَمَلَان » لما فيه اضطراب وحركة كالغليان والزَّوَان والخَفَقَان ، ونحو ذلك .

وأجدها ، أى جعلها جامدة . وأكناقها : جوانبها . والمهاد : القراش

فوق بحر لجى : كثير الماء ، منسوب إلى اللَّجَّة ، وهي معظم البحر .

قوله : « يكر كوة الرياح » ، السكر كوة : نصريف الريح السَّحاب إذا جمعت بعد تفريق وأصله « يكرّر » من التكرير ، فأعادوا الكاف ، كر كرت الفارس عني أى دفعته ورددته .
والرياح المواصل : الشديدة المهبوب . وتمخضه ، يجوز فتح الخاء وضمها وكسرها ، والفتح أفصح ؛ لمكان حرف الحلق ، من تخضت اللبن ، إذا حركته لتأخذ زبدته .

والقيام : جمع ، والواحدة غمامة ، ولذلك قال : « اللذوارف » ، لأن « فواعل » أكثر ما يكون لجمع المؤنث ، ذرفت عينه أى دمعت ، أى السحب الماطر ، والمضارع من « ذرفت » عينه « تفرِف » بالكسر ، ذَرَفَا وَذَرَفَا . والمذارف : المدامع .

(٢٠٥)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ تَمِيعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ، وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ
وَالْأَمْرِ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ ، فَأَبَى بَعْدَ تَمِيمِهِ لَهَا إِلَّا التَّكْوِينَ عَنْ نُصْرَتِكَ ، وَالْإِبْطَاءَ عَنْ
إِعْزَازِ دِينِكَ ، فَإِنَّا نَشْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً ، وَنَشْتَشْهِدُ عَلَيْهِ
جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَتَمَوَّاتِكَ . ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَهُ الْمُنْفَى عَنْ أَنْصَرِهِ ،
وَالْآخِذُ لَهُ بِدَنْبِهِ .



الشرح :

ما في « أَيُّمَا » زائدة مؤكدة ، ومعنى الفصل وعيدٌ مَنْ استنصره ففقد عن نصره ،
ووصف للقالة بأنها عادلة ، إما تأكيد ، كما قالوا : شعر شاعر ، وإما ذات عدل ،
كما قالوا : رجل تاسر ولابن ، أي ذو ثمر وابن ، ويحوز أيضاً أن يريد بالعدالة المستقيمة
التي ليست كاذبة ولا محرفة عن جهتها ، والجائرة تقيضها وهي المحرفة ، جارٍ فلانٌ عن
الطريق ، أي انحرف وعدل .

والشكوى : التأخر .

قوله عليه السلام : « نشتشهدك عليه » ، أي نسألك أن تشهد عليه ، ووصفه تعالى

بأنه أكبر الشاهدين شهادة، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾ (١)،
بقول : اللهم إنا نستشهدك على خذلان من استنصرناه ، واستنصرناه إلى نصرتك ، والجهاد
عن دينك فأبى النهوض ، ونكث عن القيام بواجب الجهاد ، ونستشهد عبادك ، من البشر
في أرضك ، وعبادك من الملائكة في سمواتك عليه أيضاً ، ثم أنت بعد ذلك المنقذ لنا من
نصرتك ونهضته ، بما تتيحه لنا من النصر ، وتؤيدنا به من الإعزاز والقوة ، والآخذ له
بذنبه في القمود والتخلف .

وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَقُولُوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَلَكُمْ ﴾ (٢).



(١) سورة الأنعام ١٩

(٢) سورة محمد ٢٨

(٢٠٦)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ
تَذْيِيرِهِ لِلظَّاهِرِينَ ؛ وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ . الْعَالِمِ بِأَلَا كُتِبَ
وَلَا أُزِيدَ ؛ وَلَا عِلْمٌ مُسْتَفَادٌ ، الْمُقَدَّرُ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِأَلَا رَوِيَّةٌ وَلَا ضَمِيرٌ ، الَّذِي
لَا تَغْشَاءُ الظُّلُمُ ، وَلَا يَسْتَضِيهِ بِالْأَنْوَارِ ، وَلَا يَرْهَقُهُ أَيْلٌ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ .
لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْإِبْصَارِ ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ .

الشرح :

يحوز شبيه وشبهه ، والرواية هاهنا بالفتح ، ونعاليه سبحانه عن شبه المخلوقين ؛ كونه قديما
واجب الوجود ، وكل مخلوق محدث ممكن الوجود .

قوله : « الغالب لمقال الواصفين » ، أى إن كنهه جلاله وعظمته ، لا يستطيع الواصفون
وصفه وإن أطنبوا وأسهبوا ، فهو كالغالب لأقوالهم أمجزها عن إيضاحه وبلوغ منتهاه ،
والظاهر ، بأفعاله ، والباطن بذاته ، لأنه إنما يعلم منه أفعاله : وأما ذاته فغير معلومة .

ثم وصف علمه تعالى فقال : إنه غير مكسب كما يكتسب الواحد منا علومه بالاستدلال
والنظر ، ولا هو علم يزداد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منا ومعارفه ، وتكثر
لكثرة الطرق التى يتطرق بها إليها .

ثم قال : « وَلَا عِلْمٌ مُسْتَفَادٌ » ، أى ليس يعلم الأشياء بعلم يحدث مجددٌ كما يذهب إليه جهم وأتباعه وهشام بن الحكم ، ومن قال بقوله .
ثم ذكر أنه تعالى قدّر الأمور كلها بغير روية ، أى بغير فكر ولا ضمير ، وهو ما يطويه الإنسان من الرأى والاعتقاد والعزم فى قلبه .

ثم وصفه تعالى بأنه لا ينشأ ظلامٌ ، لأنه ليس بجسم ، ولا يستبضى بالأنوار ؛ كالأجسام ذوات البصر . ولا يترققه ليل ، أى لا ينشأ . ولا يجرى عليه نهار ، لأنه ليس بزمانى . ولا قابل للحركة ، ليس إدراكه بالإبصار ، لأن ذلك يستدعى المقابلة . ولا علمه بالإخبار مصدر أخبر ، أى ليس علمه مقصوراً على أن تخبره الملائكة بأحوال المكلفين ، بل هو يعلم كل شيء ، لأن ذاته ذات واجب لها أن تعلم كل شيء لمجرد ذاتها المخصوصة ، من غير زيادة أمر على ذاتها .



الأصل :

منها فى ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ ، وَقَدَّمَهُ فِي الْأَضْيَاءِ ، فَرَّتْ بِهِ الْفَاتِقُ ، وَسَاوَرَ بِهِ الْمَغَالِبَ ،
وَذَلَّلَ بِهِ الصُّوْبَةَ ، وَسَهَّلَ بِهِ الْخُرُوبَةَ ، حَتَّى مَرَّحَ الضَّلَالَ ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

الشرح :

أرسله بالضياء ، أى بالحق ، وسمى الحق ضياء ، لأنه يهتدى به ، أو أرسله بالضياء
أى بالقرآن .

وقدّمه في الإصطفاء ، أى قدّمه في الإصطفاء على غيره من العرب والعجم ، قالت قريش : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ﴾ ^(١) ، أى على رجل من رجلين من القرىتين عظيم ؛ أى إما على الوليد بن المغيرة من مكّة ، أو على عروة بن مسعود الثقفي من الطائف .

ثم قال تعالى : ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ﴾ ^(٢) ، أى هو سبحانه العالم بالمصلحة في إرسال الرسل ، وتقديم من يرى في الإصطفاء على غيره .
فرّق به المفاتق ، أى أصلح به المفاسد ، والرّثق ضدّ الفتق ، والمفاتق : جمع مفّتق ، وهو مصدر ؛ كالضرب والمقتل .

وساور به المغالب : ساورت زيدا أى واثبته ، ورجل سوار ، أى وثّاب ، وسورة الظهر : وثوبها في الرأس .

والحزونة ضدّ السهولة ، والحزن : ما غلظ من الأرض ، والسهل : ما لان منها ، واستعير تغير الأرض كالأخلاق ونحوها .

قوله : « حتى سرح الضلال » ، أى طرده وأسرع به ذهاباً .
عن يمين وشمال ، من قولهم : ناقة سرح ومنسرحة ، أى سريعة . ومنه تسريح المرأة ، أى تطليقها .

(١) سورة الزخرف ٣١

(٢) سورة الزخرف ٣٢

(٢٠٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدْلٌ ، وَحَكَمٌ فَصَل ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ،
وَسَيِّدُ عِبَادِهِ ، كُلَّمَا نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَمَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا ، لَمْ يُسَيِّمُ فِيهِ عَاهِرًا ،
وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرًا . أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَلَ لِاخْتِيارِ أَهْلًا ، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا ،
وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا ، وَإِنْ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَّاعَةٍ عَوْنًا مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، يَقُولُ عَلَى الْأَلْبَانَةِ ؛
وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَفْنِدَةَ ؛ فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمُسْتَشْفٍ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَخْفِظِينَ عَلَيْهِ ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ ، وَيَفْعَلُونَ عُيُونَهُ ؛
يَتَوَاصَلُونَ بِالْوَلَايَةِ ، وَيَتَلَقَّوْنَ بِالسَّحْبَةِ ، وَيَنَسَاقُونَ بِكُلِّ رُويَةٍ ، وَيَصْدُرُونَ
بِرَبِّيَّةٍ . لَا تَشْوِيهِمُ الرُّيَّةُ ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ ؛ عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ
وَأَخْلَقَهُمْ ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ ، وَيَتَوَاصَلُونَ ، فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبَذْرِ يُنْثَقِي ، فَيُؤْخَذُ
مِنْهُ وَيُبْقَى ، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ ، وَهَدَّاهُ التَّنْجِيصُ .

فَلْيَقْبَلِ أَمْرُكَ كَرَامَةً يَقْبُولُهَا ، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا ، وَلْيَنْظُرِ أَمْرُكَ فِي
قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مَقَامِهِ فِي مَنَزِلٍ ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنَزِلًا ؛ فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوِّلِهِ ،
وَمَعَارِفِ مُنْتَقِلِهِ .

فَطُوبَى لِمَنْ قَلْبٌ سَلِيمٌ ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ ، وَأَصَابَ سَبِيلَ
السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مِنْ بَصَرِهِ ، وَطَاعَةَ هَادٍ أَمْرَهُ ، وَبَادَرَ الْهَدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ ،

وَتَقَطَّعَ أَسْبَابُهُ . وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ ، وَأَمَّا أَلْحُوْبَةُ ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَهُدِيَ
نَهْجَ السَّبِيلِ .

الشَّرْحُ :

الضمير في « أنه » يرجع إلى القضاء والقدر المذكور في صدر هذه الخطبة ، ولم يذكره
الرضي رحمه الله ؛ يقول : أشهد أن قضاء تعالى عدلٌ وحكمٌ بالحق ، فإنه حكمٌ
فصل بين العباد بالإتصاف ، ونسب العدل والفصل إلى القضاء على طريق المجاز ، وهو
بالحقيقة منسوب إلى ذي القضاء ، والقاضي به هو الله تعالى .

قوله : « وسيد عباده » ، هذا كالجمع عليه بين المسلمين ، وإن كان قد خالف فيه
شذوذٌ منهم ، واحتج الجمهور بقوله : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، وبقوله : « ادعوا لي
سيد العرب علياً » ، فقالت عائشة : ألسنت سيد العرب ؟ فقال : « أنا سيد البشر ، وعلى
سيد العرب » ، وبقوله : « آدم ومن دونه تحت لوائى » .

واحتج المخالف بقوله عليه السلام : « لا تفضلوني على أخى يونس بن متى » .
وأجاب الأولون تارةً بالظن في إسناد الخبر ، وتارةً بأنه حكاية كلام حكاه صلى الله
عليه وآله عن عيسى بن مريم ، وتارةً بأن النهي إنما كان عن الغلو فيه كما غلت الأمم في
أنبيائها ، فهو كما ينهى الطبيب المريض فيقول : لا تأكل من الخبز ولا درهما ، وليس
مراده تحريم أكل الدرهم والدرهمين ، بل تحريم ما يستضر بأكله منه .

قوله عليه السلام : « كلّمنا نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما » ، النسخ : النقل ،
ومنه نسخ الكتاب ، ومنه نسخت الريح آثار القوم ، ونسخت الشمس الظل ، يقول :

كلما قسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين ، جعل خيرا وأفضلهما لولادة محمد عليه السلام ، وسمى ذلك نسخا ، لأن البطن الأول يزول ، ويخلفه البطن الثاني ، ومنه مسائل الناحيات في الفرائض .

وهذا المعنى قد ورد مرفوعا في عدة أحاديث ، نحو قوله صلى الله عليه وآله : « ما افتقرت فرقتان منذ نسل آدم ولده إلا كنت في خيرهما » .

ونحو قوله : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل مضر ، واصطفى من مضر كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش هاشما ، واصطفاني من بني هاشم » .

قوله : « لم يسهم فيه عاهر ، ولا ضرب فيه فاجر » ، لم يسهم : لم يضرب فيه عاهر يسهم ، أى بنصيب ، وجهه سهمان ، والعاهر : ذو العهر ، بالتحريك وهو الفجور والزنا ، ويجوز تسكين الهاء ، مثل نهر ونهر ، وهذا هو المصدر ، والماضي عهر بالفتح ، والاسم العهر ، بكسر العين وسكون الهاء ، والمرأة عاهرة ومعايرة وعييرة ، وتعيير الرجل إذا زنى ، والفاجر كالعاهر هاهنا ، وأصل الفجور : الميل ، قال كبيد :

فإن تتقدم نَفْسٌ مِنْهَا مقدما غليظا ، وإن أخرت فالكِفْلُ فاجر^(١)

يقول : مقعد الرديف مائل .

[ذكر بعض المطاعن في النسب وكلام للجاحظ في ذلك]

وفي الكلام رمز إلى جماعة من الصعابة في أنسابهم طعن ، كما يقال : إن آل سمد ابن أبي وقاص ليسوا من بني زهرة بن كلاب ، وإنما هم من بني عذرة من قحطان ،

وكما قالوا : إن آل الزبير بن العوام من أرض مصر من القبط ، وليسوا من بني أسد بن عبد المزى . قال المهيم بن عدي في كتاب " مثالب العرب " : إن خويلد بن أسد بن عبد المزى كان أتي مصر ثم انصرف منها بالعوام ، فقتلناه ، فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خويلد :

بني أسد ما بال آل خويلد يحنون شوقاً كل يوم إلى القبط^(١)
متى بذكروا قمي يحنوا لذكرها والرمث المقرون والسّمك الرقط
عيون كأمثال الزجاج وضيفة^(٢) تخالف كعيا في لحي كثة نط^(٣)
يرى ذاك في الشبان والشيب منهم مبدنا وفي الأطفال والجملة الشط
لعمري أبي العوام إن خويلداً غداة تبقاه ليوثق في الشرط^(٤)
وكما يقال في قوم آخرين : نرفع هذا الكتاب عن ذكر ما يطمئن به في أنسابهم ، كي لا يظن بنا أننا نحب المقالة في الناس .

قال شيخنا أبو عثمان في كتاب " مفاخرات قریش " : لا خير في ذكر العيوب إلا من ضرورة ، ولا نجد كتاب مثالب قط إلا لدعي أو شعوبي ، ولست واجده لصحيح النسب ، ولا لقليل الحسد ، وربما كانت حكاية الفحش الخش من الفحش ، ونقل الكذب أقبح من الكذب . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « اعف عن ذي قبر » ، وقال : « لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات » ، وقيل في المثل : « بكفيك من شر سماعة » . وقالوا : أممك من أبلحك ، وقالوا : من طلب عيباً وجدته ، وقال النابغة :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبِقٍ أَحْسَأَ لَا تَلُهُ عَلَى شَعَثٍ ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ^(٥)

(١) ديوانه ٢٣٩ .

(٢) يقال : رجل نط وأشط ؛ إذا جرى وجهه من الشعر لإطافات في أسفل ضلعه .

(٣) يريد شرط الخليفة .

(٤) ديوانه ١٤ .

قال أبو عثمان : وبلغ عمر بن الخطاب أن أناسا من رواة الأشعار وحسلة الآثار يميون الناس ، ويثلبونهم في أسلافهم ، فقام على المنبر ، وقال : إياكم وذكر العيوب ، والبحث عن الأصول ، فلو قلت : لا يخرج اليوم من هذه الأبواب إلا من لا وصمة فيه لم يخرج منكم أحد . فقام رجل من قريش - نكره أن نذكره - فقال : إذا كنت أنا وأنت يا أمير المؤمنين نخرج ! فقال : كذبت ، بل كان يقال لك ، يا قين ابن قين ، اقمدا قلت : الرجل الذي قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، كان عمره يفيضة لينضه أباه خالد ، ولأن المهاجر كان علوي الرأي جدا ، وكان أخوه عبد الرحمن بخلافه ، شهد المهاجر صفين مع علي عليه السلام ، وشهدا عبد الرحمن مع معاوية ، وكان المهاجر مع علي عليه السلام في يوم الجمل ، وفقت ذلك اليوم عينه . ولأن الكلام الذي بلغ عمر بلفقه عن المهاجر ، وكانت الوليد بن المغيرة مع جلالته في قريش - وكونه يسمى ربحانة قريش ، ويسمى المذل ، ويسمى الوحيد - حدادا يصنع الدروع وغيرها بيده ، ذكر ذلك عنه عبد الله بن قتيبة في كتاب " المعارف " (١) .

وروى أبو الحسن المدائني هذا الخبر في كتاب " أمهات الخلفاء " وقال : إنه روى عند جعفر بن محمد عليه السلام بالمدينة ، فقال : لائله يابن أخي ، إنه أشفق أن يحدث (٢) بقضية نفيل بن عبد العزى وصهاك أمة الزبير بن عبد المطلب . ثم قال : رحم الله عمر ! فإنه لم يعد السنة ، وتلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

أما قول ابن جرير الأملی الطبرستانی في كتاب " المسترشد " : إن عثمان والله

(١) المعارف ٢٥٠

(٢) يقال : حدثه بذهب غيره : أي عزاه إليه

(٣) سورة النور ١٩

أبي بكر الصديق كان ناكحاً أم الخير ابنة أخته ، فليس بصحيح ، ولكنها ابنة عمه ، لأنها ابنة صخر بن عامر ، وعتمان هو ابن عمرو بن عامر ؛ والعجب لمن اتبعه من فضلاء لإمامية على هذه المقالة من غير تحقيق لها من كتب الأنساب ، وكيف تتصور هذه الواقعة في قريش ، ولم يكن أحد منهم مجوسياً ولا يهودياً ، ولا كان من مذهبهم حل نكاح بنات الأخ ولا بنات الأخت !

ثم نعود لإنعام حكاية كلام شيخنا أبي عثمان ، قال : ومتى بقدر الناس - حفظك الله - على رجل مسلم من كل أئمة ، ومبرأ من كل آفة ؛ في جميع آباءه وأمهاته وأسلافه وأصهاره ، حتى تسلم له أخواله وأعمامه ، وخالاته وعماته ، وأخوانه وبناته ، وأمهات نسائه ، وجميع من يناسبه من قبل جداته وأجداده ، وأصهاره وأختانه ؛ ولو كان ذلك موجوداً لما كان نسب رسول الله صلى الله عليه وآله فضيلة في النقاء والتعذيب ، وفي التصفية والتقية ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مامني عرق سيفاج قط ، ومازلت أنقل من الأصحاب السليمة من الوصوم ^(١) ، والأرحام اليرثه من الميوب » ، فلست أنقض لأحد بالنقاء من جميع الوجوه ، إلا لنسب من صدقه القرآن ، واختاره الله على جميع الأنام ، وإلا فلا بد من شيء يكون في نفس الرجل أو في طرفيه ، أو في بعض أسلافه ، أو في بعض أصهاره ؛ ولكنه يكون منقطعاً بالصالح ، ومحجوباً بالفضائل ، ومغموراً بالنواقب .

ولو تأملت أحوال الناس ، لوجدت أكثرهم عيوباً أشد من نبيها ، قال الزبير بن من بدر : ما استب رجلان إلا غلب الأمهما . وقال : خصلتان كثيرتان في امرئ السوء :

(١) الوصوم : الميوب .

كثرة القطام ، وشدة السباب ، ولو كان مايقوله أصحابُ الثالب حقاً ، لما كان على ظهرها عربة ، كما قال عبد الملك بن صالح الهاشمي : **إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ بَعْضُ فِي بَعْضٍ حَقًّا ، فَمَا فِيهِمْ صَحيح ، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ بَعْضُ المُتَكَلِّمِينَ فِي بَعْضٍ حَقًّا ، فَمَا فِيهِمْ مُسلم !**

قوله عليه السلام : **« أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَمَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا ، وَلِلْحَقِّ دُعَاءً ، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا »** . الدعائم : ما يدعم بها البيت لتلا يسقط ، والعِصم : جمع عصمة ، وهو ما يُحفظ به الشيء ويمنع ، فأهل الخير هم المتقون . ودعائم الحق : الأدلة الموصلة إليه المثبتة في القلوب . وعِصم الطاعة : هي الإدمان على فعلها ، والتمسك على الإتيان بها ، لأن المرون على الفعل يكسب الفاعل ملكة تقتضى سهولته عليه . والعون هاهنا : هو اللطف المقرب من الطاعة ، المبعد من القبيح .

ثم قال عليه السلام : **« إِنَّهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسَةِ ، وَيُثَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ »** ، وهذا من باب التوسيع والمجاز ، لأنه لما كان مستهلاً للقول أطلق عليه أنه يقول على الألسنة ، ولما كان الله تعالى هو الذي يثبت الأفئدة ، كما قال : **﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾** ^(١) ، نسب التثبيت إلى اللطف ، لأنه من فعل الله تعالى ، كما ينسب الإنبات إلى المطر ، وإنما التثبيت للزرع هو الله تعالى ، والمطر فعله .

ثم قال عليه السلام : **« فِيهِ كِفَاءٌ لِمَكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمَشْقَفٍ »** ، والوجه فيه « كفاية » ، فإن الحمز لا وجه له هاهنا ، لأنه من باب آخر ؛ ولكنه أتى بالهمزة للازدواج بين « كفاء » ،

و « شفاء » كما قالوا : الغدايا والعشايا ، وكما قال عليه السلام : « مأزورات غير مأجورات » ، فأتى بالهمز ، والوجه الواو ، للازدواج .

[ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء]

ثم ذكر العارفين ، فقال : « واعلموا أن عباد الله المستعطفين عليه » ، إلى قوله : « وهذبته التمجيس » .

واعلم أن الكلام ، العرفان لم يأخذه أهل الملة الإسلامية إلا عن هذا الرجل ، وأعمى لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات ، وأبعد النهايات . والعارفون هم القوم الذين اصطفاهم الله تعالى ، واشتخبهم لنفسه ، واختصهم بأنسه ، أحبوه فأحبهم ، وعربوا منه فقرَّب منهم . قد تكلم أرباب هذا الشأن في المعرفة والعرفان ، فكل من نطق بما وقع له ، وأشار إلى ما وجدته في وقته .

وكان أبو علي الذقاق يقول : من أمارات المعرفة حصول الهيبة من الله ، فن ازدادت معرفته ازدادت هيئته .

وكان يقول : المعرفة توجب السكينة في القلب ، كما أن العلم يوجب السكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وسئل الشُّبلي عن علامات العارفة ، فقال : ليس لعارف علامة ، ولا لمحِب سكون ، ولا لخائف قلق .

وسئل مرة أخرى عن المعرفة ، فقال : أولها الله ، وآخرها مالا نهاية له . وقال أبو حفص الخدَّاد : منذ عرفت الله ما دخل قلبي حق ولا باطل . وقد أشكل هذا الكلام على أرباب هذا الشأن ، وتأوله بعضهم ، فقال : عند القوم أن المعرفة توجب

غَيْبَةُ الْعَبْدِ عَنْ نَفْسِهِ لاسْتِغْلَاءِ ذِكْرِ الْحَقِّ عَلَيْهِ ، فَلَا يَشْهَدُ غَيْرَ اللَّهِ ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَّا إِلَيْهِ ،
وَكَمَا أَنَّ الْعَاقِلَ يَرْجِعُ إِلَى قَلْبِهِ وَتَفَكُّرِهِ وَتَذَكُّرِهِ فِيمَا يَسْمَعُ مِنْ أَمْرٍ ، أَوْ يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حَالٍ ،
فَالْعَارِفُ رَجُوعُهُ إِلَى رَبِّهِ ، لَا إِلَى قَلْبِهِ ، وَكَيْفَ يَدْخُلُ الْمَعْنَى قَلْبَ مَنْ لَا قَلْبَ لَهُ !

وسئل أبو يزيد البسطامي عن العرفان ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذِلَّةً ﴾ ^(١) ، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفص الحداد .

وقال أبو يزيد أيضاً : لِلخَلْقِ أَحْوَالٌ ، وَلَا حَالٌ لِلْعَارِفِ ، لِأَنَّهُ مَحِيَّتُ رُسُومِهِ وَفَنَى
هُوَ ، وَصَارَتْ هَوِيَّتُهُ هَوِيَّةَ غَيْرِهِ ، وَغِيِبَتْ آثَارُهُ فِي آثَارِ غَيْرِهِ .

قلت : وهذا هو القول بالاتحاد الذي يبحث فيه أهل النظر .

وقال الواسطي : لَانْصَحَ الْمَعْرِفَةُ فِي الْعَبْدِ اسْتِغْنَاءُ بِاللَّهِ ، أَوْ اِفْتِقَارُ إِلَيْهِ . وَفَسَّرَ بَعْضُهُمْ
هَذَا الْكَلَامَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْاِفْتِقَارَ وَالْاِسْتِغْنَاءَ مِنْ أَمَارَاتِ صَحْوِ الْعَبْدِ وَبَقَاءِ رُسُومِهِ عَلَى
مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَالْعَارِفُ لَا يَصْغَحُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَا سَهْلَ لَكَ فِي وَجُودِهِ ، أَوْ لَا سَهْرَ لَكَ
فِي شَمُودِهِ ؛ إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَةَ الْاِسْتِهْلَاكِ فِي الْوُجُودِ مَخْطُوفٌ عَنْ إِحْسَاسِهِ بِالْغَنِيِّ وَالْفَقْرِ وَغَيْرِهِمَا
مِنَ الصِّفَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ الْوَاسِطِيُّ : مَنْ عَرَفَ اللَّهَ انْقَطَعَ وَخَرَسَ وَانْقَمَعَ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ : « لَا أَحْصَى ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

وقال الحسين بن منصور الحلاج : علامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة .

وقال سهل بن عبد الله النشترقي : غايَةُ الْعِرْفَانِ شَيْئَانِ : الدَّهْشُ وَالْحَيْرَةُ .

وقال ذو النُّونِ : أَعْرَفُ النَّاسِ بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ تَحْيُّراً فِيهِ .

وقيل لأبي يزيد : بماذا وصلت إلى المعرفة ؟ قال : بِيَدْنِ عَارٍ ، وَبَطْنِ جَائِعٍ .

وقيل لأبي يعقوب الشوسى : هل يتأسف العارف على شيء غير الله ؟ فقال : وهل يرى شيئاً غيره ، ليتأسف عليه !

وقال أبو يزيد : العارف طيار ، والزاهد سيار .

وقال الجنيد : لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البرّ والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت .

وقال يحيى بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ، ولا يقضى وطره من شيتين : بكائه على نفسه ، وحبّه أربه .

وكان ابن عطاء يقول : أركان المعرفة ثلاثة : الهيبة ، والحياء ، والأنس .

وقال بعضهم : العارف أنيس بالله فأوحشه من خلقه ، واقتصر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذلّ لله فأعزّه في خلقه .

وقال بعضهم : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول .

وقال أبو سليمان الداراني : إن الله يفتح للمعارف على فراشه ، مالا يفتح للمابدوه قائم يصلي .

وكان رؤيم يقول : رياء العارفين أفضل من إخلاص المابدين .

وسئل أبو تراب النخشي عن العارف ، فقال : هو الذي لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء .

وقال بعضهم : المعرفة أمواج ترفع وتخطّ .

وسئل يحيى بن معاذ عن العارف ، فقال : الكائن البائن .

وقيل : ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة ، فكيف عند أبناء الدنيا !

وقال محمد بن الفضل : المعرفة حياة القلب مع الله .

سئل أبو سعيد الخراساني : هل يصير العارف إلى حال يحفو عليه البكاء ؟ قال :

نعم ، إنما البسكاء في أوقات سيرهم إلى الله ، فإذا صاروا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصول ، زال عنهم ذلك .

واعلم أن إطلاق أمير المؤمنين عليه السلام لفظة « الولاية » ، في قوله : « يتواصلون بالولاية » ، ويتلاقون بالمهبة « يستدعى الخوض في مقامين جليابين من مقامات العارفين : المقام الأول الولاية ، وهو مقام جليل ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١) .

وجاء في الخبر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله ، يقول الله تعالى : « مَنْ آدَى لِي وَايًّا فَقَدْ اسْتَحَلَّ عَجَارِي ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى الْعَبْدِ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا فَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ ، وَلَا تَرَدَّدَتْ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعَلَهُ كَتَرَدَّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ بِكَرِهَةِ الْمَوْتِ وَاسْكْرَةِ مَسَامَتِهِ ، وَلَا يَزِدُّ لَمُ مِنْهُ » .
واعلم أن الولي له ممتنان :

أحدهما « فَعِيل » بمعنى « مَفْعُول » ، كَقَتِيلٍ وَجَرِيحٍ ، وهو من يتولى الله أمره كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٢) ، فلا يكله إلى نفسه لحظة عين ، بل يتولى رعايته .

وثانيهما « فَعِيل » بمعنى « فاعِل » ككَثِيرٍ وَعَلِيمٍ ؛ وهو الَّذِي يتولى طاعة الله وعبادته فلا يعصيه .

ومن شرط كون الولي ولياً ألا بهي . مولاه وسيده ، كما أن من شرط كون النبي

(١) سورة بونس ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف ١٩٦ .

نبيا المعصية ، فمن ظنّ فيه أنّه من الأولياء ، ويصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض ، فليس بوليّ عند أصحاب هذا العلم . بل هو مفرور مخادع .

ويقال : إنّ أبا يزيد البسطاميّ قصد بعض من بوصف بالولاية ، فلما وافى مسجده ، قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتنخّم في المسجد ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا رجلٌ غير مأمون على أدبٍ من آداب الشريعة ، كفّ يكون أميناً على أمرار الحق !

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أحبّ أن تكون لله ولياً ؟ قال : نعم ، قال : لا ترغب في شيء من الدّنيا ولا من الآخرة ، وفرّغ نفسك لله ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك .

وقال يحيى بن معاذ في صفة الأولياء : هم عبادٌ تسربّلوا بالأنس بعد المكابدة ، واذرّعوا بالروح بعد المجاهدة ، بوصولهم إلى مقام الولاية .

وكان أبو يزيد يقول : أولياء الله عرائس الله ، ولا يرى العرائس إلا المحارم ، فهم مخدّرون عنده في حجاب الأنس ، لا يرام أحدٌ في الدّنيا ولا في الآخرة .

وقال أبو بكر الصّيدلانيّ : كنت أصليحُ لقبر أبي بكر الطمستانيّ لوحاً أنقر فيه اسمه ، فیسرق ذلك اللوح ، فأنقر له لوحاً آخر وأنصبه على قبره ، فیسرق ، وتكرر ذلك كثيراً دون غيره من ألواح القبور ، فكنت أنعجب منه ، فسألت أبا عليّ الدّقاق عن ذلك ، فقال : إنّ ذلك الشيخ آثر الخفاء في الدّنيا ، وأنت تريد أن تشهره باللّوح الذي تنصبه على قبره فالله سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره ، كما هو ستر نفسه .

وقال بعضهم : إنّما سمى الوليّ وائياً ، لأنّه توالى أفعاله على المواقفة .

وقال يحيى بن معاذ: الولي لا يرأى ولا يفاق ، وما أقل صدق من يكون هذا خلقه !

المقام الثانى المحبة قال الله سبحانه : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ^(١) ، والمحبة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة .
قال أبو يزيد البسطامي : المحبة استغلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك .

وقال أبو عبد الله القرشي : المحبة أن نهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء . وأكثرهم على نقي صفة المشق ، لأن المشق مجاوزة الحد في المحبة ، والبارئ سبحانه أجل من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحد الحد في محبته .
سئل الشُّبلي عن المحبة ، فقال : هي أن تغار على المحبوب أن يحبه أحد غيرك .
وقال تميمون : ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبي صلى الله عليه وآله قال : « المرء مع من أحب » ، فهم مع الله تعالى .

وقال يحيى بن معاذ : حقيقة المحبة مالا يتقص بالجفاء ، ولا يزيد بالبر .

وقال : ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده .

وقال الجنيد : إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب .

وأشدد في معناه :

إذا صفت المودة بين قوم ودَّام ودَّام سمج النساء

وكان أبو علي الدقاق يقول : ألت ترى الأب الشفيق لا يبجل ولده في الخطاب ،

والناس بمسكتفون في مخاطبته ، والأب يقول له : يا فلان ، باسمه .

وقال أبو يعقوب السُّوسِيّ : حقيقة المحبة أن ينسى العبد حفظه من الله ، وينسى حوائجه إليه .

قيل للنصر ابادي : يقولون : إنه ليس لك من المحبة شيء . قال : صدقوا ، ولكن لي حسراتهم ، فهو ذو احتراق فيه .

وقال النصر ابادي أيضا : المحبة مجانية السأوى على كل حال ، ثم أنشد :
وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَائِقَ سَلْوَةٍ فَإِنِّي مِنْ لَيْلِي لَهَا غَيْرُ ذَائِقٍ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلَقْتُهُ فِي وَصَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةً بَارِقٍ
وكان يقال : الحب أوله خبل ، وآخره قتل .

وقال أبو علي الدقاق في معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « حبك الشيء يعني ويصم » ، قال : يعني ويصم عن الغير إعراضا وعن المحبوب هيبه ، ثم أنشد :
إِذَا مَا بَدَأَ لِي تَعَاظِمَتُهُ فَأَصْدَرَ فِي حَالِ مَنْ لَمْ يَرَهُ

وقال الجنيد : سمعتُ الحارث المحاسبي ، يقول : المحبة إقبالك على المحبوب بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك ، ومالك ووليك ، ثم موافقتك له في جميع الأمور سرا وجهرا ، ثم اعتقادك بعد ذلك أنك مقصر في محبته .

وقال الجنيد : سمعتُ السري يقول : لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر : يا أنا .

وقال الشُّبلي : الحب إذا سكث هلك ، والعارف إذا لم يسكت هلك .

وقيل : المحبة نار في القلب تحرق ماسوى ودَّ المحبوب .

وقيل : المحبة بذل الجهد ، والحبيب يفعل ما يشاء .

وقال الثَّوْرِيّ : المحبة هتك الأستار ، وكشف الأسرار .

حبس الشَّيْلِيَّ في المارستان بين المجانين ، فدخل عليه جماعة ، فقال : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قالوا :
محبوك أيها الشيخ . فأقبل يرميهم بالحجارة ، فقرأوا ، فقال : إذا ادعيتكم محبتي فاصبروا
على بلائي .

كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي : قد سكرتُ من كثرة ما شربتُ من
من كأس محبته . فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى
بعد ، ولسانه خارج ، ويقول : هل من مزيد !
ومن شرم في هذا المعنى :

محبته لمن يقولُ ذكرتُ ربِّي وهَلْ أنسى فأذكر ما نيتُ !
شربتُ الحبَّ كأساً بعد كأسٍ فما نفدتُ الشراب ولا رويتُ
ويقول : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء : إذا اطلعت على قلب عبدي فلم أجد
فيه حبَّ الدنيا والآخرة ، ملائمة من حبي .
وقال أبو علي الدقاق : إن في بعض الكتب المنزلة : عبدي ، أنا وحقك لك محب ،
فبعتني عليك كن لي محباً .

وقال عبد الله بن المبارك : مَنْ أعطى قسطاً من المحبة ، ولم يعط مثله من الخشية ،
فهو مخدوع .

وقيل : المحبة ما تمحو أثرك ، وتسلبك عن وجودك .

وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم إن السكر الذي
يحصل عند المشاهدة لا يوصف . وأنشد :

فأسكرَ القومَ دَوْرُ كأسٍ وكانت سُكرِي من المديرِ
وكان أبو علي الدقاق ينشد كثيراً :

لى مكرتان وللندمان واحـدٌ شىءٌ خصصتُ به من بينهم وحدى
وكان يحى بن معاذ يقول : مثقالُ خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة
بلا حب .

وقال بعضهم : مَنْ أراد أن يكون محباً ، فليكن كما حُكي عن بعض الهند أنه
أحب جارية ، فرحلت عن ذلك البلد ، فخرج الهمى في وداعها ، فدمعت إحدى عينيّه
دون الأخرى ، فتمض التي لم تدمع أربعاً وثمانين سنة ولم يفتحها ، عقوبة لأنها لم تبك
على فراق حبيبته .

وأنشدوا في هذا المعنى :

بكت عيني غداة الين دمعاً وأخرى بالبكا بخلت عنيّاً
فما بكتُ التي بخلت عنيّاً بأن غمضتها يوم التقيّاً
وقيل : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : إنى حرمت على القلوب أن يدخلها
حبى وحب غبرى .

وقيل : الحبة إثارة المحبوب على النفس ، كمرأة العزيز لما أفرط بها الحب ، قالت :
(أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ آمِنُ الصَّادِقِينَ) ^(١) ، وفي الابتداء ، قالت : (مَا جَزَاءُ
مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ) ^(٢) فوزكت ^(٣) الذنب في الابتداء عليه ،
ونادت في الانتهاء على نفسها بالغيانة .

وقال أبو سعيد الخراز : رأيتُ النبي صلى الله عليه وآله في المنام ، فقلت : يا رسول الله ،
اعذرنى ، فإن محبة الله شغلتنى عن حبك ، فقال : يا مبارك ، مَنْ أحب الله فقد أحببني .

• • •

(١) سورة يوسف ٥١ .

(٢) سورة يوسف ٢٥ .

(٣) يقال : ورك الذنب عليه : حمله .

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل :

قوله عليه السلام : « يصونون مَصُونَهُ » ؛ أى يكتُمون من العلم الذى استَحفظوه ما يجب أن يُكتم . ويَفَجِّرون عِيُونَهُ : يظهرون منه ما ينبغي إظهاره ؛ وذلك أنه ليس ينبغي إظهار كل ما استودع العارف من الأسرار ؛ وأهل هذا الفن يزعمون أن قوماً منهم هجروا عن أن يحملوا بما حُملوه ، فبإسراعهم به فهلكوا ، منهم الحسين بن منصور الخلاج . ولأبي الفتح الجارودي المتأخر أتباع يعتقدون فيه مثل ذلك .

والوَلَايَةُ ، بفتح الواو : المحبة والنصرة ، ومعنى « يتواصلون بالوَلَايَةِ » يتواصلون بهم أولياء ، ومثله : « ويتلاقون بالمعبة » كما تقول : خرجت بسلاجى ، أى خرجت وأنا متسلح ، فيكون موضع الجار والمجرور نصباً بالحال ، أو يكون اللغى أدق واللفظ من هذا ، وهو أن يتواصلوا بالوَلَايَةِ ، أى بالقلوب لا بالأجسام ، كما تقول : أنا أراك بقلبي ، وأزورك بخاطري ، وأواصلك بضبري .

قوله : « ويتساقون بكأس روية » ، أى بكأس المعرفة ، والأنس بالله ، يأخذ بعضهم عن بعض العلوم والأسرار ، فكأنهم شرب يتساقون بكأس من الخمر ^(١) . قال : « ويصدرون برية » يقال : من أين ريتكم ؟ مفتوحة الراء ، أى ^(٢) من أين ترتبون الماء ؟

قال : « لا تشوبهم الرئية » ، أى لا تخالطهم الظننة والتهمة ، ولا تسرع فيهم الغيبة ، لأن أسرارهم مشفولة بالحق عن الخلق .

قال : « على ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم » ، الضمير فى « عقد » يرجع إلى الله تعالى ، أى على هذه الصفات والطبائع عقد الخالق تعالى ، خلقهم وخلقهم ، أى هم متهيئون لما صاروا إليه ، كما قال عليه السلام : « إذا أَرَادَكَ لأمر هياك له » .

(٢) ساقطة من ١ .

(١) ب : « الخمر » ، وما أثبتته من ١ .

وقال عليه السلام : « كلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له » .

قال : « فعليه بتحابون ، وبه يتواصلون » ، أى ليس حبهم بعضهم بعضاً إلا فى الله ، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلا لله ، لا للهوى ، ولا لغرضٍ من أغراض الدنيا ، أنشد منشيداً عند عمر قول طرفة :

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُودَى ^(١)
فَمَنْ سَبَقَ الْعَادِلَاتِ بِشَرِبَةٍ كَسَمِيتِ مَتَى مَا تَعْمَلُ بِالمَاءِ تَزِيدُ ^(٢)
وَكَرَى إِذَا نَادَى المَضَافَ مُحَبَّبًا كَسَيِّدِ الْفَضَا نَهْتَسَهُ التَّوَرِدُ ^(٣)
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدُّجْنِ وَالدُّجْنُ مُعْجِبٌ بِهَيْكَنَةِ نَحْتِ الطَّرَافِ الْمُتَدِ ^(٤)

فقال عمر : وأنا لولا ثلاث هن من عيشة الفتى ، لم أحفل متى قام عودى ؛ حتى فى الله ، وبغضى فى الله ، وجهادى فى سبيل الله .

قوله عليه السلام : « فكانوا كغضاصل البذر » ، أى مثلهم مثل الحب الذى يلتقى للبذر ، يستصاح بعضه ، ويسقط بعضه .

قد ميزه التخلُّص : قد فرَّق الاِتِّقَاءَ بين جيده ورديته . وهذا به التمهَّيص ، قال النبي صلى الله عليه وآله : « إن الرض ليمحَّص الخطايا كما تمحَّص النار الذهب » ، أى كالتخلُّص النار الذهب عما يشوبه .

ثم أمر عليه السلام المكلفين بقبول كرامة الله ونصحه ، ووعظه وتذكيره ، وبالحذر

(١) من المعلقة بشرح التبريزى ٨١ ، ٨٢ .

(٢) السكيت من الحر : الذى تضرب إلى السواد . وقوله : متى ما عمل بالماء تزيد ؛ أى متى تخرج به تزيد ، لأنها عشقة .

(٣) كرى : عطش . والمضاف : الذى أضافته الموم . والتعنيب : احتشاد فى وظئى يدي الفرس ، وليس ذلك بالاعوجاج الشديد ؛ وهو مما يوصف صاحبه بالشدة . والسيد : الذئب . والفضا : شجر ؛ وذئابه أخبث الذئاب . ونهته : هيجته . والتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٤) الدجن : لباس القيم السماء ، ومعجب : يعجب من رآه . والبهكنة : النامة الخلق .

مِنْ نَزُولِ الْقَارِعَةِ بِهِمْ ، وَهِيَ هَاهُنَا الْمَوْتُ ، وَسَمِيَتْ الدَّاهِيَةُ قَارِعَةً لِأَنَّهَا تَقْرَعُ ، أَيْ تَصِيبُ بِشَدَّةٍ .

قوله : « فليصنع لمُتَحَوِّلَهُ » ؛ أَيْ فَلْيَعِدْ مَا يَجِبُ إِعْدَادُهُ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَتَحَوَّلُ إِلَيْهِ ، تَقُولُ : اصْنَعْ لِنَفْسِكَ ، أَيْ اْعْمَلْ لَهَا .

قوله : « وَمَعَارِفُ مُتَقَلِّلِهِ » مَعَارِفُ الدَّارِ : مَا يُمْرِفُهَا الْمَفْرُوسَمُ بِهَا وَاحِدُهَا مَعْرِفٌ ، مِثْلُ مَعَاهِدِ الدَّارِ ، وَمَعَالِمِ الدَّارِ ، وَمِنْهُ مَعَارِفُ الْمَرْأَةِ ، وَهِيَ مَا يَظْهَرُ مِنْهَا ، كَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ . وَالْمُتَقَلِّلُ ، بِالْفَتْحِ : مَوْضِعُ الْإِتْقَالِ .

قوله : « فَطَوَّيْ » هِيَ « قُنِّي » مِنَ الطَّيِّبِ ، قَلَّبُوا إِلَيْهَا وَأَوَّاهُ لِلضَّمَّةِ قَبْلَهَا ، وَيُقَالُ : طَوَّيْتُ لَكَ ، وَطَوَّابَكَ ! بِالإِضَافَةِ .

وقول العامة : « طويبك » بالياء غير جائز .

قوله : « لَدَى قَلْبِ سَلِيمٍ » ، هُوَ مِنْ أَلْفَاظِ الْكِتَابِ الْمُرِيدِ ^(١) ، أَيْ سَلِيمٍ مِنَ الْغُلِّ وَالشَّكِّ .

قوله : « أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ » ، أَيْ قَبْلَ مَشُورَةِ النَّاصِحِ الْأَمْرِ لَهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ لَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ .

وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرِيدُهُ ، أَيْ يَهْتَسِكُهُ بِإِغْوَاثِهِ وَتَحْسِينِ الْقَبِيحِ لَهُ .

وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ : « يَبْصُرُ مَنْ بَصَرَهُ » ، مُتَعَلِّقَةٌ بِـ « أَصَابَ » .

قوله : « قَبْلَ أَنْ تَفْلُقَ أَبْوَابَهُ » ، أَيْ قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ فَلَا تَقْبَلُ تَوْبَتَهُ .

وَالْحَوْبَةُ : الْإِثْمُ . وَإِبَاعِلَتُهُ : إِزَالَتُهُ ، وَيَجُوزُ أَمَطْتُ الْأَذَى عَنْهُ ، وَمِطْتُ الْأَذَى عَنْهُ ،

أَيْ نَحَيْتُهُ ، وَمَنْعُ الْأَصْحَى مِنْهُ إِلَّا بِالْهَمْزَةِ .

(١) وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّمَرَاءِ ٨٩ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ

الصَّافَّاتِ ٨٤ : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

(٢٠٨)

الأجل :

ومن دعاء كان يدعو به عليه السلام كثيرا :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ يَ مَيِّتًا وَلَا سَقِيًّا ، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوَةٍ نِسْوَةٍ ؛
وَلَا مَأْخُودًا بِأَسْوَأِ عَمَلٍ ، وَلَا مَقْطُوعًا دَائِرِي ، وَلَا مُرْتَدًّا عَنْ دِينِي ، وَلَا مُنْكَرًا
لِرَبِّي ، وَلَا مُتَفَوِّحًا مِنْ إِيْمَانِي ، وَلَا مُلْتَبِسًا عَقْلِي ، وَلَا مُمَذَّابًا بِعَذَابِ الْأَمَمِ
مِنْ قَبْلِي .

أَصْبَحْتُ عَبْدًا تَمْلُوكًا ، ظَالِمًا لِنَفْسِي ؛ لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ - وَلَا حُجَّةَ لِي -
وَلَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَخَذَ إِلَّا مَا أُعْطَيْتَنِي ، وَلَا أَنْتَقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ ، أَوْ أَضَامَ فِي
سُلْطَانِكَ ، أَوْ أَضْطَهَّدَ وَالْأَمْرُ لَكَ !

اللَّهُمَّ أَجْمَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيْمَةٍ تَنْزِعُهَا مِنْ كَرَامَتِي ، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِمُهَا مِنْ
وَدَائِعِ نِعْمِكَ عِنْدِي !

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ ، أَوْ تَنْفَاعَ بِنَا
أَهْوَاؤَنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ !

التشريح :

قوله : « كثيرا » منصوب بأنه صفة مصدر محذوف ، أى دماء كثيرا . وميتا منصوب على الحال ، أى لم يفلق الصباح على ميتا ، ولا يجوز أن تكون « يصبح » ناقصة ، ويكون « ميتا » خبرها ، كما قال الرازدي ؛ لأن خبر « كان » وأخواتها ، يجب أن يكون هو الاسم ، ألا ترى أنهما مبتدأ وخبر فى الأصل واسم « يصبح » ضمير « الله » تعالى ، و « ميتا » ليس هو الله سبحانه .

قوله : « ولا مضروبا على عروق بسوء » ، أى ولا أبرص ، والعرب تكنى عن البرص بالسوء ، ومن أمثالهم : ما أنكرت من سوء ، أى ليس إنكارى لك عن برص حدث بك فغير صورتك .

وأراد بدروقه أعضاءه ، ويجوز أن يريد : ولا مطعوناً فى نسي ، والتفسير الأول أظهر .

« ولا مأخوذا بأسوا على » ، أى ولا معاقبا بأغش ذنوبى .

ولا مقطوعا دابرى ، أى عقبى ونسلى . والداير فى الأصل : التابع ، لأنه يأتى دبرا ، ويقال للهالك : قد قطع الله دابره ، كأنه يراد أنه عفا أثره ، ومحا اسمه ، قال سبحانه : ﴿ أَنْ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ^(١) .

ولا مستوحشا ، أى ولا شاكاً فى الإيمان ، لأن من شك فى عقيدة استوحش منها . ولا ملتبسا على ، أى ولا مختلطا عقل ، كبست عليهم الأمر بالفتح ، أى خلطته . وعذاب الأمم من قبل المسخ والزلزلة والظلمة ونحو ذلك .

قوله : « لك الحجة على » ، ولا حجة لي « ، لأن الله سبحانه قد كافأه بعد تمكينه وإفاداره وإعلامه قبح القبيح ووجوب الواجب وترديد دواعيه إلى الفعل وتركه ، وهذه حجة الله تعالى على عباده ، ولا حجة للعباد عليه ، لأنه ما كافأهم إلا بما بطيقونه ، ولا كان لهم لطف في أمرٍ إلا وقَّله .

قوله : « لا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ، ولا أتقى إلا ما وقَّيتني » ، أي لأستطيع أن أرزق نفسي أمرا ، ولكنك الرزاق ، ولا أدفع عن نفسي معذوراً من المرض والثوت إلا ما دفعته أنت عني .

وقال الشاعر :

لعمرك ما يذري ألقى كيف يتقى نواب هذا الدهر أم كيف يحذرا
يرى الشيء مما يتقى فيخافه ^(١) ومالا يرى مما بقي الله أكثر

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كفانة الله أجدي من توقينا وعادة الله في الأعداء تكفيننا
كاد الأعداء فما أقوا ولا تركوأ عيباً وطمنا وتقيحنا ونهجيننا
ولم نزد نحن في سر وفي علن على مالتنا : الله بكفيننا
وكان ذاك - ورد الله حاسداً بغيظه - لم يزل مأموله فينا

قوله عليه السلام : « أن أفقر في غناك » ، موضع الجار والمجرور نصب على الحال ، و « في » متعلقة بمحذوف ، والمعنى أن أفقر وأنت الموصوف بالغنى الفاض على الخلق ، وكذلك قوله : « أو أضل في هداك » ، معناه : أو أضل وأنت ذو الهداية العامة للبشر كافة ، وكذلك : « أو أضام في سلطانك » ، كما يقول المستغيث إلى السلطان : كيف أعظم قى عدلك !

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « ويخافه » .

وكذلك قوله : « أو أضطهد والأمر لك » ، أى وأنت الحاكم صاحب الأمر ، والطاء فى « اضطهد » هى تاء الافتعال ، وأصل الفعل ضهدت فلانا ، فهو مضهود ، أى قهرته وفلان ضهدة لكل أحد ، أى كل من شاء أن يقهره فعل .

قوله : « اللهم اجعل نفسى » ، هذه الدعوة مثل دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهى قوله : « اللهم متقنا بأسماعنا وأبصارنا ، واجعله الوارث منا » ، أى لا تجعل موتنا متأخرا عن ذهاب حواسنا . وكان على بن الحسين يقول فى دعائه : اللهم احفظ على سمى وبصرى ، إلى انتهاء أجل .

وفسروا قوله عليه السلام : « واجعله الوارث منا » ، فقالوا : الضمير فى « واجعله » يرجع إلى الإمتاع .

فإن قلت : كيف يتنى الإمتاع بالسمع والبصر ، بعد خروج الروح ؟ قلت : هذا توسع فى الكلام ، والمراد : لا قبلنا بالسمى ولا الصمم ، فنكون أحياء فى الصورة ولنا بأحياء فى المعنى ، لأن من فقد ما لا خير له فى الحياة ، فحمله المبالة على أن طلب بقاءها بعد ذهاب النفس ، إبدانا وإشعاراً بحبه ألا يبلى بفقدها .

ونفتن ، على ما لم يسم فاعله : نصاب بفتنة نصبتنا عن الدين ، وروى : « تفتن » بفتح حرف المضارعة على « نفتعل » ، افتن الرجل أى قن ، ولا يجوز أن يكون الافتتان متعدياً كما ذكره الراوندى ، ولكنه قرأ فى « الصحاح » للجوهري : « والفتون : الافتتان ، بتعدى ولا بتعدى » ، فظن أن ذلك للافتتان وليس كما ظن ، وإنما ذلك راجع إلى الفتون .

والفتاب : التهاوت فى المأجاج والشر ، ولا يكون إلا فى مثل ذلك ، وروى أبو قتابع بطرح إحدى الثمات .

(٢٠٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَى
مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ ، وَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي الْقَوَاصِفِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي
التَّنَاصُفِ ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ . وَلَوْ كَانَ
لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ ،
لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلِمَذَلِّهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ ؛ وَلَسَكُنَّ سُبْحَانَهُ
جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ ، تَفَضُّلاً مِنْهُ ،
وَتَوْسَعًا بِمَا هُوَ مِنَ الزَّيْدِ أَهْلُهُ .

الشرح :

الذي له عليهم من الحق هو وجوب طاعته ، والذي لم عليه من الحق هو وجوب
معدله فيهم . والحق أوسع الأشياء في القواصف ، وأضيقتها في التناصف ؛ معناه أن كل
أحد يصف الحق والعدل ، ويذكر حسنه ووجوبه ، ويقول : لو وآيت لعدلت ، فهو
بالوصف باللسان وسيع ، وبالفعل ضيق ، لأن ذلك المآل العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه ،
ويعيدون أن لو ولوا باعتماده وفعله ، لا تجمد في الألف منهم واحداً لو ولي لعدل . ولسكنه
قول بغير عا

نم عاد إلى تقرير الكلام الأول ، وهو وجوب الحق له وعليه ، فقال : إنه لا يجري لأحد إلا وجرى عليه ، وكذلك لا يجري عليه إلا وجرى له ، أى ليس ولا واحد من الموجودين يرتفع عن أن يجري الحق عليه ، ولو كان أحد من الموجودين كذلك لكان أحقهم بذلك البارئ سبحانه ، لأنه غاية الشرف ، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والثمام ، وهو مالك الكل ، وسيّد الكل ، فلو كان لجواز هذه القضية وجه ، ولصحتها مانع ، لكان البارئ تعالى أَوْلَى بها ، وهى ألا يستحقّ عليه شيء ، وتقدير الكلام : لكنه يستحقّ عليه أمور ، فهو في هذا الباب كالواحد منا يستحقّ ويستحقّ عليه ، ولكنه عليه السلام حذف هذا الكلام المفتر ، أدباً وإجلالاً لله تعالى أن يقول : إنه يستحقّ عليه شيء .

فإن قلت : فما بال المتكلمين لا يتأذّبون بأدبه عليه السلام وكيف يطلقون عليه تعالى الوجوب والاستحقاق ؟

قلت : ليست وظيفه المتكلمين وظيفّة أمير المؤمنين عليه السلام في عباراتهم ، هؤلاء أربابُ صناعة ، وعلم يحتاج إلى ألفاظ واصطلاح لا بدّ لهم من استعماله ، للإفهام والجدل بينهم ، وأمير المؤمنين إمام يخطب على منبره ، يخاطب عرباً ورعيّة ليسوا من أهل النظر ، ولا غاطبته لم لتعليم هذا العلم ، بل لاستنفارهم إلى حرب عدوه ، فوجب عليه بمقتضى الأدب أن يتوقّى كل لفظة تؤم ما يستهجنه السامع في الأمور الإلهية وفي غيرها .

فإن قلت : فما هذه الأمور التي زعمت أنها تستحقّ على البارئ سبحانه ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام حذفها من اللفظ ، واللفظ يقتضيها ؟

قلت : الثواب ، والموض ، وقبول التوبة ، واللطف ، والوفاء بالوعد ، والوعيد ، وغير ذلك مما يذكره أهل العدل .

فإن قلت : فما معنى قوله : « لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه ، لقدرته على عباده ، ولعذله في كل ما جرت عليه صروف قضائه » ؟ وهب أن تعليل عدم استحقاق شيء على الله تعالى بقدرته على عباده صحيح ، كيف يصح تعليل ذلك بعذله في كل ما جرت عليه صروف قضائه ؟ ألا ترى أنه ليس بمستقيم أن تقول لا يستحق على الهاري شيء ، لأنه عادل ، وإنما المستقيم أن تقول لا يستحق عليه شيء ، لأنه مالك ، ولذلك عللت الأشعرية هذا الحكم بأنه مالك الكل ، والاستحقاق إنما يكون على من دونه .

قلت : التعليل صحيح ، وهو أيضا مما عللت به الأشعرية مذهبها ، وذلك لأنه إنما يتصور الاستحقاق على الفاعل المختار إذا كان ممن يتوقع منه أو يصح منه أن يظلم ، فيمكن حينئذ أن يقال : قد وجب عليه كذا ، واستحق عليه كذا ، فأما من لا يمكن أن يظلم ، ولا يتصور وقوع الظلم منه ، ولا الكذب ، ولا خلف الوعد والوعيد ، فلا معنى لإطلاق الوجوب والاستحقاق عليه ، كالأقال : كذا الداعي الخالص يستحق عليه أن يفعل مادعا إليه الداعي ، ويجب عليه أن يفعل مادعا إليه الداعي ، مثل الهارب من الأسد ، والشديد العطش إذا وجد الماء ، ونحو ذلك .

فإن قلت : أليس يشمر قوله عليه السلام : « وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه » بمذهب البغداديين من أصحابكم ، وهو قولهم : إن الثواب تفضل من الله سبحانه ، وليس بواجب ؟

قلت : لا ، وذلك لأنه جعل التفضل به ، هو مضاعفة الثواب ، لا أصل الثواب ، وليس ذلك بمستنكر عندنا .

فإن قلت : أيجوز عندكم أن يستحق المكلف عشرة أجزاء من الثواب فيعطى عشرين جزءا منه ؟ أليس من مذهبكم أن التعظيم والتبجيل لا يجوز من الهاري سبحانه أن يفعلها .

في الجنة إلا على قدر الاستحقاق ، والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل ؟
فكيف قلت : إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة ؟

قلت : مراده عليه السلام بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقة من النعيم واللذة
الجسمانية خاصة في الجنة ، فسمى تلك اللذة الجسمانية ثواباً لأنها جزء من الثواب ، فأما اللذة
العقلية فلا يجوز مضاعفتها .

قوله عليه السلام : « بما هو من اللزيد أهله » ، أي بما هو أهله من اللزيد ، فقدّم
الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال ، وفيه دلالة على أن حال المجرور تخدم عليه ،
كما قال الشاعر :

لَئِنْ كَانَ بَرْدُ الْمَاءِ حَرًّا صَارَ إِلَى حَبِيبٍ لَهَا حَبِيبُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأصل :

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا أَفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، فَجَعَلَهَا
تَنَكُّافًا فِي وُجُوهِهَا ، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَلَا يَسْتَوْجِبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ .
وَأَعْظَمُ مَا أَفْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرِّعِيَةِ ، وَحَقُّ
الرِّعِيَةِ عَلَى الْوَالِي ، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا
لِأَلْفَتِهِمْ ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرِّعِيَةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ ، وَلَا تَصْلُحُ
الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرِّعِيَةِ ، فَإِذَا أُدَّتِ الرِّعِيَةُ إِلَى الْوَالِي حَقُّهُ ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا
حَقَّهَا ، عَزَّ أَلْحَقُ بَيْنَهُمْ ، وَقَامَتْ مَنَاجِحُ الدِّينِ ، وَأَعْتَدَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ ، وَجَرَتْ
عَلَى أَذْلَالِهَا أُلُتُنُ ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ ، وَطَلَعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ ، وَتَيَسَّرَتْ
مَطَامِيعُ الْأَعْدَاءِ .

وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَتَامَى ، أَوْ أَجْعَفَتِ الْوَالِي بِرِعِيَّتِهِ ؛ اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ
الْكَلِمَةُ ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ ، وَتُرِكَتْ حَاجَةُ الشَّنَنِ ،
فَقِيلَ بِالْهَوَى ، وَعُظِّلَتِ الْأَحْكَامُ ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النَّفُوسِ ، فَلَا يَسْتَوْحِشُ الْعَظِيمُ
حَقَّ عُظْلٍ ، وَلَا الْعَظِيمُ بِاطِلٍ قِيلَ ، فَهُنَالِكَ نَذِلُّ الْأَبْرَارَ ، وَنَعِزُّ الْأَشْرَارَ ، وَنَمْظُمُ
تَبِعَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ .

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ ، وَحُتْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ أَشَدَّ عَلَى
رِضَا اللَّهِ حِرْصُهُ ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ أَجْتِهَادُهُ ، بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنْ
الطَّاعَةِ لَهُ . وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهِدِهِمْ ،
وَالْعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ ، وَلَيْسَ أَمْرٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزِلَتُهُ ،
وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ ، يَفُوقُ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَلَّهُ مِنْ حَقٍّ ؛ وَلَا أَمْرٌ وَإِنْ
صَفَرَتْهُ النَّفُوسُ ، وَافْتَحَتْهُ الْعَيْنُ ، بِدُونِ أَنْ يُبَيِّنَ عَلَى ذَلِكَ ، أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ .

الشرح :

تشكافاً في وجوها : تنساوى وهي حقّ الوالى على الرعية ، وحقّ الرعية على الوالى .
وفريضة ، قد روى بالنصب وبالرفع ، فن رفع تغير مبتدأ محذوف ، ومن نصب فبإضمار
فعل ، أو على الحال .

وجرت على أذلالها التن ، بفتح الهزرة ، أى على مجاريها وطرقها .

وأجعف الوالى برعيته : ظلمهم .

والإدغال في الدين : الفساد .

وحاج السنن : جمع محجة ، وهي جادة الطريق .

قوله : « وكثرت عِلل النفوس » ، أى تعللها بالباطل . ومن كلام الحجاج : إنا كم وعِلل النفوس ، فإنها أدوى لكم من عِلل الأجساد .

واقصمته العيون : احتقرته وازدرته ، قال ابن دريد :

وَمِنْهُ مَا تَقْتَحِمُ الْعَيْنُ فَإِنْ ذُقْتَ جَنَاهُ سَاغَ عَذَابِي اللَّهُ (١)

ومثل قوله عليه السلام : « وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلة » ، قول زيد ابن علي عليه السلام لهشام بن عبد الملك : إنه ليس أحدٌ وإن عظمت منزلته بفوق أن يذَّكر بالله ، ويحذر من سطوته ، وليس أحدٌ وإن صغر بدون أن يذَّكر بالله ويخوف من نعمته .

ومثل قوله عليه السلام : « وإذا غلبت الرعية واليها » قول الحكماء : إذا علا صوت بعض الرعية على الملك فالملك مخلوع ، فإن قال : نعم ، فقال أحدٌ من الرعية : لا ، فالملك مقتول .

[فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح الملك]

وقد جاء في وجوب الطاعة لأولى الأمر الكثير الواسع ، قال الله سبحانه : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٢) .

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « السمع والطاعة على المرء

(١) من القصيدة ٢٣ (طبعة مصر سنة ١٣١٩) .

(٢) سورة النساء ٥٩ .

المسلم فيها أحبّ وكره ما لم يؤمر بمصيبة ، فإذا أمر بها فلا سمح ولا طاعة .
وعنه صلى الله عليه وآله : « إن أمر عليكم عبدٌ أسودٌ مجدّع فاصموا له وأطيعوا » .
ومن كلام علي عليه السلام : « إن الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند
تفريط الفجرة » .

بعث سعد بن أبي وقاص جريراً بن عبد الله البجليّ من العراق إلى عمر بن الخطاب
بالمدينة ، فقال له عمر : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم كقِداح الجعبة ، منها الأعصَل^(١)
الطائش ، ومنها القائم الرائش . قال : فكيف سعدّ لهم ؟ قال : هو ثقافها ، الذي يقيم
أودّها ، ويفسر عَصَلها^(٢) . قال : فكيف طاعتهم ؟ قال : يصلّون الصلاة لأوقاتها ، ويؤدون
الطاعة إلى ولائها . قال : الله أكبر ! إذا أقيمت الصلاة ، أدّيت الزكاة ؛ وإذا كانت الطاعة ،
كانت الجماعة .

ومن كلام أبرّ وزير الملك : أطع مَنْ فوقك بَطْمَك مَنْ دونك .

ومن كلام الحكماء : قلوب الرعية خزائن واليها ، فما أودعه فيها وجده .

وكان يقال : صِنْفان متباغضان متناقيان : السلطان والرعية ؛ وهما مع ذلك متلازمان ،
إن صلّح أحدهما صلّح الآخر ، وإن فسد فسد الآخر .

وكان يقال : محلّ الملك من رعيّته محلّ الروح من الجسد ، ومحلّ الرعية منه محلّ
الجسد من الروح ، فالروح تألم بألم كل عضو من أعضاء البدن ، وليس كل واحد من الأعضاء
يألم بألم غيره ، وفساد الروح فساد جميع البدن ، وقد يفسد بعض البدن وغيره من سائر
البدن صحيح .

(١) السهم الأعصَل : القليل الريش .

(٢) العَصَل : الاعوجاج والبل .

وكان يقال : ظلم الرعية استجلاب البلية .

وكان يقال : المعجب بمن استفسد رعيته ، وهو يعلم أن عزه بطاعتهم !

وكان يقال : موت الملك الجائر خصب شامل .

وكان يقال : لا فحط أشد من جور السلطان .

وكان يقال : قد تسامل الرعية المشمرة بالرفق ؛ فتزول أحقادها ، ويذل قيادها ،

وقد تسامل بالخرق فتكاشف بما غيبت ، وتقدم على ما عيبت ؛ حتى يمود نفاقها شفاقا ،

ورذاذها سبلا^(١) . ثم إن غلبت وقهرت فهو الدمار ، وإن غلبت وقهرت لم يكن بغلبها

افتخار ، ولم يدرك بقهرها ثار .

وكان يقال : الرعية وإن كانت ثمارا مجتناة ؛ وذخائر مقتناة ، وسيوطا منتزاة ،

وأحراسا مرتضاة ؛ فإن لها نفارا كنفار الوحوش ، وطغيانا كطغيان السيول ؛ ومتى قدرت

أن تقول ، قدرت على أن تصول .

وكان يقال : أيدي الرعية تبع ألسنها ؛ فإن يملك الملك ألسنها حتى يملك جسمها

ولن يملك جسمها حتى يملك قلوبها فتعبه ، ولن تبعه حتى يعذل عليها في أحكامه عدلا

يتساوى فيه الخاصة والعامة ؛ وحتى يخفف عنها المؤن والكلف ، وحتى يعفيها من رفع أوضاعها

وأراد لها عليها ؛ وهذه الثلاثة تمهد على الملك العلية من الرعية ، وتطعم السفلة في الرتب السنية .

وكان يقال : الرعية ثلاثة أصناف : صنف فضلاء مرتاضون بحكم الرياسة والسياسة ،

يعلمون فضيلة الملك وعظيم غناؤه ، ويرثون له من ثقل أعبائه ، فهو لاه يحصل الملك موداتهم

بالبشر عند اللقاء ، ويلقى أحاديثهم بحسن الإصغاء . وصنف فيهم خير وشر ظاهران ،

فصلاحهم يكتسب من معاملتهم بالترغيب والترهيب ؛ وصنف من السفلة الرعاع أتباع

(١) السيل الجاف . التصبب بشدة .

لكل دايع ؛ لا يمتحنون في أقوالهم وأعمالهم بنقد ، ولا يرجعون في الموالاة إلى عند .
وكان يقال : ترك المصافحة للسفلة على صفار الجرائم تدعوم إلى ارتكاب الكبائر
المظالم ؛ ألا ترى أول نشور المرأة كلمة سومت بها ، وأول حيران الدابة حنيدة
سومت عليها .

ويقال : إن عثمان قال يوما لجلسائه ، وهو محصور في الفتنة : وددت أن رجلا
صدوقا أخبرني عن نفسي وعن هؤلاء ! فقام إليه فتى فقال : إني أخبرك ؛ تطأطأت لهم
فركبوك ، وما جرّام على ظلمك إلا إفراط حذرك . قال : صدقت ، فهل تعلم ما يُسبب
نيران الفتن ؟ قال : نعم ، سألت عن ذلك شيخا من تنوخ كان باقعة ، قد نقب في الأرض
وحلم علما جفا ، فقال : الفتنة يثيرها أمران : أثره نُضِغْنُ على الملك الخاصة ، وحلم يجرى
عليه العامة . قال : فهل سألته عما ينجيها ؟ قال : نعم ، زعم أن الذي ينجيها في ابتدائها
استقالة المثرة وتسميم الخاصة بالأثرة ، فإذا استحكمت الفتنة أخذها الصبر . قال عثمان :
صدقت ؛ وإني لصابر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . ويقال : إن يزيد جرد بن
بهرام سأل حكما : ما صلاح الملك ؟ قال : الرفق بالرعية ، وأخذ الحق منها بفبر عنف
والتورّد إليها بالعدل وأمن السبل وإنصاف المظلوم . قال : فما صلاح الملك ؟ قال :
وزراؤه ؛ إذا صلحوا صلح . قال : فما الذي يثير الفتن ؟ قال : ضغائن يظهرها جرأة عامة ،
واستخفاف خاصة ، وانسباط الألسن بضائر القلوب ، وإشفاق مؤسر ، وأمن مُعسر ، وغفلة
مرزوق ، وبقطة محروم . قال : وما يسكنها ؟ قال : أخذ العدة لما يخاف ، وإيثار الجاهل
يلتذ المزمل ، والعمل بالحزم ، وإدراع الصبر ، والرضا بالقضاء .

وكان يقال : خير الملوك مَنْ أَشْرَبَ قُلُوبَ رَعِيَّتِهِ مَحَبَّتَهُ ، كَمَا أَشْعَرَهَا هَيْبَتَهُ ، وَلَنْ يُنَالِ
ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تَنْظُرَ مِنْهُ بِخَمْسَةِ أَشْيَاءَ : إِكْرَامَ شَرِيفِهَا ، وَرَحْمَةَ ضَعِيفِهَا ، وَإِغَاثَةَ لَهْفِهَا ،

وكفّ عدوان عدوّها ، وتأمين سبل رواحها وغدوّها ، فمضى أعداءها شيئاً من ذلك ، فقد أحقدها^(١) بقدر ما أفقدها .

وكان يقال : الأسباب التي تجرّ الهلك إلى انكثارة ثلاثة :

أحدها من جهة الملك ، وهو أن تتأمر شهواته على عقله ، فتستهويه نشوات الشهوات فلا تسبح له لذة إلا اقتنصها ، ولا راحة إلا افترسها .

والثاني من جهة الوزراء ، وهو تحاسدهم المقتضى تعارض الآراء ، فلا يسبق أحدهم إلى حقّ إلا كويّد وعُورض وعُوند .

والثالث من جهة الجند المؤهلين لحراسة الملك والدين ، ونوهين المعاندين ، وهو نكولهم عن الجلال ، وتضجيجهم في المناصحة والجهاد ، وهم صنفان : صنف وسع الملك عليهم فأبطروهم الإتراف ، وضنوا بنفوسهم عن التعريض للإتلاف ، وصنف قدر عليهم الأزرار ، فاضطفتوا الأحقاد^(٢) واستشعروا النفاق .

[الآثار الواردة في العدل والإنصاف]

قوله عليه السلام : « أو أجهف الوالى برعيّته » ، قد جاء من نظائره الكثير جداً ، وقد ذكرنا فيما تقدّم نكتاً حسنة في مدح العدل والإنصاف ، وذمّ الظلم والإجحاف . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « زين الله السماء بثلاثة : الشمس ، والقمر ، والكواكب . وزين الأرض بثلاثة : العلماء ، والمطر ، والسلطان العادل » .

وكان يقال : إذا لم يستمر الملك ملكه بإنصاف الرعية خرب ملكه بمصيان الرعية . وقيل لأنوشروان : أي الجنّ أوتي؟ قال : الدين ، قيل : فأى العدد أقوى؟ قال : العدل .

(١) يقال : أحقده ، أي صيره حاقداً . (٢) اضطفتوا الأحقاد : انطواوا عليها .

وقع جعفر بن يحيى إلى حامل من عماله : كَذَّبْ شَاكُوكَ ، وَقُلْ حَامِدُوكَ ، فَإِنَّمَا عَدَلْتُ ، وَإِنَّمَا اعْتَزَلْتُ .

وُجِدَ فِي خَزَانَةِ بَعْضِ الْأَكْمَاسَةِ سَقَطٌ ، فُتِّحَ فَوُجِدَ فِيهِ حَبُّ الرِّمَانِ ، كُلُّ حَبَّةٍ كَالنَّوَاةِ الْكَبِيرَةِ مِنْ نَوَى الْمَشْشِ ، وَفِي السَّقَطِ رُقْعَةٌ فِيهَا : هَذَا حَبُّ رِمَانٍ عَلِمْنَا فِي خُرَاجِهِ بِالْعَدْلِ .

جاء رجل من مصر إلى عمرو بن الخطاب مطلقاً ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا مَكَانُ الْعَائِذِ بِكَ . قَالَ لَهُ : عَذْتُ بِعَمَّازٍ ، مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : سَابَقْتُ وَلَدَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِمُحْصَرٍ فَسَبَقْتُهُ ، فَجَعَلَ يَعْتَفِنِي بِسَوْطِهِ ، وَيَقُولُ : أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ ! وَبَلَغَ أَبَاهُ ذَلِكَ ، فَخَبَسَنِي خَشْيَةً أَنْ أَقْدُمَ عَلَيْكَ ؛ فَكَتَبَ إِلَى عَمْرٍو : إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاشْهَدْهُ الْمَوْسِمَ أَنْتَ وَابْنُكَ . فَلَمَّا أَقْدَمَ عَمْرٍو وَابْنَهُ ، دَفَعَ الدُّرَّةَ إِلَى الْمَصْرِيِّ ، وَقَالَ : اضْرِبْهُ كَمَا ضَرَبْتَكَ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ وَعَمْرٍو يَقُولُ : اضْرِبْ ابْنَ الْأَمِيرِ ، اضْرِبْ ابْنَ الْأَمِيرِ ! يَرُدُّهَا ، حَتَّى قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ اسْتَعَدْتُ مِنْهُ ، فَقَالَ : وَأَشَارَ إِلَى عَمْرٍو : ضَعْهَا عَلَى صَدْرَتِهِ ، فَقَالَ الْمَصْرِيُّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا اضْرِبَ مَنْ ضَرَبَنِي ، فَقَالَ : إِنَّمَا ضَرَبْتُكَ بِقُوَّةِ أَبِيهِ وَسُلْطَانِهِ ، فَاضْرِبْهُ إِنْ شِئْتَ ؛ فَوَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ لَمَا مَنَعَكَ أَحَدٌ مِنْهُ ، حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تَتَبَرَّعُ بِالْكَفِّ عَنْهُ ! ثُمَّ قَالَ : يَا بَنَ الْعَاصِ ، مَتَى تَعْبُدُنِي النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتَهُمْ أُمَمَانَهُمْ أَحْرَارًا !

خطب الإسكندر جنده ، فقال لهم بِالرُّومِيَّةِ كَلَامًا تَفْسِيرُهُ : يَا عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، الَّذِي نَصَرْنَا بَعْدَ حَيْنٍ ، الَّذِي يَسْتَقِيمُ الْفَيْثُ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَإِلَيْهِ مَفْرَعُكُمْ عِنْدَ الْكَرْبِ . وَاللَّهُ لَا يَبْلُغُنِي أَنْ اللَّهُ أَحَبُّ شَيْئًا إِلَّا أَحَبُّهُ وَعَمِلْتُ بِهِ إِلَى يَوْمٍ أَجَلِي ، وَلَا يَبْلُغُنِي أَنَّهُ أَبْغَضُ شَيْئًا إِلَّا أَبْغَضْتُهُ وَهَجَرْتُهُ إِلَى يَوْمٍ أَجَلِي . وَقَدْ أَنْبِئْتُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَدْلَ فِي عِبَادِهِ ، وَيُبْغِضُ الْجَوْرَ ، فَوَيْلٌ لِلظَّالِمِ مِنْ سَوْطِي وَسَيْفِي ! وَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُ

العدل من عمالي فليتسكىء في مجلسى كيف شاء ؛ وليتمن على ما شاء ، فلن تمنعته أميته والله المجازى كلاً بعمله .

قال رجل لسليمان بن عبد الملك وهو جالس العظام : يا أمير المؤمنين ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ أَمَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) ! قال : ما خطبتك ؟ قال : وكيف اغتصبني ضيعتي وضعتها إلى ضيعتك الفلانية . قال : فإن ضيعتي لك ، وضيعتك مردودة إليك . ثم كتب إلى الوكيل بذلك ، وبصرفه عن عمله .

ورق إلى كسرى قباذ أن في بطانة الملك قوماً قد فسدت نياتهم ، وخبئت ضمائرهم ، لأن أحكام الملك جرت على بعضهم لبعضهم ، فوقع في الجواب : أنا أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وألخص عن الأعمال لا عن السرائر .

ونظم أهل الكوفة إلى المأمون من واليهم ، فقال : ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية ، ولا أغود عليهم بالرفق منه . فقال له منهم واحد : فلا أحد أولى منك يا أمير المؤمنين بالعدل والإنصاف ، وإذا كان بهذه الصفة فن عدل أمير المؤمنين أن يولي بلدًا بلدًا ، حتى يلحق أهل كل بلد من عدله ، مثل ما لحقنا منه ، وبأخذوا بقسطهم منه كما أخذ منه سواهم ، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثر من ثلاث سنين . فضحك وعزله .

كتب عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن قبلنا قوماً لا يؤدّون الخراج إلا أن يمسمهم نصب من العذاب ، فكتب إلى أمير المؤمنين برأبك . فكتب : أما بعد ، فالعجب لك كل العجب ! تكتب إلى استأذنتني في عذاب البشر ، كأن إذني لك جنة من عذاب الله ، أو كأن رضى ينجيك من سخط الله ! فمن أعطاك ما عليه عفوا

نُفِذَ مِنْهُ ، وَمَنْ أَبِي فَاثِمَةَ ، وَكَذَلِكَ إِلَى اللَّهِ ، فَلَا تُنْزِلُوا اللَّهَ بِجُرْأَتِهِمْ أَحَبُّ إِلَى مَنْ أَنْ
أَقَامَ بِمَذَاهِبِهِمْ .

فُضِّلَ بِنَ عِيَاضٍ : مَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَكَلَّمَ بِفِيكَ كَلِمَةً ! أَتَدْرِي مَنْ كَانَ يَقُولُ فِيهِ
كَلِمَةً ! عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَانَ يَمْدُلُ فِي رَعِيَّتِهِ ، وَيَجُورُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَطْعَمُهُمُ الطَّيِّبَ ، وَيَأْكُلُ
الْغُلِيظَ ، وَيَكْسُوهُمْ اللَّيْنَ وَيَلْبَسُ الْخَشْنَ ، وَيُعْطِيهِمُ الْحَقَّ وَيَزِيدُهُمْ ، وَيَمْنَعُ وَلَدَهُ وَأَهْلَهُ ،
أَعْطَى رَجُلًا عَطَاءً أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ زَادَهُ أَلْفًا ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَا تَزِيدُ ابْنَتَكَ عَبْدَ اللَّهِ
كَأَنَّكَ تَزِيدُ هَذَا ؟ فَقَالَ : إِنْ هَذَا ثَبَتَ أَبُوهُ يَوْمَ أَحَدٍ ، وَإِنْ عَبْدَ اللَّهِ فَرَّ أَبُوهُ وَلَمْ يَثْبُتْ .
وَكَانَ يَقَالُ : لَا يَكُونُ الْعُمَرَانُ ، إِلَّا حَيْثُ يَمْدُلُ السُّلْطَانُ .

وَكَانَ يَقَالُ : الْمَدْلُ حَصْنٌ وَثِيقٌ ، فِي رَأْسِ نَبِيٍّ ^(١) ، لَا يَحْطُمُهُ سَيْلٌ ، وَلَا يَهْدِمُهُ مِنْجَنِيْقٌ .
وَقَعَ الْمَأْمُونُ إِلَى عَامِلٍ كَثُرَ التَّظَلُّمُ مِنْهُ : أَنْصَفَ مَنْ وَلِيَتْ أَمْرَهُمْ ، وَإِلَّا أَنْصَفَهُمْ مِنْكَ
مَنْ وَلِيَ أَمْرَكَ .

بَعْضُ السُّلَفِ : الْعَدْلُ مِيزَانُ اللَّهِ ، وَالْجَوْرُ مَكْيَالُ الشَّيْطَانِ .

(١) النَّبِيُّ : أَدْنَى مَوْضِعٍ فِي الْجَبَلِ .

(٢١٠)

الأجمل :

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ،
ويذكر ميممه وطاعته له ، فقال عليه السلام :

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ ، أَنْ
يَصْنُرَ عِنْدَهُ - لِعِظَمِ ذَلِكَ - كُلُّ مَا سِوَاهُ ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَعْظُمْتَ نِعْمَةُ
اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ ، إِلَّا أَرَادَ اللَّهُ حَقُّ اللَّهِ
عَلَيْهِ عِظَمًا .

وَإِنْ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ ، أَنْ يُقَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ ،
وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ . وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالٌ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحَبُّ
الْإِطْرَاءِ ، وَأَسْتَمَاعِ الثَّنَاءِ ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ ، وَلَوْ كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَالَ
ذَلِكَ لَكُنْتُ أَنْحَطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ
وَالْكِبَرِيَاءِ .

وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بِمَدِّ الْبَلَاءِ ، فَلَا تُذَنُّوا عَلَى تَجَمُّلِ ثَنَاءٍ ، لِإِخْرَاجِي
نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا ، وَفَرَائِضَ
لَا بُدَّ مِنْ إِمضَائِهَا ، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُسَكِّمُ بِهِ الْجَبَّارَةَ ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا بِمَا
يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَادِرَةِ ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالصَّانَةِ ، وَلَا تَقْلُوبُوا بِي اسْتِنْقَالَ
فِي حَقِّ قِيلَ لِي ، وَلَا الْعِمَاسَ إِعْظَامِ لِنَفْسِي ، فَإِنَّهُ مَنْ اسْتَنْقَلَ الْخَلْقَ أَنْ يُقَالَ لَهُ ،
أَوْ الْمَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ ، كَانَ الْمَمْلُ رِبِيًّا أَثْقَلَ عَلَيْهِ .

فَلَا تَكْفُرُوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقِّ ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ ، فَإِنِّي لَأَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ
أُخْطِئَ ، وَلَا آمَنْ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي ، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَنِي اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَتَمُّكَ بِهِ مِنِّي ،
فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدُ تَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا تَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا
وَأُخْرِجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحَنَا عَلَيْهِ ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى ، وَأَعْطَانَا
الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى .

الشرح :

هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلها أن تشرح ، ففيه معانٍ مختلفة سبيلها
أن تذكر وتوضح ، وتذكر نظائرها وما ينافسها .

فإنها قوله عليه السلام : إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ تَعْظُمَ عَلَيْهِ حَقُوقُ
اللَّهِ تَعَالَى ، وأن يعظم جلال الله تعالى في نفسه ، ومن حق مَنْ كَانَ كَذَلِكَ ، أن يصغر
عنده كل ما سوى الله .

وهذا مقام جليل من مقامات العارفين ، وهو استحقاق كل ما سوى الله تعالى ، وذلك
أَنْ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ تَعَالَى فَقَدْ عَرَفَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ ، بَلْ لَا نِسْبَةَ لشيء من الأشياء
أَصْلًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ . فَلَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْعَارِفِ عَظَمَةُ غَيْرِهِ الْبَيْتَةِ ، كَمَا أَنَّ مَنْ شَاهَدَ الشَّمْسَ
لِلنَّيِّرَةِ بِسَقَطِ ضَوْءِ الْقَمَرِ وَالسَّرَاجِ الْمَوْضُوعِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ ، حَالِ مَشَاهِدَتِهِ جَرَمِ الشَّمْسِ ،
بَلْ لَا تَظْهَرُ لَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ صُنُورَةُ السَّرَاجِ ، وَلَا تَنْطَبِعُ صُورَتُهَا فِي بَصَرِهِ .

ومنها قوله عليه السلام : مَنْ أَسْخَفَ حَالَةَ الْوَلَاةِ أَنْ يَفْلَحَ بِهِمْ حَبَّ الْقُفْرِ وَيُوضَعَ

أمرهم على الكبر . قال النبي صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر » .

وقال صلى الله عليه وآله : « لولا ثلاث مهلكات لصالح الناس : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وكان يقال : ليس لمعجب رأى ، ولا لشكبر صديق .

وكان أبو مسلم صاحب الدولة يقول : مائة إلا وضيع ، ولا فخر إلا لقيط ، ولا تعصب إلا دخيل .

وقال عمر لبعض ولده : التمس الرفعة بالتواضع ، والشرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس . وإياك وأخيلاء فتضع من نفسك ، ولا تحقرن أحداً ، لأنك لا تدري لعل من تزدريه عيناك أقرب إلى الله وسيلة منك .

ومنها قوله عليه السلام : قد كرهت أن تظنوا بي حبة الإطراء واستماع الثناء . قد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « احشوا في وجوه المداحين التراب » . وقال عمر : المدح هو الذبح .

وكان يقال : إذا سمعت الرجل يقول فيك من الخير ما ليس فيك ، فلا تأمن أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك .

ويقال : إن في بعض الكتب المنزلة القديمة : عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! ولئن قيل فيه الشر وليس فيه كيف يفضب ! وأحجب من ذلك من أحب نفسه على اليقين ، وأبغض الناس على الظن .

وكان يقال : لا يغفلن جاهلٌ غيرك بك علمك بنفسك .

وقال رجل لعبد الملك : إني أريد أن أسير إليك يا أمير المؤمنين شيئاً ، فقال لمن حوله :

إذا شئتم فانهضوا ! فتقدم الرجل يريد الكلام ، فقال له عبد الملك : قِفْ ، لا تمدحني فأني أعلمُ بنفسى منك ، ولا تكذبني فإنه لا رأى لمكذوب ، ولا تغتبُ عندي أحداً ، فأني أكره الغيبة ، قال : أفيأذن أمير المؤمنين في الانصراف ! قال : إذا شئت .

وناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجاني في مسألة كلامية ، فجعل النوشجاني يخضع في الكلام ، ويستخذي له ، فقال : يا محمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجة لي عليك . وقد ساءني منك ذلك ، ولو شئت أن أقسر الأمور بعزة الخلافة ، وهيبة الرياسة لصدقت وإن كنت كاذباً ، وعدلت وإن كنت جائراً ، وصوبت وإن كنت مخطئاً ، ولكني لا أقنع إلا بإقامة الحجة ، وإزالة الشبهة ؛ وإن أنقص الملوك عقلاً ، وأسخطهم رأياً من رضى بقولهم : صدق الأمير !

وقال عبد الله بن المقفع في " البقيعة " : إياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلثة من الثلث يفتخمون عليك منها ، وبابا يفتتخونك منه ، وغيبة يفتابونك بها ، ويسخرون منك لها . واعلم أن قابل المدح كادح نفسه ، وأن المرء جدير أن يكون حُبُّه المدح هو الذي يحمله على رده ، فإن الراد له ممدوح ، والقابل له مريب .

وقال معاوية لرجل : مَنْ سيّد قومك ! قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم نقله . وقال الحسن : ذمُّ الرجل نفسه في العلانية مدحٌ لها في السرِّ . كان يقال : مَنْ أظهر عيب نفسه فقد زكّاها .

ومنها قوله عليه السلام : لو كنت كذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ما هو أحقُّ به من الكبرياء . في الحديث المرفوع : « مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله » .

وفيه أيضا : المظلة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فن نازعنى فيها قصمته .

•••

ومنها قوله عليه السلام : « فلا تكلمونى بما تكلم به الجبابرة ، ولا تتحققوا منى

بما يتحقق به عند أهل البادية » .

أحسن ما سمعته فى سلطان لا تخاف الرعية بادرته ، ولا يتلجلج للتعصا كونه عنده ؛

مع سلوته وقوته ، لإبشاره العدل . قول أبى تمام فى محمد بن عبد الملك :

وزبرُ حقٍّ ، ووالى شُرطةٍ ورحاً ديوانِ مُلكٍ ، وشيئٍ ، ومَحْتَسِبٍ ^(١)

كالأرحى الذى سَيزُهُ المرطى والوخد والمُذَمُّ والقُربُ والجلبُ ^(٢)

عَوْدٌ تساجلُهُ أبنامه فيها مِنْ مَسَّةٍ وَبِهِ مِنْ مَسِّهَا جُلْبُ ^(٣)

ثَبَّتَ الخِطَابَ إِذَا اضْطَلَّتْ بِمُظْلَمَةٍ ^(٤) فِي رَحْلِهِ السُّنُ الْأَقْوَامِ وَالرَّكْبُ

(١) ديوانه ١ : ٢٥٣ .

(٢) قال شارح ديوانه : كان بعض الناس يقول لأبى تمام : أنا أستحسن قول امرئ القيس :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَيْدٍ شَمَائِلًا وَمِنْ خَالِهِ وَمِنْ بَرِيدٍ وَمِنْ حُجْرٍ

سَمَاحَةٍ ذَا ، وجودَ ذَا ، ووفاءَ ذَا ، وفائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكَرَ

فذكر أربعة وردت عليها أربعة أصناف ؛ فلقب أبو تمام بعد مدة ، فقال له : أنشدتنى بيتى امرئ القيس .
وتحسن ذكره لأربعة ورده عليهم أربعة أصناف ، وقد ذكرت خمسة ورددت عليهم خمسة أصناف ،
وأنشده هذين البيتين . الأرحى ، يعنى به نجيبا من الإبل منسوبا إلى أرحب ، وهم حى من همدان . والمذك
الذى قد تمت سنة وذكره ، يقال : فرس منك ووحش منك . والمرطى : ضرب من العدو سهل ، ولما
يستعمل إلا فى الإبل ، فأما الوخد والمذم والقرب والجلب : وصف سير النوق والجمال ، ولا يكادون يقولون :
وخد الفرس ، وقد حكى ذلك أبو نصر صاحب الأسنى . والقرب أيضا لا يكاد يستعمل فى الجمال ، يقول :
هذا المدوح جم لإصلاح الملك كما يجمع هذا الأرحى هذه الضروب من السير .

(٣) المود : المسن من الإبل ، والمراد به هنا الرجل الجرب ، على الاستعارة . والجلب : جمع جلبة ، وهو
الأثر فى ظهور البعير وغيره من آثر حمل أو نحوه ، يقول : قد جرب الأمور ، خيرها وشرها ؛ يسكون
الدهر مرة معه ومرة عليه ، فكأنه يساجله .

(٤) اضطررت : اضطررت ، وقوله : « بمظلمة » ، أى بخصلة مظلمة .

لا المنطق اللغو يزكو في مقاومه يوماً ، ولا حجة الملهوف تستلب^(١)
كأنما هو في نادى قبيلته لا القلب يهفو ولا الأحشاء تضطرب^(٢)

ومن هذا المعنى قول أبي الجهم العدوى ، في معاوية :

نقلبه لينخبر حالتيه فخبير منهما كرمًا ولينا
نميل على جوانبه كأننا إذا ملنا نميل على أينا

ومنها قوله عليه السلام : لا تظنوا بى استغفال رفع الحق إلى ، فإنه من استغل
الحق أن يقال له ، كان العمل به عليه أثقل .
هذا معنى لطيف ، ولم أسمع فيه شيئاً منشوراً ولا منقولاً .

ومنها قوله عليه السلام : ولا تكفوا عن قول بحق أو مشورة بعدل .
قد ورد فى المشورة شيء كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾^(٣) .
وكان يقال : إذا استشرت إنساناً صار عقله لك .
وقال أعرابي : ما غيبت قط حتى يغيب قومي ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا أفضل
شيئاً حتى أشاورهم .

وكان يقال : من أعطى الاستشارة لم يمنع الصواب ، ومن أعطى الاستشارة
لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الشكر لم يمنع المزيد .
وفى آداب ابن المقفع : لا يقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر منك
فئاس حاجتك إلى رأى غيرك فيقطعك ذلك عن الشاورة ، فإنك لا ترصد الرأى للفخر ؛

(١) المنطق اللغو : الهذر وما لا يحتاج إليه من الكلام . وزكو : يروج وينمو ، مقاوم : جمع مقام .

(٢) لا القلب يهفو : أى لا يرغب عما يريد .

(٣) سورة آل عمران ١٥٦

ولكن للانتفاع به ؛ واو أنك أردته للذكر لكان أحسن الذكر عند العقلاء أن يقال :
إنه لا يتفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : عليه السلام : « ورتما استحلّ الناسُ الثناء بعد
البلاء ... » إلى قوله : « لا بدّ من إمضاها » ؟ فنقول : إن معناه أن بعض من يسكره الإطراء
والثناء ، قد يحبّ ذلك بعد البلاء والاختيار ، كما قال مردّاس بن أدية لزياد : إنما الثناء
بعد البلاء ، وإنما نشئ بعد أن تنبلى ؛ فقال : لو فرضنا أن ذلك سائق وجازر وغير قبيح ،
لم يحزّ لكم أن تشنوا علىّ في وجهي ، ولا جاز لي أن أسمّيه منكم ؛ لأنه قد بقيت علىّ
بقية لم أفرغ من أدائها ، وفرائض لم أمضها بعد ، ولا بدّ لي من إمضاها ؛ وإذا لم يتمّ
البلاء الذي قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده ، لم يحسن الثناء .

ومعنى قوله : « لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم » أي لإعترافي بين يدي الله وبمحضر
منكم أن علىّ حقوقا في إياكم ، ورياستي عليكم ، لم أقم بها بعد ، وأرجو من الله القيام بها .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : « فلا نخاطبوني بالمصانمة » ؟ فنقول : إن معناه لا تصانعوني
بالمدح والإطراء عن عمل الحق ، كما يصانع به كثير من الولاة الذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم
الإطراء والثناء ، فيغمضون عن اعتماد كثير من الحقّ مكافأة لما صونموا به من التكريف
والزكية والنفاق .

ومنها قوله عليه السلام : « فإني لست بفوق أن أخطي » ؛ هذا اعتراف منه عليه
السلام بعدم العصمة ، فإما أن يكون الكلام على ظاهره ، أو يكون قاله على سبيل هضم

النفس ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ولأنا إلا أن يتداركني الله برحمته » .

ومنها قوله عليه السلام : « أخرجنا عما كنا فيه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى » . ليس هذا إشارة إلى خاص نفسه عليه السلام ، لأنه لم يكن كافراً فأسلم ، ولكنه كلام يقوله وبشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفتاء الداس ، فيأتي بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسعاً ، ويجوز أن يكون معناه : لولا الطائفُ اللهُ تعالى يبعثه محمد صلى الله عليه وآله لكنت أنا وغيري على أصل مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام ، كما قال تعالى لنبيه : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ^(١) ليس معناه أنه كان كافراً ، بل معناه : لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحدٍ من قومك . ومعنى « ووجدك ضالًّا » ، أى ووجدك بعرضة ^(٢) للضلال ، فكأنه ضالٌّ بالقوة لا بالفعل .

مركز تكملة الحديث

(١) سورة الضحى ٧ .

(٢) كذا في ب ، وق ١ : « بعرضة الضلال » .

(٢١١)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرْبَيْهِ وَمَنْ أَعَانَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ؛ وَأَكْفَنُوا
إِنَائِي ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي ، وَقَالُوا : أَلَا إِنَّ فِي الْخَلْقِ
أَنْ تَأْخُذَهُ ، وَفِي الْخَلْقِ أَنْ تُنَمِّعَهُ ، فَاصْبِرْ مَغْمُومًا ، أَوْ مِتْ مُتَأَسِّفًا .

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي ؛ فَصَنَنْتُ رِجْلِي
مِنَ الْمَنِيَّةِ ، فَأَغْضَبْتُ عَلَى الْقَذَى ، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا ، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظَمِ الدَّنِيظِ
عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَمِ ، وَالْمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْرِ الشَّفَارِ .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ ، إِلَّا أَنِّي
ذَكَرْتُ هَاهُنَا لاختلاف الروايتين .

الشرح :

المعدوى : طلبك إلى والي ليعديك على مَنْ ظلمك ، أى ينتقم لك منه ، يقال :
استعديتُ الأميرَ على فلان فأعداني ، أى استعنت به عليه فأعداني .

وقطعوا رَحِمِي : وقطعوا قرابتي ، أى أجروني مجرى الأجانب ويحوز أن يريد أنهم
عدوني كالأجنبي من رسول الله صلى الله عليه وآله . ويحوز أن يريد أنهم جعلوني كالأجنبي

منهم ؛ لا يبصرونه ، ولا يقومون بأمره .

وأكشفوا إنائي : قلبوه وكتبوه ، وحذفوا الميم من أول الكلمة أفصح وأكثر ، وقد روى كذلك ، ويقال لمن قد أضيعت حقوقه : قد أكنأ إناءه ؛ تشبيها بإضاعة اللبن من الإناء .

وقد اختلفت الرواية في قوله : « ألا إن في الحق أن تأخذه » ، فرواها قوم بالنون ، وقوم بالتاء . وقال الراوندي : إنها في خطأ الرضى بالتاء . ومعنى ذلك أنك إن وليت أنت كانت ولايتك حقاً ، وإن ولي غيرك كانت ولايته حقاً ، على مذهب أهل الاجتهاد . ومن رواها بالنون ، فالعنى ظاهر .

والرافد : المعين . والذاب : الناصر .

وضنفت بهم : بخلت بهم . وأغضيت على كذا : صبرت .

وجرعت بالكسر . والشجا : ما يعترض في الخلق .

والوخز : الطعن الخفيف ، وروى « من حز الشفار » والحز : القطع .

والشفار : جمع شفرة ، وهي حدة السيف والسكين .



واعلم أن هذا الكلام قد نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يناسبه ، ويجرى مجراه ، ولم يؤرخ الوقت الذي قاله فيه ، ولا الحال التي عاها به ، وأصحابنا يحملون ذلك على أنه عليه السلام قاله عتيب الشورى وبينة عمان ، فإنه ليس برتاب أحد من أصحابنا على أنه تظلم وتآلم حينئذ .

وبكره أكثر أصحابنا حل أمثال هذا الكلام على التألم من يوم السقيفة .

ولقاتل أن يقول لهم : اتقولون إن بينة عمان لم تكن صحيحة؟ فيقولون : لا ، فيقال

لم : فعلى ماذا يحملون كلامه عليه السلام ، مع تعظيمكم له وتصديقكم لأقواله ؟ فيقولون :
نحمل ذلك على تألمه ونظلمه منهم إذا تركوا الأولى والأفضل . فيقال لهم : فلاتكروا
قول مَنْ يقول من الشيعة وغيرهم : إن هذا الكلام وأمثاله صدر عنه عقيب السقيفة ، وحلوه
على أنه تألم ونظلم من كونهم تركوا الأولى والأفضل ، فإنكم لستم تنكرون أنه كان
الأفضل والأحق بالأمر ، بل تعترفون بذلك ، وتقولون : ساءت إمامة غيره ، وصححت
لما كان فيه عليه السلام ، وهو ما غلب على ظنون العقادين للأمر من أن العرب لا تطيعه ،
فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولي الخلافة لأسباب يذكرونها ، ويعدونها ، وقد
روى كثير من المحدثين أنه عقيب يوم السقيفة تألم ونظلم ، واستنجدوا واستصرخ ، حيث
ساموه الحضور والبيعة ، وأنه قال وهو يشير إلى القبر : (يَا بَنِي أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي
وَكَادُوا يَقْتُلُونِي)^(١) وأنه قال : واجفروا ! ولا جفرت لي اليوم ! واحزنوا ولا حزنوا
لي اليوم !

وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدم ، وكل ذلك محمول عندنا على أنه
طلب الأمر من جهة الفضل والقراءة ، وليس بدالتر عندنا على وجود النص ، لأنه لو كان
هناك نص لكان أقل كلفة وأسهل طريقا ، وأيسر ليما يريد تناولا أن يقول : يا هؤلاء
إن العهد لم يطل ، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله أمركم بطاعتي ، واستخلفني عليكم
بعده ، ولم يقع منه عليه السلام بعد ما علمتموه ونصت ينسخ ذلك ، ولا يرفعه ، فما الموجب
لتركي ، والعدول عني !

فإن قالت الإمامية : فإن يخاف القتل لو ذكر ذلك ، قيل لهم : فهلا يخاف القتل
وهو بعزل ويدفع ليبايع ، وهو يمتنع ، ويستصرخ تارة بقبر رسول الله صلى الله عليه وآله ،

وتارة بعمه حمزة وأخيه جعفر - وهما ميثان - وتارة بالأنصار ، وتارة بيني عبدمناف ، ويجمع الجحوم في داره ، ويبيت الرسل والدعاة ليلاً ونهاراً إلى الناس ، يذكّرهم فضله وقربه ، ويقول للمهاجرين : خَصَّصْتُ^(١) الأنصار بكونكم أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أخصّصكم بما خَصَّصْتُ به الأنصار ، لأن القرابة إن كانت هي المعتبرة ، فأنا أقرب منكم .

وهلّا خاف من هذا الامتناع ، ومن هذا الاحتجاج ، ومن الخلوة في داره بأصحابه ، ومن تنفير الناس عن البيعة التي عقدت حينئذ لمن عقدت له !

وكلّ هذا إذا تأمله النصف علم أن الشيعة أصابت في أمر ، وأخطأت في أمر ، أما الأمر الذي أصابت فيه فقولها : إنه امتنع وتلكأ ، وأراد الأمر لنفسه ، وأما الأمر الذي أخطأت فيه ، فقولها : إنه كان متصوفاً عليه نصاً جلياً بالخلافة ، تعلمه الصحابة كلها أو أكثرها ، وإن ذلك النصّ خولف طلباً للرئاسة الدنيوية ، وإثارة للعاجلة . وإن حال المخالفين للنصّ لا تعدّو أحد أمرين : إمّا الكفر أو الفسق ، فإن قرأت الأحوال وأماراتها لا تدلّ على ذلك ، وإمّا تدلّ وتشهد بخلافه ، وهذا يقتضي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان في مبدأ الأمر بظن أن المقدّم لغيره كان عن غير نظر في المصلحة ، وأنه لم يقصده إلا صرف الأمر عنه ، والاحتشار عليه ، فظهر منه ما ظهر من الامتناع والمقود في بيته ، إلى أن صحّ عنده ، وثبت في نفسه ، أنهم أصابوا فيما فعلوه ، وأنهم لم يميلوا إلى هوى ، ولا أرادوا الدنيا ، وإنما فعلوا الأصلاح في ظنونهم ، لأنه رأى من بغض الناس له ، وانحرافهم عنه ، وميلهم عليه ، وثوران الأحقاد التي كانت في أنفسهم ، واحتدام النيران التي كانت في قلوبهم ، وتذكروا التراث التي وتراهم فيما قبل بها ، والدماء التي سفكها منهم ، وأرقها .

(١) خصصكم الأنصار : غلبوكم .

وتمثل طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغر سنه ، واستهجانهم تقديم الشباب على الكهول والشيوخ .

وتمثل طائفة أخرى منهم بكراهية الجمع بين النبوة والخلافة في بيت واحد ، فيجفخون^(١) على الناس كما قاله من قاله . واستصعاب قوم منهم شكيمته وخوفهم تعذيبه وشدة ، وعلمهم بأنه لا بداجي ولا يحابي ، ولا يراقب ولا يجامل في الدين ، وأن الخلافة تحتاج إلى من يجتهد برأيه ، ويعمل بموجب استصلاحه ، وانحراف قوم آخرين عنه ، لعدم الذي كان عندهم له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لشدة اختصاصه له ، وتفضيله إياه ، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالة على رفعة شأنه وعلو مكانه ، وما اختص به من مصاهرته وأخوته ، ونحو ذلك من أحواله معه ، وتكبر قوم آخرين له لنفسهم إليه المعجب والته ، كما زعموا ، واحتقاره العرب ، واستصغاره الناس كما عدوه عليه ، وإن كانوا عندنا كاذبين ، ولكنه قول قيل ، وأمر ذكر ، وحال نسبت إليه ، وأعانهم عليها ما كان يصدر عنه من أقوال توهم مثل هذا ، نحو قوله : « فإنا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائع لنا » ، وما صح به عنده^(٢) أن الأمر لم يكن يستقيم له يوماً واحداً ، ولا ينظم ولا يستمر ، وأنه لو ولي الأمر لفتقت العرب عليه فتقاً يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه ، فأذعن بالبيعة ، وجئح إلى الطاعة وأمسك من طلب الإمرة ، وإن كان على مضض ورمض .

وقد روى عنه عليه السلام أن فاطمة عليها السلام حرضته يوماً على النهوض والوثوب فسمع صوت المؤذن : « أشهد أن محمداً رسول الله » ، فقال لها : أيسرك زوال هذا النداء من الأرض ؟ قالت : لا ، قال : فإنه ما أقول لك .

(١) فيجفخون : يفتخرون ويتكبرون .

(٢) ب : « عنده » ، وما أثبتته من أ

وهذا المذهب هو أقصد للذاهب وأصحها ، وإليه يذهب أصحابنا المتأخرون من
البغداديين ، وبه نقول .

واعلم أن حال علي عليه السلام في هذا المعنى أشهر من أن يحتاج في الدلالة عليها إلى
الإسهاب والإطناب ، فقد رأيت انتفاض العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد
وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسة وعشرين سنة ، وفي دون هذه المدة تُنسى
الأحقاد ، وتموت الترات ، وتبرد الأكباد الحامية ، وتسلو القلوب الواجدة ، ويعدم قرن
من الناس ، ويوجد قرن ، ولا يبقى من أرباب تلك الشجاء والبمضاء إلا الأقل ،
فكانت حاله بعد هذه المدة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة
ابن عمه صلى الله عليه وآله ، من إظهار مافي النفوس ، وهيجان مافي القلوب ، حتى إن
الأخلاف من قريش ، والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائمه وفشكاته في أسلافهم
وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء تقصرت عن فعله ، وتفاعست عن بلوغ
شأوه ، فكيف كانت تكون حاله لو جلس على منبر الخلافة ، وسيفه بعد يقطر دما من
مُهج العرب ، لاسيا قريش الذين بهم كان ينبغي لودعه خطب — أن يعتمد ، وعليهم كان
يجب أن يعتمد ! إذن كانت تدرُس أعلام الملة وتنعم في رسوم الشريعة ، وتعود الجاهلية
الجهلاء على حالها ، ويفسد ما أصلحه رسول الله صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين
سنة في شهر واحد ، فكان من عناية الله تعالى بهذا الدين أن ألهم الصحابة ما فعلوه ، والله
سَمَّ نوره ولو كره المشركون .

[فصل في أن جعفرًا وحمزة لو كان حيين لبايعا عليا]

وسألت النقيب أبا جعفر محيى بن محمد بن أبى يزيد رحمه الله ، قلت له : أتقول : إن حمزة وجعفرًا لو كانا حيين يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكانا يبايعانه بالخلافة ؟ فقال : نعم ، كانا أسرع إلى بيعته من النار في كبس العرفج . قلت له : أظن أن جعفرًا كان يبايعه ويتابعه ، وما أظن حمزة كذلك ، وأراه جبارًا ، قوى النفس ، شديد الشكيمة ، ذاهبا بنفسه ، شجاعا بهمة ، وهو المم والأهل سنًا ، وآثاره في الجهاد معروفة ، وأظنه كان يطلب الخلافة لنفسه !

فقال : الأمر في أخلاقه وسجاياه كما ذكرت ، ولكنه كان صاحب دين متين ، وتصديقي خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولو عاش لرأى من أحوال علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يوجب أن يكسر له نخوته ، وأن يقيم له صمره ، وأن يقدمه على نفسه ، وأن يتوخي رضا الله ورضا رسوله فيه ، وإن كان بخلاف إشارته . ثم قال : أين خلق حمزة السبعي من خلق علي الروحاني اللطيف ، الذي جمع بينه وبين خلق حمزة ، فأنصفت بهما نفس واحدة ! وأين هي لانية نفس حمزة ، وخلوها من العلوم من نفس علي القدسية التي أدركت بالقطرة لا بالقوة التعليمية ما لم تدركه نفوس مدققى الفلاسفة الإلهيين ! لو أن حمزة حي حتى رأى من علي ما رآه غيره ، لكان أتبع له من ظله ، وأطوع له من أبى ذر والمقداد !

وأما قولك : هو المم والأهل سنًا ، فقد كان العباس المم والأهل سنًا ، وقد عرفت ما بذله له وندبه إليه ، وكان أبو سفيان كالمم ، وكان أهل سنًا ، وقد عرفت ما عرضه عليه . ثم قال : مازالت الأهمام نخدم أبناء الإخوة ، ونسكون أتباعا لهم ؛ ألست ترى داود بن

عليّ ، وعبد الله بن عليّ ، وصالح بن عليّ ، وسليمان بن عليّ ، وعيسى بن عليّ ، وإسماعيل بن عليّ ، وعبد الصمد بن عليّ خَدَمُوا ابن أخيهم - وهو عبد الله السَّفَّاح بن محمد بن عليّ - وبايعوه وتابَعوه ، وكانوا أمراء جيوشه وأنصاره وأعوانه ! أَلَسْتَ ترى حمزة والعباس أتباعا ابن أخيهما صلوات الله عليه ، وأطاعاه ورضيا برياسته ، وصدَّقَا دعوته ! أَلَسْتَ تعلم أن أبا طالب كان رئيس بني هاشم وشيخهم ، والطَّاعَ فيهم ، وكان محمد رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمة ومكتمولة ، وجاريا يجري أحد أولاده عنده ، ثم خضع له ، واعترف بصدقه ، ودان لأمره ، حتى مدحه بالشعر كما يمدح الأدنى الأعلى ، فقال فيه :

وَأَبْيَضَ يُنْسَقَى النَّعْمَامُ بوجهِهِ ثَمَالُ الْيَتَامَى عصمةً للأرامل^(١)

يُطِيفُ به المَهْلَاكُ من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
وإن سرًّا اختص به محمد صلى الله عليه وآله ، حتى أقام أبا طالب - بحاله معه حاله - مقام للدخول له ، السرِّ عظيم وخاصية شريفة ، وإن في هذا لِمُعْتَبَرٍ عِبرة أن يكون هذا الإنسان الفقير الذي لا أنصار له ولا أعوان معه ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يقهر غيره ، تعمل دعوته وأقواله في الأنفس ما تعمله الخمر في الأبدان المعتدلة المزاج ، حتى تطيعه أعمامه وبمظالمه مربيه وكافله ، ومن هو إلى آخر عمره القيم بفنقته ، وغذاء بدنه ، وكوة جسده ، حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشُّعراء الملوك والرؤساء ! وهذا في باب المعجزات عند المنصيف أعظم من انشقاق القمر ، وانقلاب المصا ، ومن إنباء القوم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم .

ثم قال رحمه الله : كيف قلت : أظن أن جعفرًا كان يبايعه ويتابعه ، ولا أظن في حمزة ذلك ! إن كنت قلت ذلك لأنه أخوه ، فإنه أعلى منه سنًا ، هو أكبر من عليّ بعشر

(١) ديوانه ١١٣ . ثَمَالُ الْيَتَامَى : عمادهم وملاذمهم .

عصمة للأرامل : حافظ للمساكين .

سنين ، وقد كانت له خصائص ومناقب كثيرة ، وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله قولا شريفا انتفى عليه المحدثون ، قال له لما افتخر هو وعليّ وزيد بن حارثة ، وتحاكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : « أشبهت خلقي وخلقي » فنجعل فرحا ، ثم قال لزيد : « أنت مولانا وصاحبنا » ، فنجعل أيضا ، ثم قال لعليّ : « أنت أخى وخالصى » ، قالوا : فلم ينجعل ، قالوا : كأن ترادف التعظيم له وتكرّره عليه لم يجعل عنده القول ذلك للوضع ، وكانت غيره إذا عظم عظم نادرا ، فيحسن موقعه عنده . واختلف الناس في أى المدحتين أعظم .

قلت له : قد وقفت لأبى حيان التوحيدي في كتاب " البصائر " على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه ، قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب : سمعت قاضى القضاة أبا سعد بشر بن الحسين - ومارأيت رجلا أقوى منه في الجدل - في مناظرة جرت بينه وبين أبى عبد الله الطبري وقد جرى حديث جعفر بن أبى طالب ، وحديث إسلامه ، والتفاضل بينه وبين أخيه عليّ ، فقال القاضى أبو سعد : إذا أنعم النظر عليم أن إسلام جعفر كان بعد بلوغ ، وإسلام البالغ لا يكون إلا بعد استبصار وتبين ومعرفة يقبح ما يخرج منه ، وحسن ما يدخل فيه ؛ وإنّ إسلام عليّ مختلف في حاله ، وذلك أنه قد ظنّ أنه كان عن تلقين لا تبين إلى حين بلوغه ، وأوان أعقبه ونظره . وقد علم أيضا أنها قتلا ، وإن قتلة جعفر شهادة بالإجماع ، وقتلة عليّ فيها أشدّ الاختلاف . ثم خصّ الله جعفرا بأن قبضه إلى الجنة قبل ظهور الثباين ، واضطراب الحبل ، وكثرة الهرج ، وعلى أنه لو انعقد الإجماع ، وتظاهرت جميع الناس على أن القتلين شهادة ، لكانت الحال في الذى رفع إليها جعفر أغلظ وأعظم ، وذلك أنه قتل مقبلا غير مدير ، وأما عليّ فإنه اغتيل اغتيالاً ، وقصد من حيث لا يعلم ؛ وشقان ما بين من فوجئ بالوث وبين من عاين مخايل الموت !

وتلقاه بالنحر والصدر ، وهجلاً إلى الله بالإيمان والصدق ! ألا تعلم أن جعفرأً قطعت عناه ، فأمسك القواء يسراه ، وقطعت يسراه ، فضمّ اللواء إلى حشاه ، ثم قاتله ظاهر الشرك بالله وقاتل عليّ بن صليّ إلى القبلة ، وشهد الشهادة ، وأقدم عليه بتأويل ، وقاتل جعفر كافر بالنصّ الذي لا خلاف فيه ! أما تعلم أن جعفرأً ذو الجناحين ، وذو المجرتين إلى الحبشة والمدينة !

قال النقيب رحمه الله : اعلم - فإدراك شيخك - أن أبا حيان رجلٌ ملحذٌ نديقٌ ، يحبّ القلاعب بالدين ، ويخرجُ ما في نفسه فيمزوه إلى قوم لم يقولوه . وأقسم بالله أن القاضي أبا سعد لم يقل من هذا الكلام لفظة واحدة ، ولكنها من موضوعات أبي حيان وأكاذيبه وتبرهاته ؛ كما يسند إلى القاضي أبي حامد المروزي كل منكر ، ويروي عنه كل فاقرة .

ثم قال : يا أبا حيان ! مقصودك أن نجعلها مسألة خلاف تثير بهافتة بين الطالبين ، لتجعل بأسهم بينهم ! وكيف تقلبت الأحوال فالغفر لم لم يخرج عنهم !

ثم ضحك رحمه الله حتى استلقى ومدّ رجله ، وقال : هذا كلام يستغنى عن الإطالة في إبطاله بإجماع المسلمين ، فإنه لا خلاف بين المسلمين في أن علياً أفضل من جعفر ؛ وإنما سرق أبو حيان هذا المعنى الذي أشار إليه من رسالة المنصور أبي جعفر إلى محمد بن عبد الله ، النفس الزكية ، قال له : وكانت بنو أمية يلعنون أباك في أدبار الصلوات للكتوبات ، كما تلعن الكفرة ، فمقتنهم وكفّرناهم ، وبيننا فضل وأشدنا بذكرك ، فالتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنه لما ذكرناه من فضله أنا قد مناه على حمزة والعباس وجعفر ، أولئك مضوا سالمين مسلمين منهم ، وابتلى أبوك بالدماء !

قلت له رحمه الله : وإذا لا إجماع في المسألة ؛ لأن المنصور لم يقل بتفضيله عليهم ،

وأنت أدعيت الإجماع ، فقال : إن الإجماع قد سبق هذا القائل ، وكل قول قد سبقه الإجماع لا يعتمد به .

فلما خرجت من عند النقيب أبي جعفر بحثت في ذلك اليوم في هذا الموضوع مع أحد ابن جعفر الواسطي رحمه الله - وكان ذا فضل وعقل ، وكان إمامي المذهب - فقال لي : صدق النقيب فيما قال ! أأنت تعلم أن أصحابكم المعتزلة على قولين : أحدهما أن أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، والآخر أن أكثرهم ثواباً علي ، وأصحابنا يقولون : إن أكثر المسلمين ثواباً علي ، وكذلك الزيدية . وأما الأشعرية والكرامية وأهل الحديث ، فيقولون : أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، فقد خلص من مجموع هذه الأقوال أن ثواب حمزة وجعفر دون ثواب علي عليه السلام ؛ أما على قول الإمامية والزيدية والبغداديين كافة ، وكثير من البصريين من المعتزلة ، فالأمر ظاهر ، وأما الباقيون فعندهم أن أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ؛ ولم يذهب ذاهبٌ إلى أن ثواب حمزة وجعفر أكثر من ثواب علي من جميع الفرق . فقد ثبت الإجماع الذي ذكره النقيب ، إذا فسرنا الأفضلية بالأكثرية ثواباً ، وهو التفسير الذي يقع الججاج والجدال في إثباته لأحد الرجلين . وأما إذا فسرنا الأفضلية بزيادة الثواب والخصائص وكثرة النصوص الدالة على التعظيم ، فمعلوم أن أحداً من الناس لا يقارب علياً عليه السلام في ذلك ، لا جعفر ، ولا حمزة ولا غيرها .

ثم وقع بيدي بعد ذلك كتابٌ لشيخنا أبي جعفر الإسكافي ، ذكر فيه أن مذهب بشر بن المعتير ، وأبي موسى ، وجعفر بن مُبَشَّر ، وسائر قدماء البغداديين أن أفضل المسلمين علي بن أبي طالب ، ثم ابنه الحسن ، ثم ابنه الحسين ، ثم حمزة بن عبد المطلب ، ثم جعفر بن أبي طالب ، ثم أبو بكر بن أبي قحافة ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان ابن عفان .

قال : والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله ، وأكثرهم ثواباً ، وأرفعهم في دار
الجزاء منزلةً .

ثم وقعت بعد ذلك على كتاب لشيخنا أبي عبد الله البصري يذكر فيه هذه المقالة ،
وينسبها إلى البغداديين ، وقال : إن الشيخ أبا القاسم البلخي ، كان يقول بها ، وقبله الشيخ
أبو الحسين الخياط ، وهو شيخ المتأخرين من البغداديين ، قالوا كلمهم بها ، فأعجبني هذا
المذهب ، وسررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا إليه ، ونظامته في الأرجوزة التي شرحت
فيها عقيدة المعتزلة ، فقلت :

وخير خلق الله بعد الصافي أعظمهم يوم الفخار شرفاً
اليد المعظم الوصي بقل البتول المرتضى على
وابناء ثم حمزة وجعفر ثم عتيق بعدم لا بكر
الخلص الصديق ثم عمر فاروق دين الله ذاك القسور
وبعد عثمان ذو النورين هذا هو الحق بغير من

(٢١٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام :

فَقَدِمُوا عَلَى عُثَالٍ وَخُرَّانٍ بَيْنَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ
كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي ، وَعَلَى بَيْعَتِي ؛ فَشَنَّتُوا كَلِمَتَهُمْ ، وَأَفْسَدُوا عَلَى جَمَاعَتِهِمْ ، وَوَبَّؤُوا عَلَى
شِيَعَتِي فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْرًا ، وَطَائِفَةً عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، فَضَارَبُوا بِهَا ، حَتَّى
قَتَلُوا اللَّهَ صَادِقِينَ .



الشرح :

عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، كناية عن الصُّبْر في الحرب وترك الاستسلام ، وهي كناية
فصيحة ، شَبَّهَ قُبُضَهُمْ عَلَى السُّيُوفِ بِالْمَضِّ ، وَقَدْ قَدِمْنَا ذَكَرَ مَا جَرَى ، وَأَنَّ عَسَاكِرَ
الْجُلَّ قَتَلُوا طَائِفَةً مِنْ شِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبَصْرَةِ بَعْدَ أَنْ أَمَنُواهُمْ غَدْرًا ، وَأَنَّ بَعْضَ
الشَّيْعَةِ صَبَرَ فِي الْحَرْبِ وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ ، وَقَاتَلَ حَتَّى قَتَلَ ، مِثْلَ حَكِيمِ بْنِ جَبَلَةَ الْهَمْدِيِّ وَغَيْرِهِ . وَرَوَى :
« وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ » بِالرَّفْعِ ، تَقْدِيرُهُ : وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ .

قَرَأْتُ فِي كِتَابِ " غَرِيبِ الْحَدِيثِ " لِأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَتِيبَةَ فِي حَدِيثِ
حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ، أَنَّهُ ذَكَرَ خُرُوجَ عَائِشَةَ ، فَقَالَ : « تَقَاتَلَتْ مَعَهَا مُضَرٌّ ، مُضَرُّهَا اللَّهُ فِي الْفَارِ »^(١) ،

(١) قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي شَرْحِهِ لِلْحَدِيثِ : « أَيْ جَعَلَهَا فِي النَّارِ ، فَاشْتَقَى لَذَّةً مِنْ أَسْمَائِهَا ؛ يُقَالُ :
مُضَرًّا فُلَانًا فَتَمُضَرُّ ؛ أَيْ مَبْرُوءًا كَذَلِكَ ، أَيْ تَسْبِيحًا لَهَا . وَقَالَ الزَّعْفَرَانِيُّ : مُضَرُّهَا : جَمْعُهَا كَمَا يُقَالُ :
جُنْدُ الْجُنُودِ ، وَفِيلٌ : مُضَرُّهَا : أَهْلُهَا ، مِنْ قَوْلِهِمْ : قَعَبَ دِمُهُ خَضْرَاءً مُضَرًّا ، أَيْ هَدْرًا » .
التهامية ٤ : ٩٨ .

وأزد عثمان سكت الله أقدامها^(١) ، وإن قيساً لن تنفك تبغى دين الله شراً ، حتى يركبها الله بالملائكة ، فلا يمنعوا ذنب ثلثة^(٢) .

قلت : هذا الحديث من أعلام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله ، لأنه إخبار عن غيب تلقاه حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله ؛ وحذيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات في الأيام التي قتل عثمان فيها أثناء نعيه وهو مريض ، فمات وعليه السلام لم يتمكّل بيعة الناس ، ولم يدرك الجبل .

وهذا الحديث يؤكد مذهب أصحابنا في فسق أصحاب الجبل ، إلا من ثبتت توبته منهم ، وهم الثلاثة .



(١) سكت الله أقدامها : قطعها . النهاية ٧ : ١٧٤ .

(٢) الثلاث : مسائل للام ، من علو إلى سفلى ، واحداً ثلثة ، وذنب الثلثة : أسفلها ؛ قال الزمخشري :
« أي ينزلها الله حتى لا تقدر على أن تمنع ذنب ثلثة . الفائق ٣ : ٣٧ . »

(٢١٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما مرّ بطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عتاب بن
أسيد وهما قتيلان يوم الجمل :

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ
تَكُونَ قَرِيشٌ قَتَلَتْ تَحْتَ بَطُونٍ الْكُفَّاءِ أَدْرَكْتُ وَتَرَى مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ،
وَأَفْلَتَنِي أَعْيَارُ بَنِي جَحْجَحٍ ، لَقَدْ أَنْتَمُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوَقِصُوا دُونَهُ



الشرح :

[عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد]

هو عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس . ليس
بصحابي ، ولكنه من التابعين ، وأبوه عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ،
من مُسَلِّمة الفتح ، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى حنين ، استعمله
عليها ، فلم يزل أميرها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبقي على حاله خلافة
أبي بكر الصديق ، ومات هو وأبو بكر في يوم واحد ، لم يعلم أحدهما بموت الآخر ،
وعبد الرحمن هذا هو الذي قال أمير المؤمنين فيه ، وقد مرّ به قتيلا يوم الجمل : لهنّ عليك
بمسوب قريش ! هذان الفتيان ، هذا القلب المحض من بني عبد مناف ، شفيت نفسي ،
وقلت معشري ، إلى الله أشكو مجري ومجري ! فقال له قائل : لشدّ ما أطربت

الفقى يأمر المؤمنين منذ اليوم ! قال : إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك
وعبد الرحمن هذا هو الذي احتملت العقاب كفه يوم الجمل وفيها خاتمه ، فألقها بالجمامة
فعرفت بخاتمته ، وعلم أهل الجمامة بالوقعة .

ورأيت في شرح " نهج البلاغة " للقطب الراوندي في هذا الفصل عجائب وطرائف ،
فأحببت أن أوردتها هاهنا . منها أنه قال في تفسير قوله عليه السلام « أدركت وترى ^(١) من
بنى عبد مناف » ، قال : يعني طلحة والزبير ، كانا من بنى عبد مناف ، وهذا غلط قبيح ،
لأن طلحة من تيم بن مرة ، والزبير من أسد بن عبد العزى بن قصي ، وليس أحد
منهما من بنى عبد مناف ، وولد عبد مناف أربعة : هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، وعبد المطلب ،
فكل من لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة ، فليس من ولد عبد مناف .

ومنها أنه قال : إن مروان بن الحكم ، من بنى جحج ، ولقد كان هذا الفقيه رحمه الله
يعيداً عن معرفة الأنساب ! مروان من بنى أمية بن عبد شمس ، وبنو جحج من بنى
هشيم بن كعب بن لؤي بن غالب ، واسم جحج تيم بن عمرو بن هشيم ، وأخوه
سهم بن عمرو بن هشيم ، فأين هؤلاء ، وأين مروان
ابن الحكم !

ومنها أنه قال : « وأفلتني أغيار بنى جحج » بالعين المعجمة ، قال : هو جحج « غير »
الذي بمعنى « سوى » ، وهذا لم يرو ، ولا مثله مما يتكلم به أمير المؤمنين (عليه السلام)
وبعد عن طريقته ، فإنه يكون قد عدل عن أن يقول : « ولم يفلتني إلا بنو جحج » إلى
مثل هذه العبارة الركيكة المتعسفة .

(١) الوتر : الدحل والثار .

[بنو جَح]

واعلم أنه عليه السلام أخرج هذا الكلام مخرج الدم لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وآله من بنو جَح ، قال : « وأفلتني أحياناً بنو جَح » ، جمع عَيْر وهو الحمار ، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا ، ولم يقتل منهم إلا اثنان ، فقتل هرب ونجا بنفسه : عبد الله الطويل بن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة ابن جَح ، وكان شريفاً وابن شريف ، وعاش حتى قُتِلَ مع ابن الزبير بمكة .

ومنهم يحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية بن خلف ، عاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكة ، لما جمع له بين مكة والمدينة ، فأقام عمرو بالمدينة ، ويحيى بمكة . ومنهم عامر بن مسعود بن أمية بن خلف ، كان يسمى دُحْرُوجَةَ الْجَعَل ، لقصره وسواده ، وعاش حتى وُلّاه زياد صدقاتِ كُرَ بن وائل ، وولّاه عبد الله بن الزبير بن العوام الكوفة .

ومنهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعة بن الأعور بن أهيب بن حذافة بن جَح ، عاش حتى قُتِلَ بَقْدِيد ، قتلته الخوارج .

فهؤلاء الذين أعرف حضورهم الجمل مع عائشة من بنو جَح ، وقتل من بنو جَح مع عائشة عبد الرحمن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جَح ، وعبد الله ابن ربيعة بن درّاج المنبسي بن وهبان بن وهب بن حذافة بن جَح ، لا أعرف أنه قُتِلَ من بنو جَح ذلك اليوم غيرها ، فإن صحّت الرواية : « وأفلتني أحياناً بنو جَح » ، بالنون ، فالراد رؤسائهم وساداتهم .

وأتلوا أعناقهم : رفعوها ، ورجل أنلَعَ : بين النكع ، أي طويل العنق ، وجيدٌ تليع أي طويل ، قال الأعشى :

يوم تُبْدَى لِسَاقَتِيَّةٌ عَنْ جِهٍ دِي تَلِيحِ تَرْبُهُ الْأَطْلَاقُ^(١)
وَوَقِصَ الرَّجُلُ ، إِذَا انْدَقَّتْ عُنُقُهُ ، فَهُوَ مَوْقُوصٌ ، وَوَقِصْتُ عُنُقَ الرَّجُلِ أَنْفِصُهَا
وَقِصًّا ، أَيْ كَسَرْتُهَا ، وَلَا يَجُوزُ وَقِصْتُ الْعُنُقَ نَفْسَهَا .
وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَقَدْ أُنْظِرُوا » يَرْجِعُ إِلَى قَرِيشٍ ، أَيْ رَامُوا الْخِلَافَةَ
فَقَتَّلُوا دُونَهَا .

فَإِنْ قُلْتُ : أَتَقُولُ إِنَّ طَلْعَةَ وَالزَّيْبَرَ لَمْ يَكُونَا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافَةِ ؟ إِنْ قُلْتَ ذَلِكَ
تَرَكْتَ مَذْهَبَ أَصْحَابِكَ ، وَإِنْ لَمْ تَقُلْ خَالَفْتَ قَوْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « لَمْ يَكُونُوا أَهْلًا » !
قُلْتُ : هِيَ أَهْلُ الْخِلَافَةِ مَا لَمْ يُطْلَبْهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِذَا طُلِبَتْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلًا لَهَا ،
لَا هِيَ وَلَا غَيْرُهَا ، وَلَوْلَا طَاعَتُهُ لَمْ تَقْدَمْ وَمَا ظَهَرَ مِنْ رِضَا بِهِ لَمْ نَحْكَمْ بِصَحَّةِ خِلَافَتِهِ .



مركز توثيق و نشر التراث

(٢١٤)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام :

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ؛ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ ، وَبَرَّقَ لَهُ
لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرَقِ ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ ، وَتَدَا فَعْتَهُ الْأَبْوَابُ إِلَى
بَابِ السَّلَامَةِ ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ ، وَتَبَيَّنَتْ رِجَالُهُ بِطَمَائِنِيَّةٍ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ ،
بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ ، وَأَرْضَى رَبَّهُ .



الشرح :

يصف العارف ، يقول : قد أحيا قلبه بمعرفة الحق سبحانه ، وأمات نفسه بالمجاهدة
ورياضة القوة البدنية بالجوع والعطش ، والسهر ، والصبر على مشاق السفر ، والسياحة .
حتى دقَّ جليله ، أي حتى تحمل بدنه الكثيف .
ولطف غليظه ، تلطف أخلاقه وصفت نفسه ، فإن كدر النفس في الأكثر إنما
يكون من كدر الجسد ، والبطنة - كما قيل - تذهب الفطنة .

[فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار]

وقول أرباب هذه الطريقة : مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَدَايَتِهِ صَاحِبَ مَجَاهِدَةٍ لَمْ يَجِدْ مِنْ هَذِهِ
الطَّرِيقَةِ نَجْمَةً .

وقال عثمان المغربي الصوفي : مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُفْتَحُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، أَوْ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِهَا مِنْ غَيْرِ تَزَوُّمِ الْمَجَاهِدَةِ ، فَهُوَ غَالِطٌ .

وقال أبو علي الدقاق : مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَدَايَتِهِ قُوَّةً ، لَمْ يَكُنْ فِي نَهَائِهِ جُلَّةً .

ومن كلامهم : الْحَرَكَةُ بَرَكَةٌ . حَرَكَاتُ الظُّلُومِ ، تُوجِبُ بَرَكَاتِ السَّرَائِرِ .

ومن كلامهم : مَنْ زَيَّنَ ظَاهِرَهُ بِالْمَجَاهِدَةِ حَسَنَ اللَّهِ سَرَائِرَهُ بِالْمُشَاهَدَةِ .

وقال الحسن الفرازيفي : هَذَا الْأَمْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَلَّا تَأْكُلَ إِلَّا عِنْدَ الْفَاقَةِ ، وَلَا تَقَامَ إِلَّا عِنْدَ الْغَلْبَةِ ، وَلَا تَتَكَلَّمَ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ .

وقال إبراهيم بن أدهم : لَنْ يُفَالِ الرَّجُلُ دَرَجَةَ الصَّالِحِينَ حَتَّى يَفْطِقَ عَنْ نَفْسِهِ بَابَ النِّعْمَةِ ، وَيَفْتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الشَّدَةِ .

ومن كلامهم : مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، هَانَ عَلَيْهِ دِينُهُ .

وقال أبو علي الروذباري : إِذَا قَالَ الصَّوْفِيُّ بِمَسَدِ خَمْسَةِ أَيَّامٍ : أَنَا جَائِعٌ ، فَالْزَمُوهُ السُّوقَ ، وَزَمُّوهُ بِالْكَسْبِ .

وقال حبيب بن أوس أبو تمام ؛ وَهُوَ يَقْصِدُ غَيْرَ مَا نَحْنُ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَصْلِحُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ :

خُذِي بَعَبَاتٍ عَيْنِكَ مِنْ زَمَائِي	وَسُوْنِي مَا أَرَلْتِ مِنَ الْقِنَاعِ ^(١)
أَقْلِي قَدْ أَخَاقَ بُكَاءُكَ ذَرْمِي	وَمَا ضَلَّاتِ بِنَازِلَةِ ذِرَاعِي
أَلِفَّةَ النَّعِيمِ كَمْ أَفْدَاقِ	أَغْلَلْ فَكَانَ دَاعِيَةَ اجْتِمَاعِ !

(١) ديوانه ٢ : ٣٣٦ ، قال في شرحه . يقول لها : نحى عن عزمي بكاءك . وزمماي اسم من أزممت ، وتنحى بالقناع الذي ألقته عن رأسك .

فليست فرحة الأوبآت إلا لموقوفٍ على ترح الوداع^(١)
 تعجب أن رأت جسي نحلاً كأن المجد يدرك بالصراع^(٢)
 أخو النكبات من بأوى إذا ما أطفئ به إلى خلقٍ وساع^(٣)
 ينيرُ عجاذة في كل فجٍ يهيمُ به عدوُّ بن الرقاع^(٤)
 ابن مع السباع الماء حتى تذاقه السباع من السباع
 وقال أيضاً :

فاطلبُ هدوماً ماثمةً قل واسترِ باليس من تحت الشهاد هجوداً^(٥)
 ما إن ترى الأحساب بيضاً وضحاً إلا بحيث ترى للناس سوداً^(٦)

وجاء في الحديث أن فاطمة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بكسرة خبز ،
 فقال : ما هذه ؟ قالت : قرص خبزته ، فلم تطيب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة ،
 فأكلها ، وقال : « أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث » .
 وكان يقال : ينابيع الحكمة من الجوع ، وكسر عادية النفس بالمجاهدة .

(١) قال في شرحه : « أي لمن يعرف ترح الوداع ، من قولهم : وقفنا فلاناً على أمرى ، فهو موقوف عليه ، أي من لم يجد ألماً للفراق لم يجد فرحاً باللقاء » .
 (٢) الديوان : « توجع أن رأته » .
 (٣) رواية الديوان :

فتى النكبات من بأوى إذا ما أطفئ به إلى خلقٍ وساع

وقال في شرحه : « أطفئ : من قولهم : دابة قطوف ، و يروى : « أطفئ به » . و يروى : « أضف به » .
 يقول : هو صاحب النكبات والشدائد يرتكبها ، وبأوى إلى خلقٍ واسع ؟ إذا ضيق من مذهبها وأطفئ به » .

(٤) في الديوان : « في كل نحر » .

(٥) ديوانه ١ : ٤١٦ ، ٤٢٢ ، قال في شرحه : « أي اطأ بالمركات الأسفار سكناً ودعة فيما بعد ، وبالأرق نوماً . وقوله : « باليس » أي بركوب العيس . ومن تحت الشهاد : أي من تحت الصبر على الشهاد .
 (٦) أي من لم يصبر في معركة الأبطال لم يذكر .

وقال يحيى بن مُعَاذٍ : لو أن الجوعَ يُباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

وقال سهل بن عبدالله : لما خلق الله الدنيا جعل في الشَّبع المصيبة والجهل ، وجعل في الجوع الطاعة والحكمة .

وقال يحيى بن مُعَاذٍ : الجوع للمريدین رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزَّهاد سياسة ، وللعارفين تَكْرِيمَة .

وقال أبو سليمان الدَّاراني : مفتاح الدُّنيا الشَّبع ، ومفتاح الآخرة الجوع .
وقال بعضهم : أدب الجوع ألا ينقص من عادتكَ إلا مثل أذن السَّنَّور ، هكذا على التدرج ، حتَّى تصل إلى ما تريد .

ويقال : إنَّ أبا تراب النَّخعي خرج من البصرة إلى مكة ، فوصل إليها على أكلتين : أكلة بالنَّبَّاج ، وأكلة بذات عرق .

قالوا : وكان سهل بن عبدالله التُّستري إذا جاع قوَّى ، وإذا أكل ضعف .
وكان منهم مَنْ يأكل كلَّ أربعين يوماً أكلة واحدة ، ومنهم مَنْ يأكل كلَّ ثمانين يوماً أكلة واحدة .

قالوا : واشتهى أبو الخير المسقلاني السمكَ سِنين كثيرة ، ثمَّ هبَّأ له أكله من وجهٍ حلال ، فلمَّا مدَّ يده ليأكل أصابت أصبعه شوكة من شوكة السمك ، فقام وترك الأكل ، وقال : ياربُّ ، هذا لمن مدَّ يده بشهوة إلى الحلال ، فكيف بمن مدَّ يده بشهوة إلى الحرام !

وفي الكتاب العزيز : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ ^(١) ، فالجنة الأولى هي التقوى ، والثانية هي المجاهدة .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ وَعُلُولُ الْأَمَلِ ، أَمَا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَمَا عُلُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ » .
وسئل بعضُ الصوفية عن المجاهدة ، فقال : ذَبَحَ النَّفْسَ بِسُيُوفِ الْخَالِقَةِ .
وقال : مَنْ نَجَسَتْ طَوَارِقُ نَفْسِهِ ، أَفَلَتْ شَوَارِقُ أَنَسِهِ .

وقال إبراهيم بن شيبان : مَا بَتَ نَحْتِ سَقْفٍ وَلَا فِي مَوْضِعٍ عَلَيْهِ غَلَقٌ ^(١) أَرْبَعِينَ سَنَةً .
وَكُنْتُ أَشْتَهِي فِي أَوْقَاتٍ أَنْ أَتَنَاوَلَ شُبَّةً ^(٢) حَدِسَ فَلَمْ يَتَّفِقْ ، ثُمَّ جُعِلَتْ إِلَيَّ وَأَنَا بِالشَّامِ غَضَارَةٌ ^(٣) فِيهَا عَدَسِيَّةٌ ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا وَخَرَجْتُ ، فَرَأَيْتُ قَوَارِيرَ مَعْلُوقَةً فِيهَا شَبَّهَ أُنْمُودِجَاتٍ ، فَظَلَمْتُهَا خَلًّا ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : أَنْتَظِرْ إِلَى هَذِهِ وَتَنْظِمًا خَلًّا ! وَإِنَّمَا هِيَ خَمْرٌ ، وَهِيَ أُنْمُودِجَاتُ هَذِهِ الدَّنَانِ - الدَّنَانُ هُنَاكَ - فَقُلْتُ : قَدْ لَزِمَنِي فَرَضُ الْإِنْسَارِ ، فَدَخَلْتُ حَاتُوتَ ذَلِكَ الْخَمَارِ لَا كِسَرَ الدَّنَانِ وَالْجُرَارِ ، فَجِئْتُ إِلَى ابْنِ طُولُونَ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِي مَائَتِي خَشْبَةً ، وَطَرَحَنِي ^(٤) فِي السَّجْنِ ، فَبَقِيتُ مَدَّةً ، حَتَّى دَخَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْوَبَائِيُّ الْمَغْرِبِيَّ أَسَازَ ذَلِكَ الْبَلَدِ ، فَعَلِمَ أَنِّي مَحْبُوسٌ ، فَشَفَعَ فِيَّ ، فَأَخْرَجْتُهُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا وَقَعَ بِصَرِّهِ عَلَيَّ قَالَ : أَيُّ شَيْءٍ فَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : شُبَّةً حَدِسَ وَمَائَتِي خَشْبَةً ، فَقَالَ : لَقَدْ نَجَوْتَ عَجَانًا .

وقال إبراهيم الخواص : كُنْتُ فِي جَبَلٍ ، فَرَأَيْتُ رُؤْمَانًا فَاشْتَهَيْتُهُ ، فَدَنَوْتُ فَأَخَذْتُ مِنْهُ وَاحِدَةً ، فَشَفَقْتُهَا فَوَجَدْتُهَا حَامِضَةً ، فَضَيِيتُ وَتَرَكْتُ الرُّمَانَ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مَطْرُوحًا قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الزَّانِبُونَ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ بِاسْمِي ، فَقُلْتُ : كَيْفَ عَرَفْتَنِي ؟ قَالَ : مَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَرَى لَكَ حَالًا مَعَ اللَّهِ ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَحْمِيَكَ وَيَقِيَكَ مِنْ أَذَى هَذِهِ الزَّانِبِينَ ؟ فَقَالَ : وَأَرَى لَكَ حَالًا مَعَ اللَّهِ ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَقِيَكَ مِنْ شَهْوَةِ الرُّمَانِ ، فَإِنَّ لَذَعَ الرُّمَانِ يَحْدُ الْإِنْسَانَ أَلَمَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَذَعَ الزَّانِبِينَ

(١) الغلق هنا : الباب .

(٢) الشبّة من الطعام : قدر ما يشبع به .

(٣) الغضارة : القصة الكبيرة .

(٤) كذا في ١ ، ولي ب : وطرحني .

يُجِدُ الْإِنْسَانَ أَلَمَهُ فِي الدُّنْيَا ، فَتَرَكَهُ وَمَضَتْ عَلَى وَجْهِهِ .

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطَ : لَا يَمَحُو الشَّهَوَاتُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا خَوْفُ مَرْجِعِ ،
أَوْشَوِّقٍ مَقْلِقِ .

وَقَالَ الْخَلَوَاصُ : مَنْ تَرَكَ شَهْوَةً فَلَمْ يَجِدْ عَوَضَهَا فِي قَلْبِهِ فَهُوَ كَاذِبٌ فِي تَرْكِهَا .

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ التَّزَابُلِيُّ : صَحِبْتُ عَبْدَ اللَّهِ الْمُرُوزِيَّ ، وَكَانَ يَدْخُلُ الْبَادِيَةَ قَبْلَ أَنْ أَصْحَبَهُ
بِلَا زَادٍ ؛ فَلَمَّا صَحِبْتُهُ قَالَ لِي : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ تَكُونُ أَنْتَ الْأَمِيرُ ، أَمْ أَنَا ؟ قُلْتُ : بَلِ
أَنْتَ ، فَقَالَ : وَعَلَيْكَ الطَّاعَةُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَأَخَذَ بِخِلَافَةٍ وَوَضَعَ فِيهَا زَادًا ، وَحَمَلَهَا عَلَى
ظَهْرِهِ ، فَكُنْتُ إِذَا قُلْتُ لَهُ : أَعْطِنِي حَتَّى أَحْمِلَهَا ، قَالَ : الْأَمِيرُ أَنَا ، وَعَلَيْكَ الطَّاعَةُ ، قَالَ :
فَأَخَذَنَا الْمَطَرُ لَيْلَةً ، فَوَقَفَ إِلَى الصَّبَاحِ عَلَى رَأْسِي ، وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ يَمْنَعُ عَنِّي الْمَطَرَ ، فَكُنْتُ
أَقُولُ فِي نَفْسِي : يَا لَيْتَنِي مِتَّ وَلَمْ أَقُلْ لَهُ : أَنْتَ الْأَمِيرُ ! ثُمَّ قَالَ لِي : إِذَا صَحِبْتَ إِنْسَانًا فَاصْحَبْهُ
كَأَنَّ رَأْيَتَنِي صَحْبَتَكَ .

أَبُو الطَّيِّبِ الْمُنْتَنَبِيِّ :

فَرَيْتَنِي أَتَى مَالًا يُقَالُ مِنَ الْمَالِ لَا فَصَبْتُ الْعَلَا فِي الصَّيْفِ وَالسَّهْلِ فِي السَّهْلِ ^(١)
تَرْبِدِينَ إِدْرَاكَ الْعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بَدَّ دُونَ الشَّهْدَمِ مِنْ إِتْرِ النَّهْلِ ^(٢)
وَلَهُ أَيْضًا :

وَإِذَا كَانَتْ النَّفُوسُ كِبَارًا نَعِيتَنِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ ^(٣)
وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَامَةِ : مَنْ لَمْ يَنْفُلْ دِمَاغَهُ فِي الصَّيْفِ لَمْ تَنْفُلْ قِدْرُهُ فِي الشِّتَاءِ .
مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَخْطَارَ ، لَمْ يَنْبُلِ الْأَوْطَارَ .

(١) ديوانه ٣ : ٢٩٠ .

(٢) في الديوان : « تَرْبِدِينَ لَفْيَانَ الْعَالِي » .

(٣) ديوانه ٣ : ٣٤٥ .

إدراك الشول وبلوغ المأمول ، بالصبر على الجوع ، وفقد الهجوع ، وسيلان الدموع .

واعلم أن تقليل المأكول لا يرب في أنه نافع للنفس والأخلاق ، والتجربة قد دلت عليه ، لأننا نرى الكثير من الأكل يفلبه النوم والكسل وبلادة الحواس وتبخر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة ، فتتصاعد إلى الدماغ فتفسد القوى النفسانية . وأيضاً فإن كثرة المأكل كل تزيل الرقة ، وتورث القساوة والسبعية ، والقياس أيضاً يقتضى ذلك ؛ لأن كثرة المزاوالات ، سبب لحصول الملكات ، فالنفس إذا توقرت على تدبير الغذاء وتصريفه ، كان ذلك شغلاً شاغلاً لها ، وعائقاً عظيماً عن انصبابها إلى الجهة الروحانية العالية ، ولكن ينبغي أن يكون تقليل الغذاء إلى حدٍّ يوجب جوعاً قليلاً ، فإن الجوع المفرط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها ، واختلال قواها ، وذلك يقتضى تشويش النفس واضطراب الفكر ، واختلال العقل ، ولذلك نمرض الأخلط السوداوية لمن أفرط عليه الجوع ، فإذاً لا بد من إصلاح أمر الغذاء ، بأن يكون قليل الكمية ، كثير الكيفية ، فتؤثر قلة كميته في أنه لا يشغل النفس بتدبير المضم عن التوجه إلى الجهة العالية الروحانية ، وتؤثر كثرة كميته في تدارك التحلل الحاصل له من قلة الكمية ، ويجب أن يكون الغذاء شديداً الإمداد للأعضاء الرئيسة ، لأنها هي المهمة من أعضاء البدن وما دامت باقية على كمال حالها لا يظهر كثير خلل من ضعف غيرها من الأعضاء .

[فصل في الرياضة النفسية وأقسامها]

واعلم أن الرياضة والجوع هي أمرٌ يحتاج إليه المريد الذي هو بعدُ في طريق السلوك إلى الله .

ويتقسم طالبو هذا الأمر الجليل الشاق إلى أقسام أربعة :
أحدها : الذين مارسوا العلوم الإلهية ، وأجهدوا أنفسهم في طلبها والوصول إلى كنهها ،
بالفطر الدقيق ، في الزمان الطويل ، فهو لا يحصل لهم شوق شديد ، وميلٌ عظيم إلى الجهة
العالية الشريفة ، فيحصلهم حب الكمال على الرياضة .

وثانيها : الأنفس التي هي بأصل الفطرة والجوهر مائلة إلى الروحانية من غير ممارسة
علم ولا دربة بفطر وبحث ، وقد رأينا مثلهم كثيرا ، وشاهدنا قوماً من العامة متى سَمِعَ
لهم سائح مشوق ، مثل صوت مطرب ، أو إنشاد بيت يقع في النفس ، أو سماع كلمة توافق
أمرأ في بواطنهم ، فإنه يستولي عليهم الوجد ، ويشد الحنين ، وتفشاهم غواش لطيفة
روحانية ، يغيبون بها عن المحسوسات والجسمانيات .

وثالثها : نفوس حصلت لها الأمران معاً : الاستعداد الأصلي ، والاشتغال بالعلوم
النظرية الإلهية .

ورابعها : النفوس التي لا استعداد لها في الأصل ولا ارتاضت بالعلوم الإلهية ،
ولكنهم ^(١) قومٌ سمعوا كمال هذه الطريقة ، وأن السعادة الإنسانية ليست إلا بالوصول إليها ،
فالت نحوها ، وحصل لها اعتقاد فيها .

فهذه أقسام المريدين ؛ والرياضة التي تليق بكل واحد من هذه الأقسام غير الرياضة
اللائقة بالقسم الآخر .

ونحتاج قبل الخوض في ذلك إلى تقديم أمرين :

أحدهما : أن النفعات الإلهية دائمة مستمرة ، وأنه كل من توصل إليها وصل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ^(١) وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن ربكم في أيام عصركم نفعات ، ألا فتمرضوا لنفعاته » .

وثانيهما : أن النفوس البشرية في الأكثر مختلفة بالتوابع ، فقد تكون بعض النفوس مستعدة غاية الاستعداد لهذا المطلب ، وربما لم تكن البتة مستعدة له ، وبين هذين الطرفين أوساط مختلفة بالضعف والقوة .

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن القسمين الأولين كما اختلفا فيما ذكرناه لاجرم ، اختلفا في الكسب والمكتسب .

أما الكسب فإن صاحب العلم الأولي به في الأكثر العزلة والانعطاع عن الخلق ، لأنه قد حصلت له الهداية والرشاد ، فلا حاجة له إلى مخالطة أحد يستعين به على حصول ما هو حاصل . وأما صاحب الفطرة الأصلية من غير علم فإنه لا يليق به العزلة ، لأنه يحتاج إلى المعلم والمرشد ، فإنه ليس بكفي الفطرة الأصلية في الوصول إلى العالم الإلهية والحقائق الربانية ، ولا بد من موقف ومرشد في مبدأ الحال ، هذا هو القول في الكسب بالنظر إليهما .

وأما المكتسب ، فإن صاحب العلم إذا اشتغل بالرياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كمية ، وأقل كيفية عما لصاحب الفطرة المجردة ، أما كثرة الكمية ، فلأن قوته النظرية تسببه على ذلك ، وأما قلة الكيفية ، فلأن القوة النفسانية تنوزع على تلك الكثرة ؛ وكلما كانت الكثرة أكثر ؛ كان توزع القوة إلى أقسام أكثر ، وكان كل واحد منها

أضعف مما لو كانت الأقسام أقل عدداً ، وإذا عرفت ذلك عرفت أن الأمر في جانب صاحب الفطرة الأصلية بالعكس من ذلك ، وهو أن مشاهداته ومكاشفاته تكون أقل كمية ، وأكثر كيفية .

وأما الاستعداد الثالث ، وهو النفس التي قد جمعت الفطرة الأصلية والعلوم الإلهية النظرية بالنظر ، فهي لنفس الشريفة الجليلة الكاملة .

وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة في أن رياضتها القلبية يجب أن تكون زائدة في الحكم والكيف على رياضتها البدنية ، لأن الفرض الأصلي هو رياضة القلب وطهارة النفس ، وإنما شرعت الرياضات البدنية ، والعبادات الجسدية ، لتكون طريقاً إلى تلك الرياضة الباطنية ، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرياضة البدنية عبثاً ؛ لأن الوسيلة بعد حصول المقوم إليه فضلة مستغنى عنها ، بل ربما كانت عائقة عن المقصود . نعم لا بد من المحافظة على الفرائض خاصة ، لئلا تمتد النفس الكسل ، وربما أفصى ذلك إلى خلل في الرياضة النفسانية ؛ ولهذا حُكي عن كثير من كبار القوم قلة الاشتغال بنوافل العبادات .

وأما القسم الرابع ، وهو النفس التي خلت عن الوصفين معا ؛ فهذه النفس يجب ألا تكون رياضتها في مبدأ الحال إلا بتهديب الأخلاق بما هو مذكور في كتب الحكمة الأخلاقية ، فإذا لانت ومرت واستعدت للتفحات الإلهية حصل لها ذوق ما ، فأوجب ذلك الذوق شوقاً ، فأقبلت بكليتها على مطلوبها .

[فصل في أنَّ الجوع يؤثر في صفاء النفس]

واعلم أنَّ السَّبب الطبيعي في كون الجوع مؤثراً في صفاء النفس ، أنَّ البلغم الغالب على مزاج البدن يوجب بطنه البِلادة ، وإبطاء القَهم لسكثرة الأرضية فيه ، وثقل جواهره ، وكثرة ما يولد عنه من البخارات التي تسدُّ المجارى ، وتمنع نفوذ الأرواح ، ولا ريب أنَّ الجوع يقتضى تقليل البلغم ، لأنَّ القوة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضه ، عَمِلَتْ في الرطوبة الغريبة السكائنة في الجسد ، فكأنما انقطع الغذاء استمرت عملها في البلغم الموجود في البدن ، فلا تزال تعمل فيه وتُدبِّيه الحرارة السكائنة في البدن ، حتى ينفى كلُّ ما في البدن من الرطوبات الغريبة ، ولا يبقى إلَّا الرطوبات الأصلية ، فإن استمرت انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوة الهاضمة في تنقيص الرطوبات الأصلية من جوهر البدن ؛ فإن كان ذلك يسيراً وإلى حدٍّ ليس بمفرط ، لم يضرَّ ذلك بالبدن كلَّ الإضرار ، وكان ذلك هو غاية الرياضة التي أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليها بقوله : « حتى دقَّ جليله » ولطفٌ غليظه » ، وإن أفرط وقع الخيف والإجفاف على الرطوبة الأصلية ، وعطِبَ البدن ووقع صاحبه في الدَّقِّ والدبول ، وذلك منهىٌ عنه ؛ لأنَّه قتل للنفس ، فهو كمن يقتل نفسه بالسيف أو بالسكين .

[كلام للفلاسفة والحكماء في المكاشفات الناشئة عن الرياضة]

واعلم أنَّ قوله عليه السلام : « وبق له لامعٌ كثير البرق » ، هو حقيقة مذهب الحكماء ، وحقيقة قول الصوفية أصحاب الطريقة والحقيقة ؛ وقد صرح به الرئيس أبو علي ابن سينا في كتاب " الإشارات " فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان : ثم إنَّه

إذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما عَنَّتْ له خُلُسات من إطلاق نور الحق إليه لذينة كأنها بروقٌ تَوَمِّضُ إليه ثم تَحْمَدُ عنه ، وهي التي تَسْمَى عندهم أوقاتا ، وكل وقت يكتنفه وجدٌ إليه ، ووجد عليه . ثم إنه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أَمَعَن في الارتياض ، ثم إنه ليتوغل في ذلك حتى يَفْشَأ في غير الارتياض ، فكلما لَمَح شيئاً عاج منه إلى جانب القدس ، فتذكر من أمره أمراً ففَشِيَهُ غاشٍ ، فيكاد يرى الحق في كل شيء ؛ ولعله إلى هذا الحد تستولى عليه غواشيه ، وزول هو عن سكينته ، ويتنبه جليسه لاستنفاره عن قراره ، فإذا طالت عليه الرياضة لم تستفرغ غاشية ؛ وهُدًى للتأنيس بما هو فيه . ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سَكِينَةً فيصير المخطوب مألوفاً ، والوميض شهاباً يَدْنُو ، ويحصل له معارف مستقرّة ؛ كأنها صحبة مستمرة ؛ ويستمتع فيها بيهجته ، فإذا انقلب عنها انقلب حيران أسفاً .

فهذه أَلْفَاظُ الحَكِيمِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ سِينَا في ” الإشارات “ ، وهي كما نراه مَصْرُوحٌ فيها بذكر البروق اللامعة للعارف .

وقال القشيري في الرسالة أما ذكر الحال والأمر الواردة على العارفين ، قال : هي بروق تلمع ثم تَحْمَدُ ، وأنوار تبدو ثم تَخْفَى ، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها ! ثم تمثل بقول البحتري^(١) :

خَطَرَتْ فِي النَّوْمِ مِنْهَا خَطَرَةٌ خطرة البرق سبداً ثم اضمحل
أَيَّ زَوْرٍ لَكَ لَوْ قَصْدًا سَرَى ومسلم بك لو حقاً فعل

فهو كما نراه يذكّر البروق اللامعة حسناً ذكره الحَكِيمُ ، وكلاهما يتبع ألفاظ أسير المؤمنين عليه السلام ، لأنه حكيم الحكماء . وعارف العارفين ، ومعلم الصوفية ، ولولا أخلاقه

وكلامه وتعليمه للناس هذا الفن تارة بقوله ، وتارة بفعله ، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة ،
ولا علم كيف يُورد ، ولا كيف يصدر .

وقال القشيري أيضا في الرسالة : المحاضرة قبل المكاشفة ؛ فإذا حصلت المكاشفة
فبعدها المشاهدة .

وقال : وهي أرفع الدرجات . قال : فالمحاضرة حضور القلب ، وقد تكون بتواتر
البرهان ، والإنسان بعد وراء الستر ، وإن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر .
وأما المكاشفة فهي حضور البين غير مفتقر إلى تأمل الدليل ، وتطلب السبيل ، ثم
المشاهدة ، وهي وجود الحق من غير بقاء شهمة .

وأحسن ما ذكر في المشاهدة قول الجنيد : هي وجود الحق مع فقدانك .
وقال عمرو بن عثمان المكي : المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلي على القلب من غير أن
يتخللها ستر ولا انقطاع ، كما لو قدر اتصال البرق في الليلة المظلمة ؛ فكما أنها تصير من
ذلك بضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام له التجلي مع النهار فلا ليل .
وأنشدوا شعرا :

كَيْسِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ وَظِلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارٍ
فَالنَّاسُ فِي سَدْفِ الظَّلَامِ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

وقال الثوري : لا تصح للعبد المشاهدة وقد بقي له عرق قائم .

وقالوا : إذا طلع الصباح ، استغنى عن المصباح .

وأنشدوا أيضا :

فَلَمَّا اسْتَنَارَ الصَّبِيحُ طَوَّحَ ضَوْؤُهُ بِأَنْوَارِهِ أَنْوَارَ ضَوْءِ الْكَوَاكِبِ

فجرّهم كأساً لو أبليت لظي بتجرّيه طارت كأسهم ذاهب
كأس وأى كأس ، تصطلمهم عنهم ، وتغنيهم ومخطفهم منهم ولا تقيهم ، كأس لا
تبقى ولا تدّر ، نفعو بالسكّية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية ، كما قال قائلهم :
• ساروا فلم يبق لا عين ولا أثر ^(١)

وقال القشيري أيضاً : هي ثلاث مراتب : اللوامح ، ثم اللوامع ، ثم الطوالع . فاللوامح
كالبروق ؛ ما ظهرت حتى استترت ، كما قال القائل :

فافترقنا حولاً فلما التقينا كأن تسليمه على وداعا
وأنشدوا :

يا ذا الذي زار وما زارا مكانه مقتبس ناراً
مر بيّاب الدار مستعجلاً ماضراً لو دخل الداراً
ثم اللوامع ، وهي أظهر من اللوامح ؛ وليس زوالها بتلك السرعة ؛ فقد تبقى وقتين
وثلاثة ، ولكن كما قيل :

• العين باكية لم تشيع النظرا •

أو كما قالوا :

وبلأني من مشهدٍ ومغيّبٍ وحبيبٍ متى بعيدٍ قريبٍ
لم ترّد ماء وجه العين حتى شرفت قبل ريثها برقيب
فأصحاب هذا المقام بين رّوح وفّوح ؛ لأنهم بين كشف وستريّ لم يقطع ، لا يستقر
لهم نور النهار ؛ حتى تكرّ عليه عساكر الليل ، فهم كما قيل :

والليلُ يشعلنا بضائل برّده والصبح بلحقنا رداء مذهباً
ثم الطوالع ؛ وهي أبقي وقتاً ، وأقوى سلطاناً ، وأدوم مكاناً ، وأذهب لظلمة ،
وأنقى للهبة ^(٢) .

(١) الرسالة القشيرية ٤٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ٤٣ ، ٤٤ .

أفلا ترى كلام القوم كله مشحون بالبرق واللعان !
وكان مما تم حامد بن العباس وزير المقتدر وعلی بن عيسى الجراح وزيره أيضاً على
الحلاج أنهما وجدا في كتبه لفظ « النور الشمعاني » ، وذلك لجهالتهم مراد القوم
واصطلاحهم ، ومن جهل أمرا عاده .

ثم قال عليه السلام : « وتدافعه الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة » ، أي لم يزل
ينقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه ، حتى وصل ، وتلك المقامات معروفة عند
أهلها ، ومن له أنس بها ، وسند كرها فيما بعد .

ثم قال : « وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى
ربه » ، أي كانت الراحة الكلية والسعادة الأبدية مستمرة من ذلك النعم الذي تحمله
لما استعمل قلبه ، وراض جوارحه ونفسه ، حتى وصل ، كما قيل :

عِنْدَ الصُّبْحِ بِحَمْدِ الْقَوْمِ السُّرَى وَتَنْجَلِي عَنَّا غِيَابَاتُ السُّرَى^(١)

وقال الشاعر :

تَقُولُ سُلَيْمَى لَوَاقِمْتَ بَارِضَنَا وَلَمْ تَدْرِ إِنِّي لِلْعَاقِمِ أَطْوَفُ

وقال آخر :

مَا بِيضَ وَجْهِ لُورٍ فِي طَلَبِ الْعَلَا حَتَّى يَسُودَ وَجْهُهُ فِي الْبَيْدِ

وقال :

فَاطْلُبْ هُدُوءًا بِالْفُتُلُقْلِ وَاسْتَشِرْ بِالْعَيْسِ مِنْ تَحْتِ السَّهَادِ هَجُودًا^(٢)

مَا إِنْ تَرَى الْأَحْسَابَ بَيْضًا وَضَحًا إِلَّا بِحَيْثُ تَرَى الْمَسَايَا سَوْدَا

(١) مثل يضرب للرجل يحمل الشقة رجاء الراحة ؛ وأول من قاله خالد بن الوليد في أبيات ذكرها
الميداني عند الكلام على مضرب المثل ومورده : (٢ : ٢) .

(٢) لأبي تمام ، ديوانه ١ : ٤١٦ .

(٢١٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام بحث فيه أصحابه على الجهاد :

وَاللَّهُ مُتَنَادِبُكُمْ شُكْرَهُ ، وَمُورِثُكُمْ أَمْرَهُ ، وَنُصْرَتُكُمْ فِي مِضَارٍ مَمْدُودٍ
لِتَنْفَازِعُوا سَبْقَهُ . فَشَدُّوا عُقْدَ الْمَآزِرِ ، وَاطَّوُّوا فَضُولَ الْخَوَاصِرِ ، لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ
وَوَلِيمَةٌ . مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ ، لِمَزَانِمِ الْيَوْمِ ، وَأَمَحَى الظُّلَمَ ، لِقَذَا كَبِيرِ الْمِثْمِ .



الشرح :

مستأدبكم شكره ، أى طالب منكم أداء ذلك والقيام به ، استأدبت ديتى عند
فلان ، أى طلبته .

وقوله : « ومورثكم أمره » ، أى سيرجع أمر الدولة إليكم ، ويحول أمر بني أمية .
ثم شبه الآجال التى ضربت للمكلفين ليقوموا فيها بالواجبات ، ويتسابقوا فيها إلى
الخيرات ، بالمضار المدود لخليل تنفازع فيه سبق .

ثم قال : « فشدوا عقد المآزر » ، أى شتموا عن ساق الاجتهاد . ويقال لمن يوصى
بالجد والتشمير : اشدد عقدة إزارك ، لأنه إذا شدها كان أبعد عن العثار ،
وأسرع للمشي .

قوله : « واطووا فضول الخواصر » ، نهى عن كثرة الأكل ، لأن الكثير الأكل
لا يطوى فضول خواصره لامتلائها ، والقليل الأكل يأكل فى بعضها ويطوى بعضها ،
قال الشاعر :

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ وَعَفُوا فَإِنْ زَمَانَكُمْ زَمَنْ خَيْمُ
وَقَالَ أَعَشَى بَاهِلَةٌ :

طَاوَى الْمَصِيرِ عَلَى الْعِزَاءِ مُنْصَلَّتْ^(١) بِالْقَوْمِ لَيْلَةً لَا مَاءَ وَلَا شَجَرَ^(٢)
وَقَالَ الشَّنْفَرَى :

وَأَطَاوَى عَلَى الْخُمْسِ الْحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطُهُ مَارِي تَفَارٍ وَتَفْتَل^(٣)

• • •

نَمِ أَنَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِثَلَاثَةِ أَمْثَالٍ مَخْرُوعَةٍ لَهُ لَمْ يَسْبِقْ بِهَا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ سَبَقَ بِمَعْنَاهَا ،
وَهِيَ قَوْلُهُ : « لَا يَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيَّةٌ » . وَقَوْلُهُ : « مَا أَنْقَضَ الْقَوْمَ الْعِزْمُ الْيَوْمَ ! » . وَقَوْلُهُ :
« وَأَتَمَّحَى الظُّلْمَ لِيَذَا كَبِيرِ الْمَهْمِ ! » .

فَمَا جَاءَ الْمُحَدِّثِينَ مِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ إِلَى وَلَدِهِ :

خِدْمَةُ السُّلْطَانِ وَالْكَاسَاتِ فِي أَيْدِي الْمَلَّاحِ
لَيْسَ بِلَتَامَاتٍ قَاطِلِبِ رَقْمَةٍ أَوْ شَرْبِ رَاحِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخِرِ لَوْلَدِهِ :

مَا لِلْمَطِيحِ هَوَاءٌ مِنْ الْمَلَامِ مَلَاذُ
فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ هَذَا تَجِدُ ، وَهَذَا التِّدَاذُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَلَيْسَ فَتَى الْفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ وَاعْتَدَى لَشَرْبِ صَبُوحٍ أَوْ لَشَرْبِ غُبُوقِ
وَلَكِنْ فَتَى الْفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ وَاعْتَدَى لَضَرْبِ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقِ

(١) السَّكَامِلُ لِلْمَبْرَدِ ٤ : ٦٥ ، قَالَ فِي شَرْحِهِ : « طَاوَى الْمَصِيرِ » يَقَالُ لِوَاحِدِ الْمَصْرَانِ مَصِيرٌ ،
وَالْعِزَاءُ : الْأَمْرُ الشَّدِيدُ ، يَقَالُ : سَيْفٌ مُنْصَلَّتْ وَصَلَتْ ؟ إِذَا جَرَدَ مِنْ غَمْدِهِ .
(٢) مِنْ لَامِيَّتِهِ ؟ وَهِيَ فِي نَوَادِرِ الْفَالِ ٢٠٣ - ٢٠٧ .
(٣)

وهذا كثير جدا يناسب قوله : « لا تجتمع عزيمة وولية » .

ومثل قوله : « ما أنقض النوم لمزاحم اليوم » قول الشاعر :

فَتَى لَا يَنَامُ عَلَى عَزِيمِهِ وَمَنْ صَعَّمَ الْعَزَمَ لَمْ يَرْقُدِ

وقوله : « وأحصى الظلم لهذا كير الهم » ، أى الظلم التى ينام فيها ، لا كل الظلم ، الأ ترى

أنه إذا لم ينام فى الظلمة بل كان عنده من شدة العزم وقوة التصميم مالا ينام معه ، فإن الظلمة لا تمحو هذا كير همه . والتذا كير : جمع تذكار .

والثلان الأولان أحسن من الثالث ، وكان الثالث من تنمة الثانى .

وقد قالت العرب فى الجاهلية هذا المعنى ، وجاء فى القرآن العزيز : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَأَمَّا بَأَنْتُمْ مِثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ

وَذُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ

قَرِيبٌ ۝ ^(١)

وهذا مثل قوله : « لا يجتمع عزيمة وولية » ، أى لا يجتمع لكم دخول الجنة والدعة ،

والقعود عن مشقة الحرب .

(٢١٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قال بعد تلاوته : ﴿ أَلْهَاكُمْ النَّكَارُ • حَتَّى زُرْتُمْ

الْقَابِرَ ﴾ .

يَا لَهْ مَرَامًا مَا أَبَدَهُ ! وَزُورًا مَا أَغْفَلَهُ ! وَخَطَرًا مَا أَفْظَعَهُ ! لَقَدْ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيْ
مَذَكِرَ ، وَتَفَاوَشَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

أَفَبِمَصَارِيحِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلَكِيِّ يَتَكَاثَرُونَ !



الشرح :

قد اختلف للفسرون في تأويل هاتين الآيتين ، فقال قوم : المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم
في النكاثِر بالأموال والأولاد ، حتى أناكم الموت ، فكفى عن حلول الموت بهم
بزيارة المقابر .

وقال قوم : بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم ، وتمدى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم
الأموات ، فقالوا : منّا فلان وفلان - لقوم كانوا وانقرضوا .

وهذا هو التفسير الذي يدل عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، قال :
« يَا لَهْ مَرَامًا ! » ، منصوب على التمييز .

ما أبده ! أي لا نفخر في ذلك ، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد ؛ وإنما الفخر بتقوى
الله وطاعته .

وزوراً ما أغفله ! إشارة إلى القوم الذين افتخروا ؛ جعلهم بتذكر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم . والزور : اسم للواحد والجمع ، كالتخضم والضيف . قال : ما أغفلهم عما يراد منهم ! لأنهم تركوا العبادة والطاعة ، وصرموا الأوقات بالفاخرة بالموتى .

ثم قال : « وخطراً ما أفضاه » إشارة إلى الموت أى : ما أشده أفضع الشئ بالضم ، فهو فظيع ، أى شديد شنيع مجاوز للمقدار .

قوله : « لقد استخلّوا منهم أى مذكر » ؛ قال الراوندى : أى وجدوا موضع التذكّر خالياً من الفائدة ، وهذا غير صحيح ، وكيف يقول ذلك وقد قال : « وخطراً ما أفضاه » وهل يكون أمراً عظيماً تذكيراً من الاعتبار بالموتى أو الصحيح أنه أراد : « استخلّوا » ذكر من خلا من آبائهم ؛ أى من مضى ، يقال : هذا الأمر من الأمور الخالية ، وهذا القرن من القرون الخالية ، أى الماضية .

واستخلى فلان فى حديثه ؛ أى حدث عن أمور خالية ، والمعنى أنه استعظم ما يوجب حديثهم عما خلا وعمن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير ، فقال : أى مذكر^(١) وواعظ فى ذلك ! وروى أى مذكر بمعنى المصدر ، كالمعتد بمعنى الاعتقاد ، والمعتبر بمعنى الاعتبار .

« وتناولوهم من مكان بعيد » أى تناولوهم ، والمراد ذكرهم وتحدثوا عنهم ؛ فكأنهم تناولوهم ، وهذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾^(٢) ؛ وأنى لهم تناول الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر !

• • •

الأصل :

يَرْتَجِعُونَ^(١) مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوَتْ ، وَحَرَكَاتٍ سَكَتَتْ . وَلَآنَ يَكُونُوا عِبْرًا ،
أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَرًا ؛ وَلَآنَ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ ، أَحَبُّ مِنْ
أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ .

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْمَشَوَّةِ ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي عَمْرٍاءِ جَهَالَةٍ .
وَلَوْ اسْتَفْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَلَاوِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَلَالِيَةِ ، لَقَالَتْ :
ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا ، وَذَهَبْتُمْ فِي أَغْقَابِهِمْ جُهَالًا ، تَطْتُونُ فِي هَامِهِمْ ، وَتَسْتَفْطِئُونَ
فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَتَرْتَمُونَ فِيهَا لَفَافُوا ، وَتَسْكُنُونَ فِيهَا خَرَبُوا ؛ وَإِنَّا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ بَوَالِيْدُ نَوَاحٍ عَلَيْكُمْ .

أَوَّلِيكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ ، وَفُرَاطُ مَنَاهِلِكُمْ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ ،
وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ مُلُوكًا وَسُوفًا .

الشرح :

« يرتجعون منهم أجسادا » ، أى يذكرون آياهم ، فكأنهم ردوهم إلى الدنيا ،
وارتجعوا من القبور . وخَوَتْ : خلت .

قال : وهؤلاء الموتى أحقُّ بأن يكونوا عبرة وعظة من أن يكونوا نفرا وشرفا ،
والمتفخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الذلَّة منهم بالقيام مقام العزِّ .
وتقول : هذا أحبُّ من قلان ، أى أولى وأجدر . والجَنَاب : الفناء .

(١) ب : « يرتجعون » .

ثم قال : « لقد نظروا إليهم بأبصار المشوة » ، أى لم ينظروا النظر القضي إلى الرؤية ؛ لأن أبصارهم ذات عشوة ، وهو مرض في العين ينقص به الإبصار ، وفي عين فلان عشاء وعشوة بمعنى ، ومنه قيل لكل أمر ملبس بركبه الرأكب على غير بيان أمر عشوة ، ومنه أو طأنتي عشوة ، ويجوز بالضم والفتح .

قال : « وضربوا بهم في غمرة جهالة » ، أى وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى في بحر جهل . والضرب هاهنا : استعارة ، أو يكون من الضرب بمعنى السير ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) ، أى خاضوا وسبحوا من ذكرهم في غمرة جهالة ، وكل هذا يرجع إلى معنى واحد ، وهو تسفيه رأى المفتخرين بالموتى ، والقاطمين الوقت بالتكاثر بهم ؛ إعراضاً عما يجب إنفاقه من العمر في الطاعة والعبادة .

ثم قال : « لو سألوا عنهم ديارهم التي خلت منهم » ، ويمكن أن يريد بالديار والربوع القبور ، « لقات ذهبوا في الأرض ضللاً » ، أى هالكين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ^(٢) .

وذهبهم في أعقابهم ؛ أى بعدهم « جهالا » ؛ لنفلكم وغروركم .

قوله عليه السلام : « تطئون في هامهم » ، أخذ هذا المعنى أبو العلاء المبرسي ؛ فقال :

خَفَّ الوَطءُ مَا أَظَنَ أَدِيمَ ۖ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ ^(٣)
رَبِّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لِحْدًا مِرَارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاهُمِ الْأَضْدَادِ

(١) سورة النساء ١٠١ .

(٢) سورة السجدة ١٠ .

(٣) ديوانه ؛ سقط الزند ٩٧٤ ، ٩٧٥ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات وأديم الأرض : ظاهرها .

ودفين على بقايا دفين من عهود الآباء والأجداد^(١)
صاح هذى قبورنا تملاً الأزض ، فأين القبور من عهد عاد^(٢)
سِر إن اسطمت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات البعاد
قوله : « وتستنبتون في أجسادهم » ، أى تزرعون النبات في أجسادهم ، وذلك لأن آدم
الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى ، فالزرع لا محالة يكون نابثاً في الأجزاء الترابية
التي هي أبدان الحيوانات . وروى : « وتستنبتون » ، بالثاء ؛ أى وتنصبون الأشياء الثابتة
كالعمد والأساطين للأوطان في أجساد الموتى .

ثم قال : « وترتمون فيما لفظوا » ، لفظت الشيء بالفتح : رميته من فى ، ألفظه
بالكسر ، ويجوز أن يريد بذلك أنكم تأكلون ما خففوه وتركوه . ويجوز أن يريد
أنكم تأكلون الفواكه التي تنبت في أجزاء ترابية خالطها الصديد الجارى
من أفواههم .

ثم قال : « وتسكنون فيما خربوا » ، أى تسكنون في المساكن التي لم يعمروها بالذكور
والعبادة ، فكأنهم أخربوها في المعنى ، ثم سكنتم أنتم فيها بعدهم . ويجوز أن يريد أن
كل دار عامرة قد كانت من قبل خربة ، وإنما أخربها قوم بادوا وماتوا ، فإذا لساكن
منا في عمارة إلا ويصدق عليه أنه ساكن فيما قد كان خراباً من قبل ، والذين أخربوه
الآن موتى . ويجوز أن يريد بقوله : « وتسكنون فيما خربوا » ؛ وتسكنون في دور فارقتها
وأخلوها ، فأطلق على اخلوها والقراغ لفظ « الخراب » مجازاً .

قوله : « وإنما الأيام بينكم وبينهم بوائس ونوائس عليكم » ؛ يريد أن الأيام والليالي
تشتع رائحة إلى المقابر وتبكي وتنوح على الباقين الذين سيلتحقون به عن قريب .

(١) الديوان :

• في طوبل الأزمان والآباد •

(٢) الديوان : « تملاً الرعب » .

قوله : « أولئك سلف غايبتكم » ، السلف : المتقدمون ، والغاية : الحد الذي ينتهى إليه . إما حسيًا أو معنويًا ، والمراد هاهنا الموت .
والفرط : الفوم يسبقون الحى إلى السهل .
ومقاوم العز : دطامه ، جمع مقوم ، وأصلها الخشبة التى يمسكها الحراث . وحلبات الفخر : جمع حلبه ، وهى الخيل تجمع للسباق .
والسوق ، بفتح الواو : جمع سوقة ؛ وهو من دون الملك .

الأصل :

سَلَكُوا فِي بَطُونِ الْبَرْذَخِ سَبِيلًا سُلْطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَأَكَلَتْ مِنْ لَحْمِهِمْ ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنْشُونَ ، وَضِمَارًا لَا يُوجَدُونَ ؛ لَا يَقْرِعُهُمْ وَرُودُ الْأَهْوَالِ ، وَلَا يَحْزَنُهُمْ تَفَكُّرُ الْأَحْوَالِ ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ . غَيْبًا لَا يَنْتَظِرُونَ ، وَشُهُودًا لَا يَحْضُرُونَ ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَذَشَّتُوا ، وَأَلْفًا فَافْتَزَعُوا .

وَمَا عَنْ طُولِ عَمْدِهِمْ ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ ، وَصَمَتْ دِيَارُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأَسَا بَدَاتِهِمْ بِالْإِثْقَانِ خَرَسًا ، وَبِالسَّعْرِ صَمًّا ، وَبِالْخَرَكَاتِ سُكُونًا ، فَكَأَنَّهُمْ فِي أَرْجَائِلِ الصَّفَةِ صَرَعَى سُبَاتٍ .

جِيرَانٌ لَا يَتَأَنُّونَ ، وَأَحِبَّاءٌ لَا يَتَزَاوَرُونَ . بَلِيَّتٌ ^(١) بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ ، وَأَنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِحْسَاءِ ؛ فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ ، وَبِحَايِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَاءٌ .

لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا ، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً . أَيْ الْجَدِيدَيْنِ ظَلَعُوا فِيهِ كَانَ

(١) كذا فى ١ ، ن ب : « بليت » .

عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا ، شَاهَدُوا مِنْ أخطارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا ، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ
مِمَّا قَدَّرُوا ، فَكَلَّا الْفَاتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءٍ فَأَنْتَ مَبَايِغَ الْخُوفِ وَالرَّجَاءِ .

فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَابَهُوا . وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ
وَأَهْطَمَتْ أَخْبَارُهُمْ ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبَرِ ، وَتَمِيَّتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ ،
وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ ، فَقَالُوا : كَلَمَحَتْ الْجُوهُ النَّوَاضِرُ ، وَخَوَتْ الْأَجْسَامُ
النَّوَاعِمُ ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبَلَى ، وَتَكَاءَ دَنَا ضَيْقُ اللَّضْجِ ، وَتَوَارَيْنَا الْوَحْشَةَ ،
وَتَهَدَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّبُوتُ ، فَأَنَمَحَتْ تَحَايِنُ أَجْسَادِنَا ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ
صُورِنَا ، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِينِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا ، وَلَمْ تَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجًا ، وَلَا مِنْ
ضَيْقٍ مُتَسَمًا .

فَلَوْ مَنَّتَهُمْ بِمَقْلِكَ ، أَوْ كَشَفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْإِطْلَاءِ لَكَ ، وَقَدْ أُرْتَسَخَتْ
أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَسَكَّتْ ، وَاسْتَحَلَّتْ أَبْصَارُهُمْ بِالثَّرَابِ فَخَسَفَتْ ، وَقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُ
فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَالَتِهَا ، وَهَدَّتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ بَقْطَتِهَا ، وَهَاتَتْ فِي كُلِّ
جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدًا إِلَى تَمَجُّجِهَا ، وَسَهَّلَ طَرُقَ الْآفَةِ إِيَّاهَا . مُسْتَسِدَاتٍ فَلَا أَبَدَ
تَدْفَعُ ، وَلَا قُلُوبٌ تَجَزَّعُ - لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ ، وَأَقْدَاءَ عِيُونٍ ، لَهُمْ فِي كُلِّ
فَطَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي .

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ ، وَأَنْبَقَى لَوْحٌ ؛ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَدِيٌّ تَرَفَّ
وَرَبِيبٌ شَرَفٍ ؛ يَتَعَلَّلُ بِالشَّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ ، وَيَفْزَعُ إِلَى السُّلُوءِ إِذَا مُصِيبَةٌ
نَزَلَتْ بِهِ ؛ ضَنَا بِمَضَارَةِ عَيْشِهِ ، وَشَهَاةٍ بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا
وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ ؛ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ ؛ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ ، وَخَضَّتِ الْأَيَّامُ
قَوَاهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْخُوفُ مِنْ كَشْبٍ ؛ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَمُرُّهُ ، وَنَجَى هَمٌّ

مَا كَانَ يَجِدُهُ ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ قَتَرَاتٌ عِلَلٌ ، آتَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ . فَقَرَعَ إِلَى مَا كَانَ
عَوْدَهُ الْأَطْيَبُ مِنْ نَسَكِينَ الْحَارِّ بِالْقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ
إِلَّا ثَوْرَ حَرَارَةٍ ، وَلَا حَرَكَةَ بَحَارٍ إِلَّا هَمِيجَ بُرُودَةٍ ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَازِجٍ لِتِلْكَ
الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدٌ مِنْهَا كُلُّ ذَاتٍ دَاهٍ ؛ حَتَّى قَتَرَ مُعَلَّهُ ، وَذَهَلَ مُرَّضُهُ ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ
بِصِفَةِ دَائِهِ ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَيْئًا خَيْرَ يَكْتُمُونَهُ ؛
فَقَالُوا : هُوَ لَمَّا بِهِ ؛ وَبِمَنْ لَهُمْ إِيَابٌ عَافِيَتِهِ ، وَمُصِيبٌ لَهُمْ قَلْبُهُ ، يَذْكُرُهُمْ أُنْسَى
الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ .

فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا ؛ وَتَرَكَ الْأَحِبَّةَ ؛ إِذْ عَرَضَ لَهُ
عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ ، فَتَحَبَّرَتْ نَوَافِدُ فِطْنَتِهِ ، وَبَدَيْتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ .
فَكَمَ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ قَمَى عَنْ رَدِّهِ ؛ وَدُعَاءُ مُوَالِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ
فَنَصَّمَ عَنْهُ ؛ مِنْ كَبِيرٍ كَانَ بُعْظُهُ ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ بَرَحُهُ .
وَأَنَّ لِلْمَوْتِ لَعْمَرَاتٍ هِيَ أَفْطَحُ مِنْ أَنْ تَسْتَمْرِقَ بِصِفَةٍ ، أَوْ تَتَمَدَّلَ عَلَى
عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا .

الشرح :

هذا موضع المثل : « ملأ^(١) باظلم وإلا فالخوبة » ، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْظَ وَيَخُوفَ ،
وَيَقْرَعَ صَفَاةَ الْقَلْبِ ، وَيَعْرِفَ النَّاسَ قَدْرَ الدُّنْيَا وَتَصَرُّفَهَا بِأَهْلِهَا ، فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ
فِي مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ الْفَصِيحِ وَإِلَّا فَلْيَمْسِكْ ، فَإِنَّ السَّكُوتَ أَسْرَ ، وَالْعَيْ خَيْرٌ مِنْ
مَنْطِقٍ يَفْضَحُ صَاحِبِهِ . وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْفَصْلَ ، عِلْمَ صَدَقِ مَعَاوِيَةُ فِي قَوْلِهِ فِيهِ : « وَاللَّهِ مَا سَنَ

(١) الملأ : السير السريع ، ويقال : خوى الطائر ؛ إِذَا أُرْسِلَ جَنَاحُهُ .

الفصاحة لقريش غيره . وينبئني لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس ، وتلى عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى بن الرقاع :

• قلم أصاب من الذروة مدادها ^(١) •

فلما قيل لهم في ذلك ، قالوا : إنا نعرف مواضع السجود في الشعر ؛ كما نعرفون مواضع السجود في القرآن .

وإني لأطيل التمتع من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أن طبعه مناسب لطباع الأسود والنمور وأمثالها من السباع الضارية ، ثم يخطب في ذلك الموقف بعيدة ، إذا أراد الموعظة بكلام يدل على أن طبعه مشا كل لطباع الرهبان لا يسي للسوح الذين لم يأكلوا الحما ، ولم يربقوا دما ؛ فتارة يكون في صورة بسطام بن قيس الشيباني وعُتَيْبَةُ ابن الحارث اليربوعي ، وعامر بن الطفيل العامري ، وتارة يكون في صورة سُقْرَاط الخُبَرِ اليوناني ، ويوحنا المعمدان الإسرائيلي ، والمسيح بن مريم الإلهي .

وأقسم بمن تقسم الأم كلها به ؛ لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ، ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظماً ، وأثَّرت في قلبي وجيباً ، وفي أعضائي رعدة ، ولا تأملتُها إلا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي ، وأرباب ودي ، وخيلت في نفسي أي أنا ذلك الشخص الذي وصف عليه السلام حاله . وكما قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى : وكم وقفت على ما قالوه وتكرَّر وقوفي عليه ! فلم أجِدْ شيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي ؛ فإمَّا أن يكون ذلك لمقيدتي في قائله ، أو كانت نية الفائل صالحة ، ويقينه كان ثابتاً ، وإخلاصه كان محضاً

(١) صدره :

• تَرْجِي أَعْن كَانَ لِمِرَّة رَوْقَه •

خالصا ، فكان تأثير قوله في النفوس أعظم ، وسريان موعظته في القلوب أبلغ .

ثم نعود إلى تفسير الفصل :

قالبرزخ : الحاجز بين الشيتين ، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ، فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع القبر ، لأنه حاجز بين الميت وبين أهل الدنيا ، كالحائط المبنى بين اثنين ، فإنه برزخ بينهما ، ويجوز أن يريد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور ، والأول أقرب إلى مراده عليه السلام ، لأنه قال : « في بطون البرزخ » ولفظه « البطون » تدل على التفسير الأول . ونفقتا « أسكت الأرض من لحومهم وشربت من دماهم » مستعارتان .

والفجوات : جمع فجوة وهي الفرجة المنسمة بين الشيتين ، قال سبحانه : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ ^(١) ؛ وقد تفاجى الشيء إذا صارت له فجوة .

وجادا لا ينسون ، أى خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجاد الذي لا ينسى ولا يزيد . وبرى : « لا ينسون » بتشديد اليم ، من التهمة وهي الهنس والحركة ، ومنه قولهم : أسكت الله فائقه ، فى قول من شدد ولم يهمز .

وضيارا ، يقال لسكر مالا يرجى من الدين والوعد ، وكل مالا تكون منه على ثقة : ضيار .

ثم ذكر أن الأحوال الحادثة فى الدنيا لا تنفعهم ، وأن تنسكر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لا يمحزنهم . وبرى « تُمحزنهم » على أن الماضى رباعى .

ومثله قوله : « لا يمحزنون بالرواجف » أى لا يكثرثون بالزلازل .

قوله : « ولا يَأْذُنُونَ لِلْقَوَاصِفِ » أى لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لكذاء، أى سمعته .

وجمع النائب غَيْبٌ وَغَيْبٌ ، وكلاهما مرويٌّ هاهنا، وأراد أنهم شهود في الصورة، وغير حاضرين في المعنى .

والآف ، على فَمَالٍ : جمع آف ؛ كالطَّرَاقِ جمع طَارِق ، والثَّنَار : جمع سَاسِر ، والكُفَّار جمع كَافِر .

ثم ذكر أنه لم تَمَّ أخبارهم ، أى لم تستبهم أخبارهم وتقطع عن بعد عهد بهم ، ولا عن بعد منزل لهم ، وإنما سَقَوْا كَأْسَ المَذْنُونِ التى أخربتهم بعد النطق ، وأصمَّتْهُمْ بعد السمع ، وأصمَّتْهُمْ بعد الحركة .

وقوله : « وبالسَّمْعِ صَمًا » ، أى لم يسموا فيها نداء المَنَادِ ، ولا نوح النَّائِحِ ، أو لم يسمع في قبورهم صوت منهم .

قوله : « فَكَأَنَّهُمْ فِي أَرْجَالِ الصَّفَةِ » ، أى إذا وصفهم الواصف مرتبلا غير متروك في الصفة ، ولا منهي للقول .

قال : « كَأَنَّهُمْ صَرَعَى سُبَات » ؛ وهو نوم ؛ لأنه لا فرق في الصورة بين المَيِّتِ حال موته والنائم المسبوت .

ثم وصفهم بأنهم جيران إلّا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا ، وأنهم أحياء إلّا أنهم لا يتزاورون كالأحياء من أهل الدنيا .

وقوله « أحياء » جمع حبيب ، كخليل وأخلاء ، وصديق وأصدقاء .

ثم ذكر أن عُرَا التعارف قد بليت منهم واقطعت بينهم أسباب الإخاء ؛ وهذه كلها استعارات لطيفة مستعسنة .

ثم وصفهم بصفة أخرى ، فقال : كل واحد منهم موصوف بالوحدة ؛ وهم مع ذلك مجتمعون ، بخلاف الأحياء الذين إذا انضم بعضهم إلى بعض انقضى عنه وصف الوحدة .

ثم قال : « وبجانب الهجر وهم أخلاء » أى وكل منهم فى جانب الهجر وهم مع ذلك أهل خلة ومودة ، أى كانوا كذلك . وهذا كله من باب الصنعة المعنوية ، والمجاز الرشيق .
ثم قال : إنهم لا يعرفون للنهار ليلاً ولاليل نهاراً ، وذلك لأن الواحد من البشر إذا مات نهاراً لم يعرف لذلك النهار ليلاً أبداً ، وإن مات ليلاً لم يعرف لذلك الليل صباحاً أبداً . وقال الشاعر :

لا بد من يوم بلا ليلة أو ليلة تأتى بلا يوم .

وليس المراد بقوله : « أى الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سمرمدا » أنهم وهم موتى يشعرون بالوقت الذى ماتوا فيه ولا يشعرون بما يتعقبه من الأوقات ، بل المراد أن صورة ذلك الوقت لو بقيت عندهم ل بقيت أبداً من غير أن يزولها وقت آخر يطراً عليها . ويجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقاء الأنفس ، فيقال : إن النفس التى تفارق ليلاً تبقى الصورة الليلية والظلمة حاصلة عندها أبداً لا تزول بطرآن نهار عليها ، لأنها قد فارقت الحواس ، فلا سبيل لها إلى أن يرسم فيها شيء من المحسوسات بعد المفارقة ، وإنما حصل ما حصل من غير زيادة عليه ، وكذلك الأنفس التى تفارق نهاراً .

[بعض الأشعار والحكايات فى وصف القبور والموتى]

واعلم أن الناس قد قالوا فى حال الموتى فأكثرُوا ؛ فمن ذلك قول الرضى أبى الحسن رحمه الله تعالى :

أَعِزُّ عَلَى بَأْنٍ نَزَلَتْ بِمَنْزِلِ مُتَشَابِهِ الْأَنْجَادِ بِالْأَوْغَادِ (١)
 فِي عَصْبَةٍ جُنُبُوا إِلَى آجَالِهِمْ وَاللَّهْرِ بِمَجْلِهِمْ عَنِ الْإِرْوَادِ
 ضَرَبُوا بِمَدْرَجَةِ الْفَنَاءِ قَبَائِلَهُمْ مِنْ غَيْرِ الْمُنَابِ وَلَا أَعْمَادِ
 رَكِبْتُ أَنَاخُوا لَا يُرْجَى مِنْهُمْ قَصْدُ لِيْنِهِمْ وَلَا إِنْجَادِ
 كَرِهُوا النَّزُولَ فَأَزَلْنَاهُمْ وَقَصَّةً لِلَّهِ بَارَكَةٌ بِكُلِّ مَفَادِ
 قَهَقَرُوا عَنْ رَحْلِ كُلِّ مَذَلٍّ (٢) وَتَطَاوَحُوا عَنْ سَرَجِ كُلِّ جَوَادِ
 بَادُونَ فِي صُورِ الْجَمِيعِ وَأَنَّهُمْ مَتَرَدُّونَ تَفَرَّدَ الْآحَادِ

قوله : « بَادُونَ فِي صُورِ الْجَمِيعِ » مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام :

« فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَمَجْمُوعٌ » .

وقال أيضا :

وَلَقَدْ حَفِظْتُ لَهُ قَائِنَ حِفَاظُهُ وَلَقَدْ وَفَيْتُ لَهُ قَائِنَ وَقَاؤُهُ (٣)
 أَوْعَى الدَّعَاءِ فَلَمْ يَجِبْهُ قَطِيعَةٌ أَمْ ضَلَّ عَنْهُ مِنَ الْبِعَادِ دَعَاؤُهُ
 هِيَاتَ أَصْبَحَ سَمْعُهُ وَعِيَانُهُ فِي التَّرَبُّدِ قَدْ حَجَبَتْهُمَا أَقْدَاؤُهُ
 يَمْسَى وَلَيْنُ مِهَادِهِ حَصْبَاؤُهُ فِيهِ ، وَمَوْئِسُ لَيْلِهِ ظُلُمَاؤُهُ
 قَدْ قَلَبَتْ أَعْيَانُهُ وَتَكَرَّرَتْ أَعْلَامُهُ ، وَتَكَسَّفَتْ أَضْوَاؤُهُ

(١) من مرثيته لأبي إسحاق الصائبي ، ومطلعها :

أَعْلَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَأَ ضِيَاءَ النَّادِي

ديوانه لوحة ١٢٩ .

(٢) الديوان : « عَنْ ظَهْرِ كُلِّ مَذَلٍّ » .

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ ، من مرثية لبعض أصدقائه .

مُغْفِرٍ وليس للذَّوْرِ إِغْفَاؤُهُ ، مَغْفِرٍ وليس لِمَسْكُورَةٍ إِغْضَاؤُهُ
وَجَهَّ كَلْعَ الْبَرْقِ غَاضٌ وَمِيضُهُ قَلْبٌ كَصَدْرِ الْعَصْبِ قُلٌّ مَضَاؤُهُ
حَكَمَ الْبَلَى فِيهِ فَلَوْ تَلَقَى بِهِ أَعْدَاؤُهُ لَرَنَى لَهُ أَعْدَاؤُهُ
وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا عِنْدِي أَسْكُمْ خَيْرٌ وَمَا خَطَابِي إِلَّا مَعْشَرًا قُبِرُوا
أَصْبَحْتُمْ فِي الْبَلَى غُبْرًا مَلَابِسَكُمْ مِنْ النَّبَاءِ ، فَإِنَّ الْبُرْدُ وَالْقَطَرُ (١)
كُنْتُمْ عَلَى كُلِّ خُطْبٍ فَادِحَ صَبْرًا فَهَلْ شَعَرْتُمْ؟ وَقَدْ جَادَتْكُمْ الصَّبْرُ (٢)
وَمَا دَرَى يَوْمَ أَحَدٍ بِالَّذِينَ ثَوَرُوا فِيهِ ، وَلَا يَوْمَ يَدْرُ أَهْمَ نُصِرُوا
وَقَالَ أَبُو عَارِمٍ الْكَلَابِيّ :

أُجَازَعَةُ رُدِّيْتُهُ أَنْ أَتَاهَا نَمِيٌّ أَمْ يَكُونُ لَهَا اصْطِبَارُ
إِذَا مَا أَهْلُ قَبْرِي وَدَعَوْنِي وَرَاحِسُوا وَالْأَكْفُفَ بِهَا غُبَارُ
وَعُودَرُ أَعْظَمِي فِي لَحْدِ قَبْرِ تَرَاوَحَهُ الْجَنَائِبُ وَالْقِطَارُ
تَهَبُ الرِّيحُ فَوْقَ مَحْطِ قَبْرِي وَبَرَعَى حَوْلَهُ الْأَهْقُ النَّوَارُ (٣)
مَقِيمٌ لَا يَكَلِّمُهُ صَدِيقٌ بِقَبْرِ ، لَا أَزُورُ وَلَا أَزَارُ
فَذَاكَ النَّأْيُ لَا الْهَجْرَانِ حَوْلًا وَحَوْلًا ثُمَّ تَجْمَعُ الدِّيَارُ

مرَّ الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا ، فسأل : هل
بقي من نسلهم أحد ؟ قالوا : بقي واحد ، وهو يلزم المقابر ، فدعا به فسأله : لم تلزم المقابر ؟
قال : أردت أن أميزَ عظام الملوك من عظام عبيدهم ، فوجدتها سواء ، قال : هل لك أن
تلزمني حتى أنيأتك بغيرتك ؟ قال : لو علمت أنك تقدر على ذلك ألزمتك . قال : وما بغيرتك ؟

(١) القطر : من البرود .

(٢) الصبر : الدعاية البيضاء .

(٣) الأهق : الثور الأبيض ، والنوار : النافر .

قال : حياة لا موت معها ، قال : لن أقدر على ذلك ، قال : فدعني أطلبه ممن
يقدر عليه .

قال النبي صلى الله عليه وآله : « مارأيت منظرا إلا والقبر أفضع منه » .
وقال صلى الله عليه وآله : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فمن نجاه منه فما بعده
أسر ، ومن لم ينج فما بعده شر له » .
مرّ عبد الله بن عمر رضي الله عنه بمقبرة فصلى فيها ركعتين ، وقال : ذكرت أهل
القبور وأتّ حيل بينهم وبين هذا ، فأحييت أن اتقرب بهما إلى الله .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « وبجانب المجر » ؟ وأي فائدة في لفظة
« جانب » في هذا الموضع ؟
قلت : لأنهم يقولون : فلان في جانب المجر ، وفي جانب القطيعة ، ولا يقولون :
« في جانب الوصل » ، وفي « جانب المصافاة » ، وذلك أن لفظة « جنب »
في الأصل موضوعة للمباعدة ، ومنه قولهم : « الجار الجنب » ، وهو جارك من
قوم غرباء . يقال : جنب الرجل ، وأجنبته ، وتجنبته ، وتجانبته ، كلّه بمعنى ، ورجل
أجنبى ، وأجنب ، وجنب ، وجانب ، كلّه بمعنى .

قوله عليه السلام : « شاهدوا من أخطار دارهم » ، المعنى أنه شاهد المتقون من آثار
الرحمة وأماراتها ، وشاهد المجرمون من آثار العقمة وأماراتها عند الموت ، والحصول في
القبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنون أيام كونهم في الدنيا .

ثم قال : « فكلما النابتين مدّت لم » ، المعنى مدّت العائتان : غاية الشقى منهم
وغاية السعيد .

إلى مباءة ، أى إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف ، أو جاء راجع ؛ وذلك
المباءة هى النار أو الجنة . وتقول : قد استباه الرجل أى اتخذ مباءة ، وأبأت الإبل : رددتها
إلى مباءتها ؛ وهى معاطنها .

ثم قال : « فلو كانوا ينطقون بها لميؤا » ، بتشديد الياء ، قال الشاعر :

عَيُّوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بِيضَتِهَا الْحَمَامَةُ
جَمَلَتْ لَهَا عَوْدِينَ مِنْ نَشْمٍ وَآخِرٍ مِنْ ثَمَامَةٍ

وروى « لميؤا » بالتخفيف ، كما تقول : « حيؤا » قالوا : ذهبت الياء الثانية لانقفاء

الساكنين لأن الواو ساكنة ، وضمت الياء الأولى لأجل الواو ، قال الشاعر :

وَكُنَّا حَبِيبَتَاهُمْ قَوَارِسَ كَهْمِيسٍ حَيُّوا بَعْدَ مَا مَاتُوا مِنَ الدَّهْرِ أَعْصَرَا

قوله : « لقد رجعت فيهم » يقال : رجع البصر نفسه ، ورجع زيد بصره ؛ يتمدى ولا

يتمدى ، بقول : تكلموا معنى لا صورة ، فأدركت عالمهم بالأبصار والأسماع العقلية لا الحسية .

وكلت الوجوه كلوها وگلاها ، وهو نكشر فى عبوس .

والنواصير : النواجم ، والنصرة : الحسن والرواق .

وخوت الأجساد النواجم : خات من دميها ورطوبتها وحشوتها . ويجوز أن يكون

خوت أى سقطت . قال تعالى : « فَبِئْسَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » ^(١) ، والأهدام : جمع

هَدم ، وهو الثوب اليابس ، قال أوس .

وَذَاتِ هِذَمٍ عَارٍ نَوَاصِرُهَا أَصْمِتُ بِالماءِ تَوَلَّيَا جَذَعًا ^(٢)

(١) سورة الحج ٤٥ .

(٢) ديوانه ٥٥ النواصير : عصب الذراع ، الواحد ناصرة ؛ وبها سمى الرجل ، وأراد بالتواطى طفلها
أولجذع : السبي الفداء ؛ أصمته بالماء لأنه ليس له ابن من شدة الضر .

وتكادنا : شقّ علينا ، ومده : عقة كزود . ويجوز تكادنا ، جاءت هذه الكلمة في أخواتها « تعقل وتفاعل » بمعنى ، ومثله تعهد الضيعة ، وتعاهدا .

ويقال : قوله : « وتوارثنا الوحشة » . كأنه لما مات الأب فاستوحش أهله منه ، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضا ، صار كأن الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تُورث الأموال ، وهذا من باب الاستعارة .

قوله : « وتهدمت علينا الربوع » ، يقال : تهدم فلان على فلان غضبا ؛ إذا اشتد غضبه ، ويجوز أن يكون تهدمت أى تساقطت . وروى « ونهكت » بالكاف ، وهو كقولك : « تهدمت » بالتفسيرين جميعا ، ويعنى بالربوع الصموت ، القبور ، وجعلها صموتا لأنه لا نطق فيها ، كما تقول : ليل قائم ونهار صائم ، أى يقام ويصام فيهما ، وهذا كله على طريق المزج والتعريك وإخراج الكلام في معرض غير المعرض المعهود ، جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم [لأتوا] بما وصفه من أحوالهم . وورد في الحديث أن عمر حضر جنازة رجل ، فلما دفن قال لأصحابه : قفوا ، ثم ضرب فأمعن في القبور ، واستبطأه الناس جدا ثم رجع وقد أحمرت عيناه ، وانفخت أوداجه ، فقيل : أبطأت يا أمير المؤمنين ، فما الذى حبسك ؟ قال : أتيت قبور الأحبة ، فسلمت فلم يردوا على السلام ، فلما ذهبت أفتى ناداني التراب ، فقال : ألا تسألنى يا عمر ما فعلت باليدين ؟ قلت : ما فعلت بهما ؟ قال : قطعت الكفين من الرأسين ، وقطعت الرسفين من الذراعين ، وقطعت الذراعين من المرفقين ، وقطعت المرفقين من المصدين ، وقطعت المصدين من المنكبين ، وقطعت المنكبين من الكتفين ، فلما ذهبت أفتى ناداني التراب ، فقال : ألا تسألنى يا عمر ما فعلت بالأبدان والرجلين ؟ قلت : ما فعلت ؟ قال : قطعت الكتفين من الجنبين ، وقطعت الجنبين من الصلب ، وقطعت الصلب من الوركين ، وقطعت الوركين من الفخذين ، وقطعت الفخذين من الركبتين ،

وقطعت الرّكبتين من الساقين ، وقطعت الساقين من القدمين ، فلما ذهبت ألقى ناداني التراب ، فقال : يا عمر ، عليك بأكفانٍ لا تبلى ؟ فقلت : وما أكفانٍ لا تبلى ، قال : تقوى الله ، والعمل بطاعته . وهذا من الباب الذي نحن بصدده ، نسب الأفعال المذكورة إلى التراب وهو جاد ، ولم يكن ذلك ، واسكنه اعتبر فانقذحت في نفسه هذه المواقظ الحكيمية ، فأفرغها في قالب الحكاية ، ورتبها على قانون المسألة والإجابة ، وأضافها إلى جاد موات ، لأنه أهرُ اسمها إلى تدبرها ، ولو قال : نظرت فاعتبرت في حال الموتى ، فوجدت التراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عظمته المبلغ الذي بلغته حيث أودعها في الصورة التي اخترعها .

قوله عليه السلام : « فلو مثلتهم بعقلك ، أو كشف عنهم محبوب الغطاء لك » إلى آخر جواب « لو » . هذا الكلام أخذه ابنُ نباتة بعينه فقال : فلو كشفتم عنهم أغطية الأجداث ، بعد ليلتين أو ثلاث ، لو جدتم الأحداق على الخدود مسائلة ، والألوان من ضيق اللحد حائلة ، وهوام الأرض في نواصم الأبدان جائلة ، والرموس الموسدة على الأيمان زائلة ، ينكرها من كان لها عارفا ، ويفر عنها من لم يزل لها آلفا .

قوله عليه السلام : « ارتسخت أسماعهم » ليس معناه ثبتت كازعمه الراوندي ، لأنها لم تثبت ، وإنما ثبتت الهوام فيها ، بل الصحيح أنه من رشح الغدير إذا نش ماؤه ونضب ، ويقال : قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلته حتى يلتقى الثريان .

واستككت ، أي ضاقت وانسدّت ، قال الفايغة :

وُنُبِثْتُ خَيْرَ النَّاسِ أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكِّتُ مِنْهَا السَّامِعُ^(١)

(١) ب « فيها » ، والبيت في ديوانه ٥٣ ، وروايته :

• أَنَا نِي أَيْتَ اللَّعْنِ أَنَّكَ لُمْتَنِي •

قوله : « واكتحلت أبصارهم بالتراب نجسفت » ، أى غارت وذهبت فى الرأس .
وأخذ المتنبي قوله : « واكتحلت أبصارهم بالتراب » ، فقال :

يُدَقَّنُ بَعْضُنا بَعْضاً وَيَمِشِي أَوَاخِرُنا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي ^(١)
رَكْمٌ عَيْنٍ مَقْبَلَةُ النَّوَاحِي كَحِيلٍ بِالْجَسَادِ وَالرَّمَالِ !
وَمَنْضٍ كَانَ لَا يَمْنَى لِحُطْبٍ وَبَالَ كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْهَزَالِ

وذلاقة الألسن : حدثها ، ذلق اللسان والسنان يذلق ذلقاً ، أى ذرباً ؛ فهو ذلق ، وأذلق .

وحدث ، بالفتح : سكت وحدث . وعاث : أفسد . وقوله : « جديد بلى » ، من فن البديع ، لأن الجدة ضد البلى ؛ وقد أخذ الشاعر هذه اللفظة فقال :
يادارُ غادَرَنِي جَدِيدُ بِلَالِكِ رَثَ الْجَدِيدُ فَهَلْ رَثَيْتَ لِدَالِكِ !
وتميمها : قبح صورتها ، وقد تميم الشيء بالضم فهو تميم ، بالسكون ، مثل ضخم فهو ضخم ، ويجوز : فهو تميم ، بالكسر ، مثل تخشن فهو تخشن .

قوله : « وسهل طرق الآفة إليها » ؛ وذلك أنه إذا استولى العنصر الترابي على الأعضاء ، قوى استعدادها ، للاستحالة من صورتها الأولى إلى غيرها .
ومستسلات ، أى منقاد طائفة غير عاصية ؛ فليس لها أيدي تدفع عنها ، ولا لها قلوب تجزع وتحزن لما نزل بها .

والأشجان : جمع شجن ، وهو الحزن .

والأفذاء : جمع قذى ، وهو ما يسقط فى العين فيؤذيها .

(١) ديوانه ٣ : ١٨ . والأوال : الأوائل ، ولكنه للب .

قوله : « صفة حال لا تنتقل » ، أى لا تنتقل إلى حسن وصلاح ، وليس يريد : لا تنتقل مطلقا ، لأنها تنتقل إلى فساد وضمحلل .

ورجل عزيز ، أى حدث ، وعزيز الجسد ، أى طوى ، وأنيق اللون : ممجّب اللون .
وَعُذِيٌّ تَرَفٌ : قد عُذِيَ بالتَرَف ، وهو التَّعَمُّ الطَّيِّبُ .
وريبُ شَرَف ، أى قد رُبِّيَ في الشرف والعز . ويقال : ربّ فلان ولده يرّبه ربّا ،
وربّاه يرّبه تربيةً .

ويقتل بالسرور : يتلّهى به عن غيره . ويفزع إلى السّوءة : يلجئ إليها . وضئاً ، أى
بخلاً . وغضارة العيش : نعيمه وليته .

وشحاحة ، أى بخلا ، شَحِحتُ بالكسر أشح . وشَحَّحتُ أيضا بالفتح ، أشح
وأشح ؛ بالضم والكسر ، شُحاً وشَحَاحَةً . ورجل شحيح وشَحَّاح بالفتح . وقوم
شِحَّاحٌ وأَشِحةٌ .

وبضعتك إلى الدنيا ونضعتك إليه ؛ كناية عن الفرح بالعمر والعيشة ، وكذا كل
واحدٍ منهما بضعتك إلى صاحبه لشدة الصفاء ، كأن الدنيا تحبه وهو يحبها .

وعيش غفول : قد غفل عن صاحبه ، فهو مستغرق في العيش لم ينتبه له الدهر ،
فيكدر عليه وقته ، قال الشاعر :

وكان المرء في غفلاتٍ عيشٍ كأنَّ الدهرَ عنها في وثاقٍ
وقال آخر :

ألا إنَّ أحلَّ العيش ما سمَّحت به صروفُ اللَّيالي ، والحوادثُ نُومُ

قوله : « إذ وطئ الدهر به حَسَكه » ، أى إذ أوطأ الدهر حَسَكه . والماء في
« حَسَكه » ترجع إلى الدهر ، عذَى الفعل بحرف الجر ، كما تقول : قام زيد بمرو ،
أى أقامه .

وقوّاه : جمع قوّة وهي المِرّة من مرّاث الحبل . وهذا الكلام استعارة .
ومن كَثَب : من قرب . والبث : الحزن . والبث أيضا : الأمر الباطن الدخيل .
ونجى الهم : ما يتاجيك ويسارك . والفقرات : أوائل المرض .
وآنس ما كان بصحته ، منصوب على الحال . وقال الراوندى في الشرح : هذا من
باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » . ثم ذكر أن العامل في الحال « فقرات » ،
قال : تقديره : « فقرات آنس ما كان » . وما ذكره الراوندى فاسد ، فإنه ليس هذا من
باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » ، لأن ذلك حال سدة مسدة خبر المبتدأ ، وليس
ها هنا مبتدأ . وأبضا فليس العامل في الحال « فقرات » ولا « فقر » ، بل العامل :
« تولدت » . والقار : البارد .

فإن قلت : لم قال : « تسكين الحار بالقار » ، وتحريك البارد بالحار ؟ ولأى
مبنى جمل الأول التسكين والثاني التحريك ؟ قلت : لأن من شأن الحرارة التهييج
والتشوير ، فاستعمل في قهرها بالبارد لفظ « التسكين » ، ومن شأن البرودة التخدير والتجميد ،
فاستعمل في قهرها بالحار لفظ « التحريك » .

قوله : « ولا اعتدل بممازج لنلك الطبايع إلا أمدّ منها كل ذات داء » ، أى ولا استعمل
دواء مفردا معتدلا المزاج أو مركبا كذلك إلا وأمدّ كل طبيعة منها ذات مرض بمرض
زائد على الأول .

وينبئ أن يكون قوله : « ولا اعتدل بممازج » ، أى ولا رام الاعتدال لمترج ،
لأنه لو حصل له الاعتدال لكان قد برى من مرضه ، فسعى بمحاولة الاعتدال اعتدالا ،
لأنه باستدلال المعتدلات قد تهيأ للاعتدال ، فكان قد اعتدل بالقوّة .

وينبئ أيضا أن يكون قد حذف مفعول « أمدّ » ، وتقديره « بمرض » كما قدرناه
نحن ، وحذف المفعولات كثير واسع .

قوله : « حَقِّي قَتْرَ مَعْلَمِهِ » ، لَأَنَّ مَعْلَمِي الْمَرَضِ فِي أَوَائِلِ الْمَرَضِ يَكُونُ عِنْدَهُمْ نَشَاطٌ ، لِأَنَّهُمْ يَرْجُونَ الْبَرْءَ ، فَإِذَا رَأَوْا أَمَارَاتِ الْمَلَائِكَةِ قَتَرَتْ مِنْهُمْ .

قوله : « وَذَهَلْ مَرَضُهُ » ، ذَهَلَ بِالْفَتْحِ ، وَهَذَا كَالْأَوَّلِ ، لِأَنَّ الْمَرَضَ إِذَا أَعْيَا عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، وَانْسَدَّتْ عَلَيْهِ أَبْوَابُ التَّدْبِيرِ يَذْهَلُ .

قوله : « وَتَعَايَا أَهْلَهُ بِصِفَةِ دَائِهِ » ، أَيِ تَعَاظَرَا الْعِيَّ وَتَسَاكَمَتَا إِذَا سُئِلُوا عَنْهُ ، وَهَذِهِ عَادَةُ أَهْلِ الْمَرِيضِ الْمُتَنَقِّلِ ؛ يَجْمَعُونَ إِذَا سُئِلُوا عَنْ حَالِهِ .

قوله : « وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَيْئًا خَبَرَ يَكْتُمُونَهُ » ، أَيِ تَخَاصَمُوا فِي خَبَرِ ذِي شَيْئٍ ، أَيِ خَبَرِ ذِي غُصَّةٍ يَتَنَازَعُونَهُ وَهُمْ حَوْلَ الْمَرِيضِ سِتْرًا دُونَهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِفَجْوَاهُمْ ، وَبِمَا يُقِيضُونَ فِيهِ مِنْ أَمْرِهِ .

فَقَاتِلَ مِنْهُمْ : هُوَ لَمَّا بَدَأَ ، أَيِ قَدْ أَشْنَى عَلَى الْمَوْتِ ، وَآخِرَ يَمَنِّيهِمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ ، أَيِ عَوْدَتِهَا ، أَبَ فُلَانٍ إِلَى أَهْلِهِ ، أَيِ عَادَ .

وَآخِرُ يَقُولُ : قَدْ رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا ، وَمَنْ بَلَغَ إِلَى أَعْظَمِ مِنْ هَذَا ثُمَّ عَوَفِيَ ، فَيَمْنَى أَهْلُهُ عَوْدَ عَافِيَتِهِ .

وَآخِرُ يَصْبِرُ أَهْلُهُ عَلَى فَقْدِهِ ، وَيَذْكُرُ فَضِيلَةَ الصَّبْرِ ، وَبِنَهَامٍ عَنِ الْجَزَعِ ، وَبِرَوَى لَهُمْ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ .

وَأَسَى أَهْلِيهِمْ ، وَالْأَسَى : جَمْعُ أَسْوَةٍ ، وَهُوَ مَا يَتَأَسَّى بِهِ الْإِنْسَانُ . قَالَتِ الْخَلَسَاءُ : وَمَا يَكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسَلَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسَّى^(١)

قوله : « عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا » ، أَيِ سَرْعَانِ مَا يَفَارِقُهَا ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى جَنَاحٍ طَائِرٌ ، فَأَوْشِكُ بِهِ أَنْ يَسْقُطَ .

(١) ديوانها ١٥٣ ، وروايت « وما يكن »

قوله : « إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ » بمعنى الموت . ومن غُصَصَ : جمع غُصَّة . وهو ما يمرض تجرى الأنفاس . ويقال : إنَّ كُلَّ مَيِّتٍ من الحيوان لا يموت إلَّا خفقا ، وذلك لأنَّه من النَّفْس يدخل ، فلا يخرج عَوْضَه ، أو يخرج فلا يدخل عَوْضَه ، ويلزم من ذلك الاختناق ، لأن الرِّئَةَ لا تبقى حينئذٍ مَرْوَحَةً للقلب ، وإذا لم تُرَوَّحْ اختنق .

قوله : « فَتَصَيَّرَتْ نَوَافِدُ فُطْنِهِ » ، أى تلك الفطنة السافذة الثاقبة تحيَّرت عند الموت ، وتبلَّدت .

قوله : « وَيَبِيتُ رَطُوبَةُ لِسَانِهِ » ؛ لأن الرطوبة اللعابية التى بها يكون الذوق تنشف حينئذٍ ، ويبطل الإحساس باللسان تبعاً لسقوط القوة .

قوله : « فَمِنْهُمْ مَنْ جَوَّابُهُ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ » نحو أن يكون له مالٌ مدفونٌ يُسأل عنه حال ما يكون محتضراً ، فيحاول أن يعرف أهله به فلا يستطيع ، ويمجز عن رَدِّ جَوَابِهِمْ ، وقد رأينا مَنْ تَجَزَّأَ عن الكلام فأشار إشارة فهموا معناها ، وهى الدَّوَاةُ والكَاغِدُ ، فلما حضر ذلك أخذ القلم وكتب فى الكاغد ما لم يُفهم ، وبده ترَعَدَ . ثم مات .

قوله : « وَدَعَاهُ مَوْلَى لِقَابِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَ عَنْهُ » ، أظهر الصَّم ، لأنه لا حيلة له .

ثم وصف ذلك الدعاء فقال : « مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يَعْظُمُهُ » ، نحو صُراخ الوالد على الولد والولد يسمع ولا يستطيع الكلام . « وَصَغِيرٍ كَانَ يَرْجُوهُ » ، نحو صراخ الولد على الوالد ، وهو يسمع ولا قدرة له على جوابه .

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال : إنها أفْطَعُ من أن تحيط الصفاتُ بها . وتستغرقها ، أى تأتى على كُنْهها ، وتُعبِّر عن حقائقها .

قوله : « أَوْ تَعْتَدِلُ عَلَى عَقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا » ، هذا كلام لطيف فصيح غامض ، ومعناه

أن غبرات الموت وأهواله عظيمة جداً لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شرحت لها
ووصفت كما هي على الحقيقة ، بل تنبو عنها ، ولا تصدق بما يقال فيها ، فعبر عن عدم
استقامتها على العقول بقوله : « أو بتدل » ، كأنه جعلها كالشيء المموج عند العقل ،
فهو غير مصدق به .

[إيراد أشعار وحكايات في وصف الموت وأحوال الموتى]

ومما يناسب ما ذكر ، من حال الإنسان قول الشاعر :

بينما الفتى مَرِحُ أُلْطَأَ فرحاً بمِــا يَسْمَى له إِذْ قِيلَ قد مَرِضَ الفتى
إِذْ قِيلَ بَاتَ بِلَيْلَةٍ ما نَأَمَـا إِذْ قِيلَ أَصْبَحَ مُثْقَلًا ما يُرْجَى
إِذْ قِيلَ أَمْسَى شَاخِصًا ومَوْجَها إِذْ قِيلَ فَارَقَهُمْ وحلَّ به الردى

وقال أبو النجم العجلي :

والمرء كالخالم في المنام يقول إنى مدرك أمامى
في قابلٍ ما فاتنى في العام والمرء يذنيه إلى الحيام
مرء الليالى السودِ والأيام إن الفتى يُصْبِحُ للأسقام
كالغرض المنصوب للسهام أخطأ رامٍ ، وأصاب رام

وقال عمران بن حطان :

أنى كلَّ عامٍ مَرَضَةٌ ثم نَقْمَةٌ وبُئْسَ ، ولا بُدَّ منى ، متى ذأ إلى متى !

ولا بد من يوم يحىء وليلة بسوقان حتماً راح نحوك أو غدا

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ بمقبرة فنادى : يا أهل القبور الموحشة، والرُّبُوع المظلمة، ألا أخبركم بما حدث بعدكم ؟ تزوج نساؤكم ، وتبوّست مساكنكم ، وقبّمت أموالكم . هل أنتم غيرون بما عابتم ؟ ثم قال : ألا لائم لوأذن لهم في الجواب لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى .

ونظر الحسن إلى رجل يحود بنفسه فقال : إن أمراً هذا آخره ، لجدير أن يزهد في أوله ، وإن أمراً هذا أوله لجدير أن يخاف آخره .

وقال عبدة بن الطبيب - ويعجبني قوله على الحال التي كان عليها ؛ فإنه كان أسود لصاً من لصوص بني سعد بن زيد مناة بن تميم - :

ولقد علمتُ بأن قصرى حفرة غبراء يحملنى إليها شرجم^(١)

فبكى بنائى شجوهن وزوجتى والأقربون إلى ، ثم تصدعوا

وتركتُ فى غبراء بكرة وردها تدنى على الريح ثم أودع

إن الحوادث يخترمن وإئتما عمر الفتى فى أهله مستودع

واظير هذه الأبيات فى رويتها وعروضها قول متمم بن نويرة اليربوعي :

ولقد علمتُ ولا محالة أنى للعادات ، فهل تربى أجزع^(٢)

أهلكن عاداً ثم آل محرق فزكنهم بلداً وما قد جموا^(٣)

(١) من مفضليته ١٤٥ - ١٤٩ ، والمترجم : خشب يشد بعضه إلى بعض كالسرير يحمل عليه الموتى .

(٢) من مفضليته ٤٨ - ٥٤ .

(٣) بلداً ، أى تزياناً .

ولهنّ كان الحارثان كلاهما ولهنّ كان أخو المصانع تبع^(١)
 فمددت آباءى إلى عرق النّزى فدعوتهم فعلت أن لم يستمعوا
 ذهبوا فلم أدركهم ودعهم غسول أنوها والطريق المنيع
 لا بدّ من تلفٍ مصيب فانتظروا أبارض قومك أم بأخرى تصرّع
 وليأتينّ عليك يومٌ مرّة يُبكي عليك مُقنماً لا تسمع^(٢)

لما فتح خالد بن الوليد عين النّمر ، سأل عن الحُرقة بنت النّعمان بن المنذر ، فدلّ عليها ، فأثاها - وكانت غمياء - فسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعت علينا الشمس ماشىء يديّ تحت الخورق إلى تحت أيدينا ، ثم غربت وقد رحنا كلٌّ من يدور به ، وما بيت دخاته حبرة ، إلا دخلته عبّرة ؛ ثم قالت :

وَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأُمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِ سُوْقَةٌ تَنْصَفُ
 فَأَفِ لَدُنَيْسَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلُّبُ تَارَاتِ بِنَا وَتَصْرَفُ !

فقال قائل ممن كان حول خالد : قاتل الله عدى بن زيد ! لكأنه ينظر إليها حين يقول :

إِنَّ لِلدَّهْرِ سَرْعَةً فَاحْذَرْنَهَا لَا تَبَيَّنْ قَدْ أَمِنْتَ الدَّهَوْرَا^(٣)
 قَدْ بَيَّتَ الْفَتَى مَعَانِي فَيَرْدَى وَلَقَدْ كَانَ آمِنًا مَسْرُورًا

دخل عبد الله بن العباس على عبد الملك بن مروان يوم قرّ ، وهو على فرش

(١) الحارثان : هما الحارث الأصغر ، والحارث الأكبر الأعرج : المصانع . التصور . تبع : ملك من ملوك اليمن .

(٢) مقنن : ملفف في أثوابه .

(٣) الأغاني ٢ : ١٣٨ - ١٤٠ .

يكاد يثيب فيها ، فقال : يا بن عباس ، إني لأحسب اليوم بارداً ! قال : أجل ، وإن ابن هند عاش في مثل ماترى ، عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، ثم هو ذاك على قبره ثمامة مهتر .

فيقال : إن عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابتة .

كان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره ببغداد على دجلة ، فإذا بحشيش على وجه الماء ، وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فأمر بها فوجد هذا :

تاه الأعرج واستولى به البطرُ فقل له خير ما استعملته الحذرُ
أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنتُ ولم تخفْ سوء ما يأتي به القدرُ
وسالتك الليالي فاغترت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ
فلم ينفع نفسه أياً .

عدي بن زيد :

أيتها الشامت العير بالله رأيت المبرأ للوفور !
أم لديك العهد الوثيق من الأيام ، بل أنت جاهلٌ مفرور
من رأيت المنون خلداً أم من ذاعليه من أن يضام خفير !
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وإن أم أين قبله سابور (١) !
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ روم ولم يبق منهم مذكور

(١) سابور الجنود ، هو ابن أردشير ، وسابور ذو الأكتاف ، هو سابور بن هرمز ، وكلاهما من ملوك العجم .

وأخو الحضير إذ بقاء وإذ دج^(١) له تجي إليه والخابور^(٢)
 لم يهين به ريب المنون فبادر^(٣) ملك^(٤) عنده فبايه مهجور^(٥)
 شاده^(٦) مرمرأ وجلاه^(٧) كل^(٨) ساء فلطير في ذراه^(٩) وكور^(١٠)
 وتبين^(١١) رب الخورنق إذ^(١٢) أذ^(١٣) عرف يوماً وللهدي تفكير^(١٤)
 سره^(١٥) حاله وكثرة ما يملك^(١٦) والبحر^(١٧) معرضاً والتدبير^(١٨)
 فارعوى قلبه وقال : فما غب^(١٩) طة^(٢٠) حتى إلى المات بصبر^(٢١)
 ثم بعد الفلاح والملك والأمة^(٢٢) وارثهم^(٢٣) هناك القبور^(٢٤)
 ثم أضحوا^(٢٥) كأنهم ورق^(٢٦) ج^(٢٧) ف^(٢٨) قالوت^(٢٩) به الضبا^(٣٠) والذبور^(٣١)
 قد اتفق الناس على أن هذه الأبيات أحسن ما قيل من القريض في هذا المعنى، وأن
 الشعراء كلهم أخذوا منها ، واحتذوا في هذا المعنى حذوها .

وقال الرضى أبو الحسن رضى الله عنه :

انظر إلى هذا الأنام بعبرة^(١) لا يعجبك خلفه ورؤاه^(٢)
 فتراه كالورق النضير تنصفت^(٣) أفصانه^(٤) وتسلبت شجراؤه^(٥)
 أنى تحاماه المنون ، وإنما^(٦) خلقت^(٧) مراهمي للردى خضراؤه^(٨)
 أم كيف تأمل فلتة أجساده^(٩) من ذا الزمان وحشوها أدواؤه^(١٠)

-
- (١) الخابور : اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
 (٢) الكلس : الصاروج ، وأخلطها التي تصرع (تطلى) بها النزل وغيرها .
 (٣) في الأغاني : « وتذكر » .
 (٤) في الأغاني : « سره ماله » .
 (٥) الأمة : النعمة .
 (٦) ألوت به : أى ذهبت به .
 (٧) ديوانه لوحة ١١٦ .
 (٨) ديوانه : « غيتاه » .

لا تعجبين فما العجيب فئاؤه^(١) بيدِ اللّون ، بل العجيب بقاؤه^(٢)
 إنا للعجب كيف حُمّ حمامه^(٣) عن صحّة ، وبغيب عَمَّا دَاوّه^(٤)
 مَنْ طاح في سبيل الرّدى آباؤه^(٥) فليسكن طريقهم أباؤه^(٦)
 ومؤمّر نزلوا به في سُوقه^(٧) لا شكاه فيهم ولا نظراؤه^(٨)
 قد كانت يفرّق غلّه أقرانه^(٩) ويغضّ دُون جلاله أَكْثَاؤه^(١٠)
 ومُحَجَّب ضربت عليه مهابة^(١١) بعشي العيون بهساؤه وضيّاؤه^(١٢)
 نادّته من خلف الحجاب مَنِيّة^(١٣) أَمّ فكان جوابها جوابؤه^(١٤)
 شقت إليه سيوفه ورمّاحه^(١٥) وأميّط عنه عبيدّه وإماؤه^(١٦)
 لم يُفنه مَنْ كان ودّ لو أنّه^(١٧) قبل اللّون من اللّون فداؤه^(١٨)
 حرّم عليه الدّلّ إلا أنّه^(١٩) أبدا ليشهد بالجلال ينّاؤه^(٢٠)
 متخشع بمد الأنيس جَنَابُه^(٢١) متضائل بمد القطين فئاؤه^(٢٢)
 عُريان تطرد كلّ ربح تُرْبُه^(٢٣) وبطيح أوّل أمرها حصباؤه^(٢٤)
 ولقد سررت بِبَرْزَخ فسألته^(٢٥) ابن الألى ضمتهم أرجاؤه^(٢٦)
 مثل المطى بواركا أجدائه^(٢٧) تَسْفَى على جنباتها بَوَغَاؤه^(٢٨)
 نادّيته فَنَحَى على جوابه^(٢٩) بالقول إلا ما زقت أصدائه^(٣٠)

(١) الدهوان : « قراؤه » .

(٢) يفرّق : يخاف ويهاب .

(٣) أَمّ : قريبة ، والحواء : النفس .

(٤) حرم عليه : حرام عليه .

(٥) بواركا : جمع يارك أو باركة . البوهاء : الزاب .

(٦) زقت : صاحت : الأصداء : جمع صدى ، وهو حكاية الصوت في الجبال والكهوف والأماكن

العالية .

مِنْ نَاضِرٍ مَطْرُوقَةٍ الْحَاظِلَةِ أَوْ خَاطِرٍ مَظْلُومَةٍ سَوْدَاوَةٍ (١)
أَوْ وَاجِدٍ مَكْظُومَةٍ زَفَرَاتِهِ أَوْ حَاقِدٍ مَذْهَبَةٍ شَحْنَاوَةٍ (٢)
وَمُسْتَدِينٍ عَلَى الْجَنُوبِ كَانَتْهُمْ شَرِبَتْ تَحَاذِلُ بِالطَّلَا أَعْضَاوَةٍ
نَحْتِ الصَّمِيدِ لَغِيرِ إِشْفَاقٍ إِلَى يَوْمَ الْمَمَادِ يَضُمُّهُمْ أَحْشَاوَةٍ
أَكَانَهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي وَلَدَتْهُمْ أَكَلِ الضُّرُوسِ حَلَّتْ لَهُ أَكْثَاوَةٍ

وقال أيضا :

وَتَفَرَّقُ الْبُعْدَاءُ بَعْدَ تَجْمُعِ صَعْبٍ ، فَكَيْفَ تَفَرَّقِ الْقُرْبَاءُ (٣)
وَخَلَائِقُ الدُّنْيَا خَلَائِقُ مُوسَى ، لِلدَّمْعِ آوَنَةٌ ، وَلِلْإِعْطَاءِ (٤)
طَوْرًا تَبَادَلَتْ الصَّفَاءُ وَتَارَةً تَلْقَاكَ تَفَكُّرُهَا مِنَ الْبَقْصَاءِ
وَتَدَاوُلُ الْأَيَّامُ يُبْلِينَا كَمَا يُبْلِي الرِّشَاءُ تَطَاوُحُ الْأَرْجَاءِ (٥)
وَكَانَ طَوْلَ الْمُعَرَّرِ وَحَةَ رَاكِبٍ قَضَى الْغُيُوبَ وَجَدَ فِي الْإِسْرَاءِ (٦)
لَمِنِي عَلَى الْقَوْمِ الْأَوَّلَى غَادِرَتُهُمْ وَعَلَيْهِمْ طَلَبٌ مِنَ الْبَيْدَاءِ (٧)

- (١) مطروقة ، من قولهم : طرق فلان بصره ؛ إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر . ومطلوبة ، من قولهم : طل دم فلان ، إذا ذهب هدرًا .
(٢) واجد ، من الوجد ؛ وهو الحزن .
(٣) من حريته لوالدته فاطمة بنت الناصر ، وأولها :

أَبْكَيْكَ لَوْ نَفَعَ الْفَلِيلُ بِكَائِي وَأَقُولُ لَوْ ذَهَبَ لِلْقَالِ بُدَائِي

ديوانه لوحة ١١٥ .

- (٤) اللوس : المرأة الفاجرة .
(٥) الرشاء : الحبل يستقى به من البئر ، والأرجاء : جمع رجا ؛ وهو ناحية البئر .
(٦) روحة راكب : راحته . والغيوب : الإعياء . والإسراء : سير الليل .
(٧) الطليق : وجه الأرض ؛ أو عطاء كل شيء .

متوَّدين على الحدودِ كأنما
صوَّرَ صُنِفَتْ على العُيُونِ بلعظها
وَنَوَاطِرُ كَعَلِ التُّرَابِ جَفُونَهَا
قَرُبَتْ ضَرَائِحُهُمْ عَلَى زُؤَارِهَا
وَلَبِثْ مَا يَلْقَى بِقُفْرِ دِيَارِهِمْ
أَذُنُ لِلصَّيْحِ بِهَا وَعَيْنُ الرَّائِي^(١)
كَرَعُوا عَلَى ظَلَمٍ مِنَ الصَّهْبَاءِ
أَمْسَبَتْ أَوْقِرُهَا مِنَ الْبُؤْغَاءِ^(٢)
قَدْ كُنْتُ أَحْرُسُهَا مِنَ الْأَقْدَاءِ
وَنَاوَأُ عَنِ الطُّغْلَابِ أَيْ تَفَاءِ^(٣)
أَذُنُ لِلصَّيْحِ بِهَا وَعَيْنُ الرَّائِي^(٣)



(١) البوغاء : التربة الرخوة .
(٢) الضرائح : جمع ضريح ؛ وهو القبر .
(٣) عفر ديارهم : وسطها .

(٢١٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(١) :

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَمَلُ الذِّكْرِ جَلَاءَ لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْفَةِ ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ ، وَتَنْفَادُ بِهِ بَعْدَ الْمَعَانِدَةِ . وَمَا يَرِىَحُ لِلَّهِ - عَزَّتْ آلَاؤُهُ ، فِي الْبَرْهَةِ بَعْدَ الْبَرْهَةِ ، وَفِي أَرْزَامِ الْفَتَرَاتِ - عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ ، وَكَلَمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ ، فَاسْتَضْهِجُوا بِنُورِ بَقْفَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ ، يَذْكُرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ ، وَخَوْفُونَ مَقَامَهُ ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفُلُوكِ . مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَدَّوْا إِلَى طَرِيقِهِ ، وَبَشَرُوهُ بِالنَّجَاةِ ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيقًا وَشِبَالًا ذَمُّوا إِلَى الطَّرِيقِ ، وَحَذَرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ .

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ ، وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ ، وَبِأَمْزُونِ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ ، وَيَبْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَذَنَّهُوْنَ عَنْهُ ، فَكَانَتْهُمْ قَطْعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا ، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، فَكَانُوا

هَطَّلُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَائَهَا ،
خَسَكْتُمْ غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَانَتْهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ
مَا لَا يَسْمَعُونَ .

فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ لِعَقَلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْشُودَةِ ، وَتَحَالِيهِمُ الشُّهُودَةِ ، وَقَدْ نَشَرُوا
دَوَابِّنَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفَرَّغُوا لِحَاسَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ ؛ أَمَرُوا بِهَا فَقَصَرُوا
عَنْهَا ، أَوْ نَهَوْا عَنْهَا فَقَرَّطُوا فِيهَا ؛ وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ ، فَضَمُّوا عَنْ
الْإِسْتِقْلَالِ بِهَا ؛ فَتَشَجُّوا تَشِيجًا ، وَتَجَاوَبُوا تَحِيبًا ، يَسْجُونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامٍ
غَدِيمٍ وَاعْتِرَافٍ - لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى ، وَمَصَابِيحَ دُجَى ، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ؛
وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاهِدُ الْكَرَامَاتِ ،
فِي مَقْعَدِ اطَّلَعُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَرَضِي سَعْيَهُمْ ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ .
يَقْلَسُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ ، رَهَائِنُ فَاغْفِرْ إِلَى فَضْلِهِ ، وَأَسْأَرِي ذِلَّتِي لِعَظَمَتِهِ ،
جَرَّحَ طُولُ الْأَمَى قُلُوبَهُمْ ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُوبَهُمْ .
لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٌ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ بِدَقَارِعَةٍ ، بِسَآلُونَ مَنْ لَا تُضِيقُ أَدْبَهُ الْبَادِحُ ،
وَلَا يَحْيِبُ عَلَيْهِ الرَّاعِبُونَ .

فَحَاسِبْ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ؛ فَإِنْ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ .

الشرح :

من قرأ ﴿ يسبح له فيها ﴾ بفتح الباء ^(١) ارتفع « رجال » عنده بوجهين :

(١) هي قراءة ابن عامر وأبي بكر بن مجاهد؛ والباقيون بكسرها ؛ وانظر أيضا إتحاف فضلاء البشر ٣٢٥

أحدهما أن يُضَمَّرَ له فعل يكون هو فاعله ، تقديره « يسبحه رجال » ، ودلّ على
« يسبحه » بسّبح ، كما قال الشاعر :

إِيْبِكْ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِعَصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطْبِيعُ الطَّوَائِحُ^(١)
أى يبكبه ضارع ، ودلّ على « يبكبه » « إِيْبِكْ » .

والثانى أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : « المسبحون رجال » . ومن قرأ :
« بسّبح له فيها » بكسر الباء ، فـ « رجال » فاعل ، ووقع لفظ « التجارة » في مقابلة لفظ
« البيع » إتماً لأنه أراد بالتجارة هاهنا الشراء خاصة ، أو لأنه عمم بالتجارة المشتقة على
البيع والشراء ، ثم خصّ البيع ، لأنه أدخل في باب الإلهاء ، لأنّ البيع يحصل ربحه
ييقن ، وليس كذلك الشراء ، والذكر يكون تارةً باللسان ، وتارةً بالقلب ، فالذى
باللسان نحو التسميع والتكبير والتهليل والتحميد والدعاء ، والذى بالقلب ؛ فهو التعظيم
والتبجيل والاعتراف والطاعة .

وجلوت السيف والقلب جلاء ، بالكسر ، وجلوت اليهود عن المدينة جلاء بالفتح .
والوَقْرَةُ : الثقل في الأذن . والعشوة ، بالفتح : فَعْلَةٌ ، من المشافى العين .
وآلاؤه : نعمه .

فإن قلت : أى معنى تحت قوله : « عزّت آلاؤه » وعزّت بمعنى « قلت » أو هل
يجوز مثل ذلك في تعظيم الله ؟

قلت : عزّت هاهنا ليس بمعنى « قلت » ولكن بمعنى : « كرمت وعظمت » ،
قول منه : عزّزتُ على فلان بالفتح ، أى كرّمت عليه ، وعظّمت عنده ، وفلان عزيز
علينا ، أى كريم معظم .

والبرهة من الدهر : المدة الطويلة ، ويجوز فتح الباء .

وأزمان الفترات : ما يكون منها بين النوبتين .

وناجاهم في فكرهم : ألهمهم ، بخلاف مناجاة الرسل يبعث للملائكة إليهم ،

وكذلك « وكلمهم في ذات عقولهم » ، فاستصحبوا بنور يقظة « : صار ذلك النور مصباحا

لم يستضيئون به .

قوله : « مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِمْ طَرِيقَهُ » ، إلى هاهنا : هي التي في قولهم : أحمداً

إليك ؛ أى مُسَيِّباً ذلك إليك ، أو مفضياً به إليك ؛ ونحو ذلك ، وطريقة العرب في الحذف

في مثل هذا معلومة ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً ﴾ ^(١) ؛ أى لجعلنا

بدلاً منكم ملائكة . وقال الشاعر :

فليس لنا من ماء زمزم شربة مبردة بآنت على طيبك

أى عِوضاً من ماء زمزم .

قوله : « وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا » ، أى ضلّ عن الجادة .

و « إلى » في قوله : « ذموا إليه الطريق » مثل « إلى » الأولى .

ويهتفون بالزواجير : بصوتون بها ، هتفت الحمامة تهتف هتفاً ، وهتف زيد بالضم هتافاً

بالكسر ، وقوس هتافة وهتقى ، أى ذات صوت .

والقسط : المدل . ويأثمرون به : يمتثلون الأمر .

وقوله : « فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ » ، إلى قوله : « وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ » ؛

هو شرح قوله عن نفسه عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » .

والأوزار : الذنوب . والنشيج : صوت البكاء . والمقعد : موضع القعود .

وبد قارعة : تطرق باب الرحمة ، وهذا الكلام مجاز .

والفادح : المواضع الواسعة .

و « على » في قوله : « ولا ينجيب عليه الراغبون » متعلقة بمحذوف مثل « إلى » للتقدم ذكرها ، والتقدير « نادمين عليه » .

والحسيب : المحاسب .

واعلم أن هذا الكلام في الظاهر صفة حال القصاص والمتصددين لإنكار المنكرات ، ألا تراه يقول : « يذكرون بأيام الله » أي بالأيام التي كانت فيها النعمة بالعصاة ، ويخوتفون مقامه من قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِثَّتَانِ ﴾ ^(١) ثم قال : فمن سلك القصد حيدوه ، ومن عدل عن الطريق ذموا طريقه ، وخوفوه الهلاك . ثم قال : يهتفون بالزواجر عن المحارم في أسمع الغافلين ، وبأمرهم بالقسط وينهون عن المنكر .

وهذا كله إيضاح لما قلناه أولا ؛ أن ظاهر الكلام شرح حال القصاص وأرباب المواظ في الجامع والطراقات ، والمتصددين لإنكار القبائح ؛ وباطن الكلام شرح حال العارفين ، الذين هم صفوة الله تعالى من خلقه ، وهو عليه السلام دائما يكنى عنهم ، ويرمز إليهم ، على أنه في هذا الموضع قد صرح بهم في قوله : « حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون » .

وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل الذكر ، ومحاسبة النفس ، والبكاء ، والنحيب ، والتندم والتوبة ، والهداء والفاقة ، والذلة ، والحزن ، وهو الأسى الذي ذكر أنه جرح قلوبهم بطوله .

[بيان أحوال العارفين]

وقد كنّا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدّم ، وهذا موضعه ، فنقول : إنَّ أول مقام من مقامات العارفين ، وأوّل منزل من منازل السالكين التوبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « التائبُ من الذنب كمن لا ذنب له » .

وقال عليّ عليه السلام : « مامن شيء أحبّ إلى الله من شاب تائب » .

والتوبة في عرف أرباب هذه الطريقة الندم على ما عمل من المخالفة وترك الزلة في

الحال والعزم على ألا يعود إلى ارتكاب معصية ، وليس الندم وحده عند هؤلاء توبة ،

وإن جاء في الخبر : « الندم توبة » ، لأنّه على وزن قوله عليه السلام : « الحج عرفة » ؛ ليس

على معنى أنّ غيرها ليس من الأركان ، بل المراد أنّه أكبر الأركان وأهمّها . ومنهم من قال :

يكفي الندم وحده ، لأنّه يستتبع الركنين الآخرين لاستحالة كونه نادماً على ما هو مصرّ

على مثله ، أو ما هو عازم على الإتيان بمثله .

قالوا : والتوبة شروط وترتيبات :

فأوّل ذلك انتباه القلب من رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة ،

ولمّا يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يحظر بباله من زواجر الحق سبحانه ؛

يسمع قلبه ، فإنّ في الخبر النبويّ عنه صلى الله عليه وآله : « واعظ كلّ حالٍ الله في قلب

كلّ امرئ مسلم » .

وفي الخبر : « إنّ في بدن المرء كمُضغّة إذا صلّحت صلّح جميع البدن ؛ ألا وهي القلب ،

وإذا فسدت فسد جميع البدن ، ألا وهي القلب » .

وإذا أفكر العبدُ بقلبه في سوء صنيعه ، وأبصر ما هو عليه من ذم الأفعال ، سَنَحَتْ في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة ، فبمذه الحق سبحانه يتصحيح العزيمة ، والأخذ في طرق الرجوع والنأهب لأسباب التوبة .

وأول ذلك هجران إخوان السوء ؛ فإنهم الذين يحملونه على رد هذا القصد ، وعكس هذا العزم ، ويشوشون عليه صحة هذه الإرادة ، ولا يتم ذلك له إلا بالمواظبة على المشاهد والمجالس التي تزيد رغبة في التوبة ، وتوفر دواعيه إلى إتمام ما عزم عليه ، مما يقوى خوفه ورجاهه ، فعند ذلك تنحلُّ عن قلبه عُقْدَةُ الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعل ، فيقف عن تعاطي المحظورات ، ويكبح نفسه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات ، فيفارق الزلة في الحال ، ويلزم العزيمة على ألا يعود إلى مثلها في الاستقبال ، فإن مَضَى على موجب قصده ، ونفذ على مقتضى عزمه ، فهو الموفق حقا ، وإن نقص التوبة مرة أو مرات ، ثم حالته إرادته على تجديدّها ، فقد يكون مثل هذا كثيرا ، فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء ، فإن لكلَّ أجل كتابا . وقد حكى عن أبي سليمان الداراني أنه ^(١) قال : اختلفتُ إلى مجلس قاصٍّ ، فأثر كلامه في قلبي ، فلما قُت لم يبق في قلبي شيء ، فمدتُ ثانيا ، فسمعت كلامه ، فبقى من كلامه في قلبي أثر في الطريق ثم زال ، ثم عدتُ ثالثا فوَقَّر كلامه في قلبي ، وثبتَ حتى رجعتُ إلى منزلي ، وكسرت آلات الخالصة ، ولزمت الطريق .

وحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ ، فقال : عصفور اصطاد كركيًّا - يعني بالعصفور القاص - وبالكركي أبا سليمان .

ويحكي أن أبا حفص الخدّاد ذكر بدايته ، فقال : تركت ذلك العمل - يعني المعصية - كذا وكذا مرة ، ثم عدت إليها ، ثم تركني العمل ، فلم أعدُ إليه .

(١) صائغ بن . ب

وقيل إن بعض المريدین تاب ، ثم وقعت له فترة ، وكان يفكر ويقول : أتري لو عدت إلى التوبة كيف كان يكون حكمي ؟ فنهف به هاتف : ياقلان ، أطمعنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأهملناك ، وإن عدت إلينا قبلناك ؛ فعاد الفتى إلى الإرادة .

وقال أبو علي الدقاق : التوبة على ثلاثة أقسام . فأولها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة ، فجعل التوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطة بينهما . والمعنى أن مَنْ تاب خوفاً من العقاب فهو صاحب التوبة ، ومَنْ تاب طمعا في الثواب فهو صاحب الإنابة ، ومَنْ تاب مراعاة الأمر فقط ، فهو صاحب الأوبة .

وقال أبو علي أيضا : التوبة صفة المؤمنين ، قال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . والإنابة صفة الأولياء ، قال سبحانه : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ ^(١) ، والأوبة صفة الأنبياء ، قال سبحانه : ﴿ رِمَ الْأَعْيُنُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ^(٢) .

وقال الجنيد : دخلت على السري يوماً ، فوجدته متغيّراً ، فسألته فقال : دخل على شاب ، فسألني عن التوبة ، فقلت : ألا تنسى ذنبك ؟ فقال : بل التوبة ألا تذكر ذنبك . قال الجنيد : فقلت له : إن الأمر عندي ما قاله الشاب ، قال : كيف ؟ قلت : لأنني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الصفاء ، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء . فسكت السري .

وقال ذو النون المصري : الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين .
وستل البوشنجي عن التوبة ، فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فذلك حقيقة التوبة .

(١) سورة النور ٣٩ .

(٢) سورة ق ٢٣ .

(٣) سورة من ٣٠ .

وقل ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى لا يكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك ؛ كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وقيل لأبي حفص الحداد : لم تُبغض الدنيا ؟ فقال : لأني باشرت فيها الذنوب ، قيل : فهلا أحببتها لأنك وفقت فيها للتوبة ! فقال : أنا من الذنوب على يقين ، ومن هذه التوبة على ظن .

وقال رجل لرابطة العذبة : إني قد أكرت من الذنوب والمعاصي ، فهل يشوب علي إن تبت ؟ قالت : لا بل لو تاب عليك لتبت .

قالوا : ولما كان الله تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ دلنا ذلك على محبته لمن صحت له حقيقة التوبة ، ولا شبهة أن من قارف الزلة فهو من خطئته على يقين ، فإذا تاب فإنه من القبول على شك ، لاسيما إذا كان من شرط القبول محبة الحق سبحانه له ، وإلى أن يبلغ العاصي محلاً يحد في أوصافه أماره محبة الله تعالى إياه مسافة بعيدة ، فالواجب إذا عصى العبد إذا علم أنه ارتكب ما يجب عنه التوبة دوام الانسكار ، وملازمة التفصل والاستغفار ، كما قيل : استشعار الوجع إلى الأجل .

وكان من سنته عليه السلام دوام الاستغفار . وقال : « إِنَّهُ أَيُّمَانٌ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » (٢) .

(١) سورة التوبة ٢٥ .

(٢) أورده ابن الأثير في النهاية ٣ : ١٨٠ ، وقال : الفين : النيم ، وغيت السماء ثفان : إذا أطبق عليها الفين ، وقيل : الفين : شجر ملتف ؟ أراد ما يشاه من السهو التي لا يغلو منه البصر ؟ لأن قلبه أبداً كان مشغولاً بأفقه أمالي ؟ فإن عرض له وقتاً ما عارض بصرى يشغله من أمور الأمة والملة ومعالجتها عند ذلك ذهباً وتقصيراً فيفرغ إلى الاستغفار .

وقال يحيى بن معاذ : زلّة واحدة بعد التوبة أقيح من سبعين قبلها .
ويحكى أن عليّ بن عيسى الوزير ركب في موكب عظيم ، فجعل الغرباء يقولون : مَنْ
هذا ؟ مَنْ هذا ؟ فقالت امرأة قائمة على السطح : إلى متى تقولون : من هذا ، من هذا !
هذا عبد سقط من عين الله ، فابتلاه بما ترون . فسمع عليّ بن عيسى كلامها ، فرجع إلى
منزله ولم يزل يتوصّل في الاستعفاء من الوزارة حتى أعيى ، وذهب إلى مكّة
فجاور بها .

ومنها المجاهدة ، وقد قلنا فيها ما يكفي فيما تقدّم .

ومنها المزلة والخلوة ، وقد ذكرنا في جزء قبل هذا الجزء مما جاء في ذلك
طرقاً صالحاً .

ومنها التقوى ، وهي الخوف من معصية الله ، ومن مظالم العباد ، قال سبحانه : ﴿ إِن
أَشْكُرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُكُمْ ﴾ ^(١) ، وقيل : إن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه
وآله ، فقال : يا رسول الله أوصني ، فقال : « عليك بتقوى الله ، فإنه جامع كل خير ، وعليك
بالمجاهد ، فإنه رهبانية المسلم ، وعليك بذكر الله ، فإنه نور لك » .
وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ ^(٢) : أن يُطاع فلا يعصى ،
ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر فلا يكفر .

(١) سورة المجرات ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٢ .

وقال النصر ابا ذى : من لزم التقوى بادر إلى مفارقة الدنيا ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وقيل : يستدل على تقوى الرجل بثلاث : التوكل فيما لم يذل ، والرضا (٢) بما قد نال ، وحسن الصبر على ما فات .

وكان يقال : مَنْ كَانَ رَأْسُ مَالِهِ التَّقْوَى كَلَّتِ الْأَلْسُنُ عَنْ وَصْفِ رَجُلِهِ .
وقد حكوا من حكايات المتقين شيئا كثيرا ، مثل ما يحكى عن ابن سيرين ، أنه اشترى أربعين حباً (٣) سمفا ، فأخرج غلامه فأرة من حب ؛ فسأله : من أى حبٍ أخرجها ؟ قال : لا أدري ، فصبتها كلها .

وحكى أن أبا يزيد البسطامي غسل ثوبه في الصحراء ومعه مصاحب له ، فقال صاحبه : لضرب هذا الوتد في جدار هذا البستان ، ونبسط الثوب عليه ، فقال : لا يجوز ضرب الوتد في جدار الناس قال : فعلقه على شجرة حتى يجف ، قال : يكسر الأغصان ، فقال : نبسطه على الإذخر (٤) قال : إنه علف الدواب لا يجوز أن نستره منها . فولى ظهره قبل الشمس ، وجعل القميص على ظهره حتى جف أحد جانبيه ، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر .

ومنها الورع ، وهو اجتناب الشهوات ، قال صلى الله عليه وآله لأبي هريرة : « كن ورعاً تكن أعبداً للناس » .

وقال أبو بكر : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب واحد من الحرام .

(١) سورة الأنعام ٣٠٢ .

(٢) ب : « الشكر » ، وما أثبتته من : ١ .

(٣) الحب هنا : الجرة .

(٤) الإذخر : الحشيش الأخضر .

وكان يقال : الورع في المنطق أشدّ منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشدّ منه في الذهب والفضة ، لأنك تبذلها في طلب الرياسة .

وقال أبو عبد الله الجلاء : أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاء برّ كوته ورشائه .

وقال بشر بن الحارث : أشدّ الأحوال ثلاثة : الجود في القلّة ، والورع في الغلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى .

وبقال : إنّ أخت بشر بن الحارث ^(١) جاءت إلى أحمد بن حنبل ، فقالت : إنّنا ننزّل على سطوحنا فتمرّ بنا مشاعل الطاهرية ، فيقع شعاعها علينا ، أفيجوز لنا النزل في ضوئها ؟ فقال أحمد : من أنت يا أمة الله ؟ قالت : أخت بشر الحافي ، فبكى أحمد ، وقال : من يتسكّم خرج الورع ، لا تنزل في ضوء مشاعلهم .

وحكى بعضهم ، قال : مررت بالبصرة في بعض الشوارع ؛ فإذا بمشايخ قعود وصبيان يلعبون ، فقلت : أمانستهميون من هؤلاء المشايخ ؟ فقال غلام من بينهم : هؤلاء المشايخ قتل ورعهم ، فقلت هيبتهم .

ويقال : إنّ مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ، ماصحّ له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رطبها حتى مات ولم يذقه ، وكان إذا انقضى أوان الرطب يقول : يا أهل البصرة ، هذا بطني ما نقص منه شيء ، سواء على أكلت من رطبكم أو لم آكل !

وقال الحسن : مثقال ذرّة من الورع خير من ألف مثقال من الصّوم والصلاة .
ودخل الحسن مكة ، فرأى غلاما من ولد علي بن أبي طالب ، قد أسدّ ظهره إلى

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر المال تاريخ بغداد ٧ : ٦٧ .

السكبة وهو يعض الناس ، فقال له الحسن : ما مِلاك الدين ؟ قال : الورع ، قال : فما آفته ؟ قال : الطمع ، فجعل الحسن يتمجّب منه .

وقال سهل بن عبدالله : مَنْ لم يصحبه الورع ، أكل رأس الفيل ولم يشبع .
وحل إلى عمر بن عبد العزيز مِسْكٌ من الفئام ، فقبض على مشمه ، وقال : إنما ينفع من هذا بریحه ، وأنا أكره أن أجدر بریحه دون المسلمين .
وسئل أبو عثمان الحريري عن الورع فقل : كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو في النزح ، فمات الرجل ، فنفت أبو صالح في السراج فأطفأه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إلى الآن كان الدهن الذي في المشرجة له ، فلما مات صار إلى الورثة .



ومنها الزهد ، وقد تكلموا في حقيقته ، فقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل
وقل الخواص : الزهد أن تترك الدنيا فلا تنالي من أخذها .

وقال أبو سليمان الداراني : الزهد ترك كل ما يشغل عن الله .
وقيل : الزهد تحت كلمتين من القرآن العزيز : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾^(١) .

وكان يقال : مَنْ صدق في زهده أتته الدنيا وهي راغمة ، ولهذا قيل : لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريدّها .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد يسعطك^(٢) الخلل والخرذل ، والعرقان بشتك المسك والعنبر .

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٢) سقطه الدواء وغيره : أدخله في أفقه .

وقيل لبعضهم : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : ترك ما فيها على من فيها .
وقال رجل لدى النون المصري : متى تراني أزهد في الدنيا ؟ قال : إذا زهدت في نفسك .

وقال رجل ليحيى بن معاذ : متى تراني أدخل حانوت التوكّل ، وألبس رداء الزهد ، وأفعد بين الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع الله عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ولا في يقينك ، فأما ما لم تباغ إلى هذه الدرجة فعمودك على بساط الزاهدين جعل ؛ ثم لا آمن أن تفتضح .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، وترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، وترك كلّ ما يشغلك عن الله ، وهو زهد العارفين .
وقال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعرّوس ، فطالبها كما شيطتها بمحسن وجهها ونمطر ثوبها ، والزاهد فيها كضربها أسخّم وجهها ، وتنتف شعرها ، وتحرق ثوبها . والعارف مشتغل بالله ، لا يلتفت إليها ، ولا يشعر بها .

وكان التصرا بآذی يقول في مناجاته : يامن حقن دماء الزاهدين ، وسقك دماء العارفين !

وكان يقال : إن الله تعالى جعل الخير كلّ في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد ، وجعل الشرّ كلّ في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .

ومنها الصمت ، وقدّمنا فيما سبق من الأجزاء نكتاً نافعة في هذا المعنى ، ونذكر الآن شيئاً آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِينَ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ فَلْيَصْمُتْ » .

وقال أصحاب هذا العلم : الصمت من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ^(١) .

وقال مخبرا عن الجن : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ ^(٢) .

وقال الله تعالى مخبرا عن يوم القيامة : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمًّا ﴾ ^(٣) .

وقالوا : كم بين عبد سكت تصوته عن الكذب والغيبة ، وعبد سكت لاستيلاء سلطان

المهية !

وانشدوا :

أرتب ما أقول إذا افترقنا وأحكم دائما حجاج المقال
فأنساها إذا نحن التقينا وأنطق حين أنطق بالحال

وانشدوا :

فيا ليل كم من حاجة لي مهتدي إذا جئتكم لم أدر بالليل ماها !

قالوا : وربما كان سبب الصمت والسكوت حيرة الهدية ؛ فإنه إذا ورد كشف بفتنة ، خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ولا نطق ، وطست الشواهد فلا علم ولا حس ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَأُجِبْتُمْ قَالُوا لَا حِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ^(٤) ، فأما إظهار أرباب المجاهدة الصمت فليسا علموا في الكلام من الآفات ، ثم ما فيه من خط النفس وإظهار صفات للدع ، وليل إلى أن يتميز من بين أشكاله بحسن النطق ، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام . وهذا نفت أرباب

(١) سورة الأعراف ٢٠٤ .

(٢) سورة الأحقاف ٢٩ .

(٣) سورة طه ١٠٨ .

(٤) سورة المائدة ١٠٩ .

الرياضة ، وهو أحد أركانهم في حكم مجاهدة النفس ومنازلتها وتهذيب الأخلاق .
ويقال : إن داود الطائي لما أراد أن يقعد في بيته ، اعتقد أن يحضر مجلس أبي حنيفة ،
لأنه كان تلميذاً له ويقعد بين أضرابه من العلماء ، ولا يتكلم في مسألة على سبيل رياسته
نفسه ، فلما قويت نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة ، قعد في بيته عند ذلك ،
وآثر العزلة .

ويقال : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتاباً فاستحسن لفظه ، مرق
الكتاب وغيره .

وقال بشر بن الحارث : إذا أعجبت الكلام فاصمت ، فإذا أعجبت الصمت فتكلم .
وقال سهل بن عبد الله : لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا يصح
لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت .



ومنها الخوف ، قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنِّي أَخَافُكُمْ ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوِّهِمْ ﴾ ^(٣) .

وقال أبو علي الدقاق : الخوف على مراتب : خوف ، وخشية ، وهيبة .

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه ، قال الله تعالى : ﴿ قَلَّا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) .

والخشية من شروط العلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة الحجلة ١٦ .

(٢) سورة البقرة ٤٠ .

(٣) سورة النحل ٥٠ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٥ .

(٥) سورة فاطر ٢٨ .

والهيبة من شروط المعرفة ، قال سبحانه : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ^(١) .
وقال أبو عمر الدمشقي : الخائف مَنْ يخاف من نفسه أكثر مما يخاف
من الشيطان .

وقال بعضهم : مَنْ خاف من شيء هرب منه ، وَمَنْ خاف الله هَرَبَ إِلَيْهِ .
وقال أبو سليمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

ومنها الرجاء ، وقد قدّمنا فيما قبل من ذكر الخوف والرجاء طرفاً صالحاً ؛ قال سبحانه :
﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ ﴾ ^(٢) .

والفرق بين الرجاء والتمنى ، وكون أحدهما محموداً والآخر مذموماً ؛ أن التمنى
ألا يسلك طريق الاجتماع والجد ، والرجاء بخلاف ذلك ، فلهذا كان التمنى يورث
صاحبه الكسل .

وقال أبو علي الرضوي : الرجاء والخوف كجناحي الطائر ، إذا استويا
استوى الطائر وتمّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر
في حدّ الموت .

وقال أبو عثمان النري : مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّجَاءِ تَمَطَّلَ ، وَمَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الْخَوْفِ
قَنَطَ ، وَلَكِنْ تَمِنَ هَذَا مَرَّةً وَمِنْ هَذَا مَرَّةً .

ومن كلام يحيى بن معاذ - ويروى عن علي بن الحسين عليهما السلام : يكاد رجائي
لك مع الذنوب ، يغلب رجائي لك مع الأعمال ؛ لأنني أجدني أعتمد في الأهمال على

(١) سورة آل عمران ٢٨ .

(٢) سورة النكبات ٥ .

الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تنفرها وأنت بالجود موصوف .

ومنها الحزن ، وهو من أوصاف أهل السلوك .

وقال أبو علي الدقاق : صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد الحزن في سنتين .

وفي الخبر النبوي صلى الله عليه وآله : « إن الله يحب كل قلب حزين » .

وفي بعض كتب النبوات القديمة : « إذا أحب الله عبداً نصب في قلبه نائمة ، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه ميزماراً » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان متواصلاً بالأحزان ، دائم الفكر . وقيل : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب ؛ كأن الدار إذا لم يكن فيها ساكن خربت . وسمعت رابعة رجلاً يقول : واحزنناه ! فقالت : قل وقللة حزنناه ! لو كنت محزوناً ما هبياً لك أن تنفّس !

وقال سفيان بن عيينة : لو أن محزوناً بكى في أمة ، لرحم الله تلك الأمة ببكائه . وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحد من أصحابه يقول : إذا رأيت محزوناً فاقترئه عني السلام .

وكان الحسن البصري لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة .

وقال وكيع يوم مات الفضيل : ذهب الحزن اليوم من الأرض .

وقال بعض السلف : أكثر ما يجد^(١) المؤمن في صحيفته من الحسنات الحزن والهم .

(١) ب : « يوجد » ، وما أتت به من أ .

وقال الفضيل : أدركت السلف يقولون : إن الله في كل شيء زكاة ، وزكاة النمل طول الحزن .

ومنها الجوع وترك الشهوات ، وقد تقدم ذكر ذلك .

ومنها الخشوع والتواضع ، قال سبعمانه : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ^(١) . وفي الخبر النبوي عنه صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار مَنْ في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، فقال رجل : يا رسول الله ، إن المرء ليحب أن يكون ثوبه حنكاً ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ؛ إنما التكبر مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ ، وَغَمَصَ النَّاسَ » .

وروى أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمود المريض ، وبشتيم الجنائز ، ويركب الحمار ، ويحلب دعوة العبد .

وكان يوم قُرْبَظَة والتضيير على حمار مخطوم يحمل من ليف ، عليه إكاف من ليف . ودخل مكة يوم فتحها راكب بعير ، برحل خلق ، وإن ذقنه لتمس وسط الرُّحْل حصوا لله تعالى وخشوا ، وجيشه يومئذ عشرة آلاف .

قالوا في حدّ الخشوع : هو الانقياد للحق . وفي التواضع : هو الاستسلام وترك الاعتراض على الحكم .

وقال بعضهم : الخشوع قيام القلب بين يدي الحق بهم مجموع .

وقال حذيفة بن اليمان : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع .

وكان يقال: من علامات الخشوع أن العبد إذا أغضب أو خولف أو رد عليه استقبل ذلك بالقبول .

وقال محمد بن علي الترمذي: الخاشع من خدعت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم في قلبه . فانت حواسه وحَيِّ قلبه ، وتطاهرت جوارحه . وقال الحسن: الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب .

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام النبوء ، قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، أي خاشعون متواضعون .

ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر ، منكسر الشاهد ، قد زوى منكبيه ، فقال: يا فلان ، الخشوع ها هنا - وأشار إلى صدره - لا ها هنا - وأشار إلى منكبيه .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى رجلاً يعبث بلعنته في صلاته ، فقال: « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » .

وقيل: شرط الخشوع في الصلاة ألا يعرف من على يمينه ، ولا من على شماله . وقال بعض الصوفية: الخشوع قسرية ترد على القلب بغتة عند الحاجة كشف الحقيقة .

وكان يقال: من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره . وقيل: إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على التراب . وكان عمر بن الخطاب يسرع في المشي ، ويقول: هو أنجح للعاجلة ، وأبعد من الزهو .

كان رجاء بن حيوة ليلة عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فضمت الصباح ، فقام رجل ليصلحه ، فقال: اجلس ، فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيق ، فقال:

أنبه^(١) الغلام ، قال : إنها أول نومة نامها ، ثم قام بنفسه فأصلح السراج . فقال رجاء :
أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين ! قال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر
ابن عبد العزيز .

وفي حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يملف البعير
ويقم البيت ، ويخسف النعل ويرقع الثوب ، ويحبب الشاة ، ويأكل مع الخادم .
ويطحن معها إذا أعيت . وكان لا يمنع الحياه أن يحمل بضاعته من السوق إلى منزل أهله ،
وكان يصافح الغني والفقير ، ويسلم مبتدئاً ، ولا يحقر ما دعى إليه ولو إلى حشف التمر .
وكان هين الموانة ، آين الخلق ، كريم السجية ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، ساماً من
غير ضحك ، محزوناً من غير عبوس ، متواضعاً من غير ذلة ، جواداً من غير سرف ، رقيق
القلب ، رحياً لكل مسلم ، ما تجشأ قط من شبع ، ولا مدة يده إلى طبع .
وقال الفضيل : أوحى الله إلى الجبال أني مكلم على واحد منكم نبيا ، فتناولت
الجبال ، وتواضع طور سيناء ، فكلّم الله عليه موسى لتواضعه .

سئل الجنيد عن التواضع ، فقال : خفض الجناح ، ولين الجانب .
ابن المبارك : التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع .
وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟ قال : إذا لم يرى لنفسه مقاماً ولا حالاً ،
ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه .

وكان يقال : التواضع نعمة لا يحسد عليها ، والتكبر محنة لا يرحم منها ، والعز في
التواضع ، فمن طلبه في الكبر لم يجده .

وكان يقال : الشرف في التواضع ، والعز في التقوى ، والحرية في القناعة .
يحيى بن معاذ : التواضع حسن في كل أحد ؛ لكنه في الأغنياء أحسن ، والتكبر
سيئ في كل أحد ، ولكنه في الفقراء أسوأ .

وركب زيد بن ثابت ، قدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يا ابن عم رسول الله ! فقال : إنا نكذا أمرنا أن نفعل بعلانا ، فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرجها فقبلها ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وقال عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وعلى عاتقه قرينة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنه لا ينبغي لمثلك هذا ! فقال : إنه لما أتتني الوفود سامعة مهادية ، دخلت نفسي نخوة ، فأحببت أن أكسرهما . ومعنى بالقرينة إلى حجرة امرأة من الأنصار ، فأفرغها في إنائها .

أبو سليمان الداراني : من رأى لنفسه قيمة ، لم يذق حلاوة الخدمة .

يحيى بن معاذ : التكبر على من تكبر عليك تواضع .

بشر الحافي : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم .

بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنا له اشترى خاتما بألف درهم ، فكعب إليه : بلغني أنك اشتريت خاتما وفصه بألف درهم ، فإذا أنك كسبي فبيع الخاتم ، وأشيع به ألف بطن ، واتخذ خاتما من درهمين ، واجعل فصه حديدا صينيا ، واكتب عليه : رحمه الله امرا عرف قدره .

قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يحطّب أيام خلافته باثني عشر درهما ، وهي قباء ، وعمامة ، وقميص ، وسراويل ، ورداء ، وخفان ، وقلنسوة .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما سررت قط سروري في أيام ثلاثة : كنت في سفينة ، وفيها رجل مضحك ، كان يلعب لأهل^(١) السفينة ، فيقول : كننا نأخذ العاج من بلاد الترك هكذا ، ويأخذ بشعر رأسي فيزني ، فسررت ذلك ، لأنه لم يكن في تلك السفينة أحقر مني في عينه . وكنت عليلا في مسجد ، فدخل المؤذن وقال : اخرج ، فلم أطق ، فأخذ

(١) في الأصول : « أهل » .

برجلى وجرتنى إلى خارج المسجد . وكنت بالشام وعلى فرّو، فتظرت إليه فلم أميز بين الشعر وبين القمل لكثرة .

عُرِضَ على بعض الأمراء مملوكٌ بألوف من الدراهم ، فاستكثر الثمن ؛ فقال العبد : اشترنى بأمولائى ، ففى خصلة تساوى أكثر من هذا الثمن . قال : ماهى ؟ قال : لو قد متسنى على جميع ممالكك وخولتقى بكل ممالك لم أغلظ فى نفسى ، بل أعلم أنى عبدك . فاشتراه .

تساجر أبو ذرّ وبلال ، فعير أبو ذرّ بلالا بالسواد ، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا أبا ذرّ ، ما علمت أنه قد بقى فى قلبك شيء من كبر الجاهلية . فألقى أبو ذرّ نفسه ، وحلف ألا يحمل رأسه حتى يطأ بلال خذّه بقدمه ؛ فرفع رأسه حتى فعل بلال ذلك .

مرّ الحسن بن علىّ عليهما السلام بصبيان يلعبون ، وبين أيديهم كسر خبز يأكلونها ، فدعوه فزل وأكل معهم ، ثم حلّهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : الفضل لهم ، لأنهم لم يبدوا غير ما أطعموني ، ونحن نجد أكثر مما أطعمناهم .

ومنها مخالفة النفس ، وذكر عيوبها ، وقد تقدم ذكر ذلك .

ومنها القناعة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى وَهُوَ ءُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ ^(١) ، قال كثير من المفسرين : هى القناعة .
وفى الحديث النبوى - ويقال إنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لا يفقد » .

وفي الحديث النبوي أيضا : « مَكْنٌ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسَ ، وَكُنْ قَنُوعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ ، وَأَحَبَّ النَّاسِ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَأَحْسَنَ مَجَاوِرَةً مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا ، وَأَقْلَبَ الضَّحِكِ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تَمِيتُ الْقَلْبَ » .
 وكان يقال : الفقراء أمواتٌ إِلَّا مَنْ أَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِعَمَلِ الْقَنَاعَةِ .
 وقال أبو سليمان الداراني : القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد ، هذا أول الرضا . وهذا أول الزهد .

وقيل : القناعة سكون النفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات .
 وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ (١) : إنه القناعة .
 وقال أبو بكر الرازي : العاقل مَنْ دَبَّرَ أَمْرَ الدُّنْيَا بِالْقَنَاعَةِ وَالتَّوْبِيفِ ؛ وَأَنْكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَفِيفٍ ، فَقَالَ : الْقَنَاعَةُ تَرْكُ التَّوْبِيفِ بِالْمُفْقُودِ ، وَالِاسْتِغْنَاءُ بِالْمَوْجُودِ .
 وكان يقال : خرج المرء والغنى يمولان ، فلقيا القناعة ، فاستقرّا .
 وكان يقال : مَنْ كَانَتْ قَنَاعَتُهُ سَمِيحَةً طَابَتْ لَهُ كُلُّ مَرْقَةٍ .
 مرَّ أَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ بِقَصَابٍ ، فَقَالَ لَهُ : خُذْ يَا أَبَا حَازِمٍ ، فَقَالَ : لَيْسَ مَعِيَ دَرَاهِمٌ ، قَالَ : أَنَا أَنْظِرُكَ ، قَالَ : نَفْسِي أَحْسَنُ نَظَرَةً لِي مِنْكَ .
 وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع : المرء في الطاعة ، والقل في المعصية ، والمهية في قيام الليل ، والحسكة في البطن الخالي ، والغنى في القناعة .
 وكان يقال : اتَّقِمْ مِنْ قِلَانٍ بِالْقَنَاعَةِ ، كَمَا تَنْتَقِمُ مِنْ قَاتِلِكَ بِالْقَصَاصِ .
 ذو النون المصري : مَنْ قَنَعَ اسْتِرَاحَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ ، وَاسْتَطَالَ عَلَى أَقْرَانِهِ .
 وأنشدوا :

وَأَحْسَنُ بِالْفَقْرِ مِنْ يَوْمٍ عَارٍ يُنَالُ بِهِ الْغِنَى ، كَرِّمْ وَجُوعُ

ورأى رجل حكياً يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء ، فقال له : لو خدمت السلطان لم نَحْتَجْ إلى أكل هذا ! فقال : وأنت لو قنمت بهذا لم نَحْتَجْ إلى خدمة السلطان .

وقيل : المُقَابِيزُ في مطاره ، لا تسمو إليه مطامع الصيادين ، فإذا طمع في جيفة علفت على حباله ، نزل من مطاره فنشب في الأحبولة .
وقيل : لما نطق موسى بذكر الطمع ، فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ^(١) ، قال له الخضر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ ^(٢) .
وفسر بعضهم قوله : ﴿ هَبْ لِي مَلَكًا لَا يُنَبِّئُنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ^(٣) ، فقال : مقاماً في القناعة لا يبلغه أحد .

•••

ومنها التوكل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٤) .
وقال سهل بن عبد الله : أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى ، كالميث بين يدي الفاسل ، بقلبه كيف يشاء ، لا يسكون له حركة ، ولا تدبير .

وقال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَفِيهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا سَكِّنُ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقُومُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال أصحاب هذا الشأن : التوكل بالقلب ، وليس ينافيه الحركة بالجسد ، بعد أن يتحقق العبد أن التقدير من الله ، فإن أتمر شيء فبتقديره ، وإن تسهل فبتيسيره .

(١) سورة الكهف ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة م ٣٥ .

(٣) سورة الطلاق ٣ .

(٤) سورة المنافقون ٧ .

وفي الخبر النبوي أنه عليه السلام قال للأعرابي الذي ترك ناقته مهملة فندت ، فلما قيل له ، قال : توكلت فتركتها ، فقال عليه السلام : « اعقل وتوكل » .

وقال ذو النون : التوكل الانخلاع من الحول والقوة ، وترك تدبير الأسباب وقال بعضهم : التوكل ردة العيش إلى يوم واحد بإسقاط هم غد .

وقال أبو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل وهو أدناها ، ثم التسليم ، ثم التفويض ؛ فالأولى للعوام ، والثانية للخواص ، والثالثة لخواص الخواص .

جاء رجل إلى الشَّيْبِيّ يشكو إليه كثرة العيال ، فقال : ارجع إلى بيتك ، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت .

وقال سهل بن عبدالله : مَنْ طَمَنَ في التوكل فقد طَمَنَ في الإيمان ، وَمَنْ طَمَنَ في الحركة ، فقد طَمَنَ في السنة .

وكان يقال : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يؤول إليه إلا تدي أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه .

ورأى أبو سليمان الداراني رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم ، فمضت عليه أيام ، فقال له يوماً : أرايت لو غارت - أي زمزم - أي شيء كنت تشرب ؟ فقام وقبل رأسه ، وقال : جزك الله خيراً حيث أرشدتني ؛ فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام . ثم تركه ومضى .

وقيل : التوكل نفي الشُّكوك ، والتفويض إلى مالك الملك .

ودخل جماعة على أُلُجْنِيد ، فقالوا : نطلب الرزق ! قال : إن علم في أي موضع هو فاطلبوه ، قالوا : فندأل الله ذلك ، قال : إن علم أنه ينساكم فذكروه ، قالوا : اندخل البيت فتوكل ، قال : التجربة شك ، قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وقيل : التوكل الثقة بالله والياس عَمَّا في أيدي الناس .

ومنها الشكر ، وقد تقدم منا ذكر كثير مما قيل فيه .

ومنها اليقين وهو مقام جليل ، قال الله : تعالى ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ^(١) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا .

وقال سهل بن عبد الله : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه شكوى إلى غير الله .

وذكر لقي صلي الله عليه وآله ما يقال عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه مشى على الماء ، فقال : لو ازداد يقينا لمشي على الهواء .

وفي الخبر المرفوع عنه صلي الله عليه وآله ، أنه قال لعبد الله بن مسعود : « لا ترضين أحداً بسخط الله ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تذهبن أحداً على ما لم يوثق الله . واعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده كراهة كاره ، وأن الله جعل الروح والفرج في الرضا واليقين ، وجعل المم والحزن في الشك والسخط » .

ومنها الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ^(٢) .

وقال علي عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وسئل الفضيل عن الصبر ، قال : تجموع المراتة من غير تعب .

وقال رويم : الصبر ترك الشكوى .

(١) سورة البقرة ٤ .

(٢) سورة النحل ١٢٢ .

وقال صلى الله عليه وآله : الصبر مطية لا تكبو .

وقف رجل على الشَّيْبَى ، فقال : أى صبر أشدَّ على الصابرين ؟ قال الشَّيْبَى : الصبر في الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فالصبر لله ، فقال : لا ، قال : فالصبر مع الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فأى شيء ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشَّيْبَى صرخة عظيمة ، ووقع . ويقال إن الشَّيْبَى حبس في المارستان ، فدخل عليه قوم ، فقال : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قالوا : محبوك جنناك زائرين ، فرماهم بالحجارة فهربوا ، فقال : لو كنتم أحبائي ، لصبرتم على بلأى .

وجاء في بعض الأخبار ، عن الله تعالى : بمعنى ما يتحمل المتحملون من أجل .

وقال عمر بن الخطاب : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبالي أيهما ركبت .

وفي الحديث الرفوع : « الإيمان الصبر والسخاء » .

وفي الخبر : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل فائده ، والرفق والده ، والبر أخوه ، والصبر أمير جنوده . قالوا : فنهايك بشرف خصلة تنأثر على هذه الخصال ! والمعنى أن الثبات على هذه الخصال واستدامة التخلق بها إنما يكون بالصبر ، فلذلك كان أمير الجنود .

ومنها المراقبة ، جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله : أن سائلا سأله عن

الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

وهذه إشارة إلى حال المراقبة ، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب عليه ، فاستدامة

العبد لهذا العلم مراقبة للحق ، وهو أصل كل خير ، ولا يسكاد يصل^(١) إلى هذه الرتبة

إلا بعد فراغه عن المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف ، وأصلح حاله في الوقت ،

(١) كذا في ١ ، وفيه : « يومل » .

ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب ، وحفظ مع الله سبحانه
الأنفاس ، راقبه تعالى في عموم أحواله ، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه ، يعلم أحواله ، ويرى
أفعاله ، ويسمع أقواله . ومن تفاضل عن هذه الجملة ، فهو بمنزل عن بداية الوصلة ،
فكيف عن حقائق القربة !

ويحكى أن ملكا كان يتحظى بجارية له ، وكان لوزيره ميل باطن إليها ؛ فكان
يسعى في مصالحها ، ويرجع جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه . فاتفق أن
عرض عليها الملك حَجَرَيْنِ من الياقوت الأحمر : أحدهما أنف من الآخر ، بمحض من
وزيره ، فتحيرت أيهما تأخذ ! فأوماً الوزير بعينه إلى الحجر الأنف ، وحانت من الملك
التفاتة ، فشاهد عين الوزير وهي مائلة إلى ذلك الجانب ، فبقى الوزير بعدها أربعين سنة
لا يراه الملك قط إلا كاسرا عينه نحو الجانب الذي كان طرفه مائلا إليه ذلك اليوم ،
أى كأن^(١) ذلك خِلقة . وهذا عزم قوى في المراقبة ، ومثله فليكن حال من
يريد الوصول .

ويحكى أيضا أن أميرا كان له غلام يُقِيل عليه أكثر من إقباله على غيره من
مماليكه ، ولم يكن أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة ، ف قيل له في ذلك ، فأحب أن يبين
لهم فضل الغلام في الخدمة على غيره ، فكان يوما راكبا ، ومعه حشمه ، وبالعهد منهم
جبل عليه تلج فنظر الأمير إلى التلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم الغلمان لماذا
ركض ! فلم يلبث إلا قليلا حتى جاء ومعه شيء من التاج ، فقال الأمير : ما أدراك أنى
أردت التلج ! فقال : إنك نظرت إليه ، ونظر السلطان إلى شيء لا يكون إلا عن قصد .
فقال الأمير لغلمانه : إنما أختصه بإكرامى وإقبالى ، لأن لكل واحد منكم شغلا ، وشغلا
مراعاة لحظائى ، ومراقبة أحوالى .

(١) به : « أن » .

وقال بعضهم : من راقب الله في خواطره ، عصمه الله في جوارحه .

ومنها الرضا ، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التي يقضيها الله تعالى عليه ، وایس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصي والفواحش ، أو نسبتها إلى الرب تعالى عنها ؛ فإنه سبحانه لا يرضاها ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۚ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (٢) .

قال رويم : الرضا أن لو أدخلك جهنم لما سخطت عليه .

وقيل لبعضهم : متى يكون العبد راضياً ؟ قال : إذا سرته المصيبة ، كما

سرته النعمة .

قال الشبلي مرة - والجنيد حاضر : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الجنيد : أرى

أن قولك هذا ضيقٌ صدر ، وضيق الصدر يحى من ترك الرضا بالقضاء .

وقال أبو سليمان الدارني : الرضا ألا تسأل الله الجنة ، ولا تستعيز به من النار .

وقال تعالى فيمن سخط قسمته : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا

مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٣) .

ثم نبه على ما حرّمه من فضيلة الرضا ، فقال : ﴿ وَأَرَأَيْتُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ (٤) ،

وجواب « لو » ها هنا محذوف لفهم المخاطب وعلمه به .

(٢) سورة الإسراء ٣٨ .

(١) سورة الزمر ٧ .

(٣) سورة التوبة ٥٨ ، ٥٩ .

وفي حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره « ارضى الله عنهم » ، ولما كان رضا عن عباده مقاما جليلا جداً حذف ذكره ؛ لأن الذكر له لا ينفي عن كنهه ، وحقيقة فضله ، فكان الإضراب عن ذكره أبلغ في تعظيم مقامه .

ومن الأخبار المرفوعة أنه صلى الله عليه وآله قال : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء » ؛ قالوا : إنما قال : « بعد القضاء » لأن الرضا قبل القضاء لا يتصور ، وإنما يتصور توطين النفس عليه ، وإنما يتحقق الرضا بالشيء بعد وقوع ذلك الشيء .

وفي الحديث أنه قال لابن عباس بوصيه : « اعمل لله باليقين والرضا ؛ فإن لم يكن فاصبر ، فإن في الصبر على ما تسكره خيرا كثيرا » .

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله رأى رجلاً من أصحابه ، وقد أجهده المرض والحاجة ، فقال : ما الذي بلغ بك ما أرى ؟ قال : المرض والحاجة ، قال : أولا أعلمك كلاماً إن أنت قلته أذهب الله عنك ما بك ؟ قال : والذي نفسي بيده ما يسرنى بحطى منهما أن شهدت معك بدرأ والحديبية ؟ فقال صلى الله عليه وآله « وهل لأهل بدر والحديبية ما للراضى والقانع ؟ »

وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر والرضا .

قدم سعد بن أبي وقاص مكة بعد ما كُفّت بصره ، فالتفت إليه يسألونه الدعاء لهم ، فقال له عبد الله بن السائب : يا عم إنك تدعو للناس فيستجاب لك ، هلا دعوت أن يرد عليك بصرك ؟ فقال : يا بن أخي ، قضاء الله تعالى أحب إلي من بصرى .

عمر بن عبد العزيز : أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر .

وكان يقال : الرضا اطراح الاقتراح على العالم بالصلاح ، وكان يقال : إذا كان القدر حقاً كان سخطه حقاً .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ حَظِّيَ ، وَمَنْ اطَّرَحَ الاقتراح ، أفلح واستراح .
وكان يقال : كُنْ بِالرِّضَا عاملاً ، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ لَهُ مَعْمُولاً ، وسر إليه عادلاً وإلا
سُرَتْ نحوه معدولاً .

وقيل للحدس : من أين أتى الخلق ؟ قال : مِنْ قَلَّةِ الرِّضَا عَنْ اللَّهِ ، فَقِيلَ : وَمِنْ أَيْنَ
دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ قَلَّةُ الرِّضَا عَنْ اللَّهِ ؟ قال : من قَلَّةِ المَعْرِفَةِ بِاللَّهِ .
وقال صاحب (١) " سُلُوَانُ الطَّاعِ " : فِي الرِّضَا (٢) :

يَا مَفْرُوعِي فِيمَا يَمْسِي وَرَاحِي فِيمَا مَضَى
عِنْدِي لِمَا تَقْضِيهِ مَا يَرْضِيكَ مِنْ حُسْنِ الرِّضَا
وَمِنْ الْقَطِيمَةِ اسْتَمْبِذْ مَصْرَ حَاوِمِ رَضَا
وقال أيضاً (٣) :

كُنْ مِنْ مَدِيرِ الْحَكِيمِ عَلَا وَجَلْ عَلَى وَجَلْ
وَارْضَ الْقَضَاءَ فَإِنَّهُ حَمَّ أَجَلَ ، وَلَهُ أَجَلُ
وقال أيضاً (٤) :

يَا مَنْ بَرَى حَالِي وَأَنْ لَيْسَ لِي فِي غَيْرِ قَرْنِي مِنْهُ أَوْطَارُ (٥)
وَلَيْسَ لِي مَلْتَحَدٌ دُونَهُ وَلَا عَلَيْهِ لِي أَنْصَارُ
حَاشَا لَذَلِكَ الْمَرْءَ وَالْفَضْلَ أَنْ يَهْلِكَ مَنْ أَنْتَ لَهُ جَارُ
وَإِنْ نَشَأَ هَلِكِي فَهَبْ لِي رَضَا بِكُلِّ مَا تَقْضِي وَتَحْتَارُ

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله عبد الله محمد بن محمد بن ظفر المكي ، المتوفى سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) سلوان الطاع ص ٦٦

(٣) سلوان الطاع ص ٦٦

(٤) سلوان الطاع ص ٦٦ ، ٦٧

(٥) في سلوان الطاع : في غير ما يرضيه أو طار .

عندى لأحكامك يا مالكي قلب كما أنعت صباراً^(١)
كلّ عذاب منك مستمدّب مالم يكن سخطك والنار^(٢)

ومنها العبودية ، وهى أمر وراء العبادة ؛ معناها التعبد والتذلل ، قالوا : العبادة للعوام
من المؤمنين ، والعبودية للخواص من السالكين .

وقال أبو على الدقاق : العبادة لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين .
وسئل محمد بن خفيف : متى نصح العبودية ؟ فقال : إذا طرح كآته على مولاه ،
وصبر معه على بلواه .

وقال بعضهم : العبودية معانقة ما أمرت به ، ومفارقة ما جرت عنه .
وقيل : العبودية أن تسلّم إليه كلك ، وتحمل عليه كلك .
وفى الحديث المرفوع : « نكس عبد الدينار ، ونكس عبد الخبيصة » .
راى أبو يزيد البسطامي رجلاً ، فقال له : ما حرفتك ؟ قال خرّ بنده ، قال : أمان الله
حمارك ؛ لتكون عبداً لله ، لا عبداً للحمار .

وكان ينفذاد فى رباط شيخ الشيوخ ، صوفى كبير اللحية جداً ، وكان مغرّى ،
ومعنى بها أكثر زمانه ، يدهنها ويسرحها ، ويجعلها ليلاً عند نومه فى كبس ، فقام بعض
المریدین إليه فى الليل ، وهو نائم ، فقصها من الأذن إلى الأذن ، فأصبحت كالصريم .
وأصبح الصوفى شاكياً إلى شيخ الرباط ، فجمع الصوفية وسألهم ، فقال المرید : أناقصمتها ،
قال : وكيف فعلت ، وبلك ذلك ا قال : أيها الشيخ ، إنها كانت صنمه ، وكان يعبدها
من دون الله ، فأنكرت ذلك بقلبي ، وأردت أن أجعله عبداً لله لا عبداً للّحية .

(١) هذا البيت ساقط من السلوان .

(٢) فى السلوان : بمدك والنار .

قالوا : وليس شيء أشرف من العبودية ، ولا اسم أنتم للمؤمن من اسمه بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه في ذكر النبي صلى الله عليه وآله ليلة المراج ، وكان ذلك الوقت أشرف أوقاته في الدنيا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ^(١) ۚ ۖ وَقَالَ نَسَالَى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ^(٢) ۚ فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به .
وأنشدوا :

لاندعنى إلّا يساعدها فإنه أشرفُ اسمائى

ومنها الإرادة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ^(٣) ۚ

قالوا : الإرادة هي هذه طريق السالكين ، وهي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله ، وإنما سُميت هذه الصفة إرادة ، لأن الإرادة مقدمة كل أمر ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلما كان هذا الشأن أول الأمر لمن يسلك طريق الله متى إرادة ، تشبهاً به بالقصد إلى الأمور التي هو مقدماتها .

قالوا : والمريد على موجب الاشتقاق : مَنْ له إرادة ؛ ولكن المريد في هذا الاصطلاح مَنْ لا إرادة له ، فما لم يعجزد عن إرادته لا يكون مریداً ، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مریداً .

وقد اختلفوا في العبارات الدالة على ماهية الإرادة في اصطلاحهم ، فقال بعضهم : الإرادة ترك ما عليه العادة ، وعادة الناس في الغالب التعرّيج على أوطان الغفلة ،

(١) سورة الإسراء ١ .

(٢) سورة النجم ١٠ .

(٣) سورة الأنعام ٥٢ .

والركون إلى اتباع الشهوة ، والإخلاد إلى مадعت إليه المنية ، والمريد هو المنسلخ عن هذه الجملة .

وقال بعضهم : الإرادة نهوض القلب ، في طلب الرب ؛ ولهذا قيل : إنها لوعة تهون كل روعة .

وقال : أبو علي الدقاق : الإرادة لوعة في الفؤاد ، ولذعة في القلب ، وغرام في الصبر ، وانزعاج في الباطن ، ونيران تأجج في القلوب .

وقال محمد بن الدينوري : مذعلت أن أحوال الفقراء جد كملها لم أمارح فقيراً ، وذلك أن فقيراً أقدم على ، فقال : أيها الشيخ ، أريد أن تتخذ لي عصيدة ، فجرى على لساني «إرادة وعصيدة» ، فتأخر الفقير ولم أشعر ، فأمرت بأنخذ عصيدة ، وطلبت فلم أجده ، فتركت خبره ، فقيل : إنه انصرف من فوره ، وهو يقول «إرادة وعصيدة» ، وإرادة وعصيدة ، وهام على وجهه ، حتى خرج إلى البادية ، وهو يكرر هذه الكلمة ، فما زال يقول ويرددها حتى مات .

وحكى بعضهم ، قال : كنت بالبادية وحدي ، فضاقت صدري ، فصحت : يا إلهي كلموني ، يا ابن كلموني ! فتهف هاتف : أي شيء ناديت ؟ فقلت : الله ، فقال الهاتف : كذبت ، لو أردته لما ناديت الإنسان ، ولا الجن .

فالمريد هو الذي لا يشغله عن الله شيء ، ولا يفتر آناء الليل وأطراف النهار ، فهو في الظاهر بمنتهى المجاهدات ، وفي الباطن بوصف المكابدات ، فارق الفراش ، ولازم الانكماش ، وتحمل المصاعب ، وركب المتاعب ، وعالج الأخلاق ، ومارس المشاق ، وعانق الأهوال ، وفارق الأشكال ، فهو كما قيل :

ثم قطعت الليل في مهمه لا أسداً أخشى ولا ذيباً

بغلبتي شوقي فأطوى السرى ولم يزل ذو الشوق مغسولها
وقيل : من صفات المریدین التعبُّبُ إليه بالتوكل ، والإخلاص في نصيحة الأمة ،
والأنس بالخلوة ، والصبر على مفاصلة الأحكام ، والإيثار لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل
الجهود في محبته ، والتعرض لكل سبب يوصل إليه ، والقناعة بالخلول ، وعدم الفرار من
القلب ، إلى أن يصل إلى الرب .

وقال بعضهم : آفة المرید ثلاثة أشياء : التزويج ، وكفبه الحديث ، والأسفار .
وقيل : من حكم المرید أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومه غلبة ، وأكله قاقة ،
وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة أن يشير إلى الله فيجده مع الإشارة ، فقيل له : وأي
شيء يستوعب الإرادة ؟ فقال : أن يجد الله بلا إشارة .

وسئل الجنيد : ما المریدین وسماع القصص والحكايات ؟ فقال : الحكايات جند
من جند الله تعالى ، يقوى بها قلوب المریدین . فقيل له : هل في ذلك شاهد ؟ فتلا قوله
تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ ^(١) .

وقال أصحاب الطريقة : بين المرید والمراد فرق ، فالمرید من سلك الرياضة طلبا
للوصول ، والمراد من قاضت عليه العناية الإلهية ابتداء ، فكان مخطوبا لا خاطبا ، وبين
الخاطب والمخطوب فرق عظيم .

قالوا : كان موسى عليه السلام مریدا ، قال : ﴿ رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ^(٢) وكان
محمد صلى الله عليه وسلم مرادا ، قال له : ﴿ أَلَمْ تَسْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ^(٣) ؛ وسئل الجنيد عن

(١) سورة هود ١٢٠ .

(٢) سورة طه ٢٥ .

(٣) سورة الصرح ١ .

للريد والمراد ، فقال : للريد سائر ، والمراد طائر ، ومتى يلحق السائر الطائر !
أرسل ذو النون المصري رجلا إلى أبي يزيد ، وقال له : إلى متى النوم والراحة !
قد سارت القافلة ! فقال له أبو يزيد : قل لأخي : الرجل من ينام أليل كله ، ثم يصبح
في المنزل قبل القافلة . فقال ذو النون : هنيئا له ! هذا الكلام لا تبلفه أحوالنا .

وقد تكلم الحكماء في هذا المقام ، فقال أبو علي بن سينا في كتاب " الإشارات " :
أول درجات حركات العارفين ما يسمونه هم الإرادة ، وهو ما يمتري للمستبصر باليقين
البرهاني ، أو الساكن النفس إلى المقعد الإيماني ، من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى ،
فيتحرك سره إلى القدس ، لينال من روح الاتصال ، فادامت درجته هذه ،
فهو مريد .

ثم إنه لم يحتاج إلى الرياضة ، والرياضة ، موجبة إلى ثلاثة أغراض :
الأول : تنقية مادن الحق عن سائر الإشارات .

والثاني : تطهير النفس الأتارة للنفس الطمئنة ، لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى
التوجهات المناسبة للأمر القدسي ، منصرفة من التوجهات المنافية للأمر السفلي .
والثالث : تلطيف السر لنفسه .

فالأول يعين عليه الزهد الحقيقي ، والثاني يعين عليه عدة أشياء : العبادة المشفوعة
بالفكرة ، ثم الألحان المستخدمة اقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القبول
من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكي ، بمهارة بليغة ، وبنعمة رخيصة ،
وسمت رشيد . والثالث يعين عليه الفكر اللطيف ، والعشق العفيف ، الذي تنأثر فيه
شمائل المعشوق ، دون سلطان الشهوة

ومنها الاستقامة ، وحقيقتها الدوام والاستمرار على الحال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ ^(١) .

وسئل بعضهم عن تارك الاستقامة ، فقال : قد ذكر الله ذلك في كتابه ، قال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ ^(٢) .

وفي الحديث المرفوع : « شَيَّبَتْنِي هُودٌ » ، فقبل له في ذلك ، فقال قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقًا ﴾ ^(٤) ، فلم يقل « سقيناهم » بل ﴿ أسقيناهم ﴾ ، أي جعلنا لهم سقيا دائمة ، وذلك لأن من دام على الخدمة دامت عليه النعمة .

ومنها الإخلاص ، وهو أفراد الحق خاصة في الطاعة بالقصد والتقرب إليه بذلك خاصة ، من غير رياء ومن غير أن يمازجه شيء آخر من تصنع للخلق ، أو اكتساب لمحمدة بين الناس ، أو تحببة مدح ، أو معنى من المعاني ، ولذلك قال أرباب هذا الفن : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة الخلق .

وقال الخواص من هؤلاء القوم : نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاص عبده أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلصا لا مخلصا .

وجاء في الأثر عن مكحول : ما أخلص عبدا لله أربعين صباحا ؛ إلا ظهرت بقايع الحكمة من قلبه على لسانه

(٢) سورة النحل ٩٢
(٤) سورة الجن ١٦ .

(١) سورة فصلت ٣٠ .
(٣) سورة هود ١١٢ .

ومنها الصدق ، وبطاق على معنيين : تجنب الكذب ، وتجنب الرياء ، وقد تقدم القول فيهما .

ومنها الحياء ، وفي الحديث الصحيح : « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » .
وفي الحديث أيضا : « الحياء من الإيمان » ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ^(١) ، قالوا : معناه ألم يستحي !

وفي الحديث أنه قال لأصحابه : « استحيوا من الله حق الحياء » قالوا : إنا لنستحي ونحمد الله . قال : « ليس كذلك ؛ من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وليذكر الموت وطول الليل ، وليترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وقال ابن عطاء : العلم الأكبر الهيبة والحياء ، فإذا ذهب لم يبق خير .

وقال ذو النون : الحب ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يفلق .

وقال السري : الحياء والأنس بطرُقان القلب ، فإن وجدا فيه الزهد والورع خطأ ، وإلا رحلا .

وكان يقال : تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقى الدين ، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فنيَت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قلَّ الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة .

وقال الفضيل : خمسٌ من علامات الشقاء : القسوة في القلب ، وجور المين ، رفلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل .

وفسر بعضهم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرِّ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾^(١) إنها كان لها ضم في زاوية البيت ، فضمت فألقت على وجهه ثوباً ، فقال يوسف : ما هذا ؟ قالت : أستحي منه ، قال : فأنا أولى أن أستحي من الله !
وفي بعض الكتب القديمة : ما أنصفني عبدي ابدعوني فأستحي أن أرده ، وبمصيفي وأنا أراه ، فلا يستحي مني .

ومنها الخربة ؛ وهو ألا يكون الإنسان بقلبه رقيقاً من المخلوقات ؛ لا من أغراض الدنيا ، ولا من أغراض الآخرة ؛ فيكون فرداً لفرد لا يسترقه حاجل دنيا ، ولا آجل منى ، ولا حاصل هوى ، ولا سؤال ، ولا قصد ، ولا أرب .

قال له صلى الله عليه وآله بعض أصحاب الصفة : قد عرفت نفسي يا رسول الله عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها وحجرها . قال : صرت حراً .

وكان بعضهم يقول : لو صحت صلاة بغير قرآن ، لصحت بهذا البيت :

أَتَمَّنِّي عَلَى الزُّمَانِ^(٢) مُحَالَا أَنْ تَرَى مَقْلَتَايَ طُلْعَةَ حُرٍّ
وسئل الجنيد عن لم يبق له من الدنيا إلا مقدار مصف فواته ! فقال : المكاتب عبد ما بقي عليه درهم .

ومنها الذكر ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُورُوا اللَّهُ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾^(٣) .

(١) سورة يوسف ٢٤ .

(٢) ب : « من الزمان » ، وما أثبتته من ! .

(٣) سورة الأحزاب ٤١ .

وروى أبو الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « لا أنبشكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند خالقكم ، وأرفها في درجاتكم ، وخير من إعطائكم الذهب والفضة في سبيل الله ، ومن أن تلذثوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » ، قالوا : ما ذلك يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله » .

وفي الحديث المرفوع : « لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله » .

وقال أبو علي الدقاق : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشور ، ومن سلب الذكر فقد عزل .

وقيل : ذكر الله تعالى بالقلب سيف المریدین ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التي تصدمهم ، وإن البلاء إذا أظلم العبد ففرغ بقلبه إلى الله حاد عنه كل ما يكرهه .

وفي الخبر المرفوع : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها » ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » .

وفي الخبر المرفوع : « أنا جليس من ذكرني » .

وسمى الشبلي وهو يُنشد :

وَأَسْرَمَ لِي اللَّهُ ذِكْرُ لِسَانِي	ذَكَرْتُكَ لَا أُنِي نَيْتُكَ لِحَةٍ
وَهَامَ عَلَيَّ الْقَلْبُ بِالْحَقِّ كَأَن	فَكَدْتُ بِلَا وَجْدٍ أَمُوتُ مِنَ الْهَوَى
شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانٍ	فَلَمَّا أَرَانِي الْوَجْدَ أَنَّكَ حَاضِرِي
وَلَا حِظْتُ مَعْلُومًا بِفَيْرِ عِيَانٍ	تَغْطِطُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكْلَمٍ

ومنها الفتوة ، قال سبحانه مخبراً عن أصحاب الأصنام ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى وأصحاب الكهف : ﴿ إِنَّمَا فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ^(٢) .
وقد اختلفوا في التعبير عن الفتوة ما هي ؟ فقال بعضهم : الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك .

وقال بعضهم : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان .
وقالوا : إنما هتف الملك يوم أحد بقوله .

لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي

لأنه كسر الأصنام ، فسمي بما سمى به أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجعلها جُذاً إذا .
قالوا : وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فقد كسر صنمه ، فاستحق أن يطلق عليه لفظ الفتوة .

وقال الحارث المحاسبي : الفتوة أن تنصف ولا تُنصف .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سئل أبي عن الفتوة ، فقال : ترك ما نهوى لما تخشى .

وقيل : الفتوة ألا تدخر ولا تتندر .

سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن الفتوة ، فقال : ما تقول أنت ؟ قال : إن أعطيتنا شكرنا ، وإن مُنعنا صبرنا . قال : إن الكلاب عندنا بالمدينة هذا شأنها ، ولكن قل : إن أعطيتنا آثرنا ، وإن مُنعنا شكرنا .

• • •

(١) سورة الأنبياء ٦٠ .

(٢) سورة الكهف ١٣ .

ومنها الفراسة ، قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(١) .
 أي للمتفرسين . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنها لاتخطئ » .
 قيل : الفراسة سواطم أنوار لمعت في القلوب ، حتى شهدت الأشياء من حيث أشهدتها
 الحق بإياها ، وكل من كان أقوى إيماناً كان أشد فراسة .
 وكان يقال : إذا صحت الفراسة ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة .

ومنها حسن الخلق ، وهو من صفات العارفين ، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه ، فقال :
 ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلَقَ عَظِيمٌ ﴾ ^(٢) .
 وقيل له صلى الله عليه وآله : أي المؤمنين أفضل إيماناً ؟ فقال : أحسنهم خلقاً ،
 وبالخلق تظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخلق مشهور بخلق .
 وقال بعضهم : حسن الخلق استصغار ما منك ، واستعظام ما إليك .
 وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنكم لن تسموا الناس بأموالكم ، فسموهم
 بأخلاقكم » .

قيل لدى النون : من أكبر الناس هم ؟ قال : أسوأهم خلقاً .
 وكان يقال : ما تخلق أحد أربعين صباحاً بخلق إلا صار ذلك طبيعة فيه .
 قال الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهَّرْ ﴾ ^(٣) أي وخلقك فحسن .
 شتم رجل الأحنف بن قيس ، وجعل يثمه ويشتمه ، فلما قرب الحى وقف ، وقال :
 يا فتى ، إن كان قد بقي في قلبك شيء فقله ، كيلا يسمعك سفهاء الحى فيجيبوك .

(١) سورة الحجر ٧٥ .

(٢) سورة القلم ٤ .

(٣) سورة المدر ٤ .

ويقال : إن معروفاً الكرخي نزل دجلة ليسبح ، ووضع ثيابه ومصحفه ، فجاءت امرأة فاحتملتها ، فتبعها ، وقال : أنا معروف الكرخي ، فلا بأس عليك ! ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا ، قال : أفلك بعل ؟ قالت : لا ، قال : فهاتي المصحف ، وخذي الثياب . قيل لبعضهم : ما أدب الخلق ؟ قال : ما أدب الله به نبيه في قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(١) . يقال : إن في بعض كتب النبوات القديمة : يا عبيدي اذكروني حين تغضب ، اذكروني حين أغضب .

قالت امرأة لمالك بن دينار : يا مرأتى ! فقال : لقد وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة .

قال بعضهم : وقد سئل عن غلام سوء له : لِمَ يَمْسِكُهُ ؟ قال : أتعلم عليه الحلم . وكان يقال : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والصديق عند الحاجة إليه .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ ^(٢) : الظاهرة نسبة الخلق ، والباطنة تصفية الخلق .

الفضيل : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبنى عابد سيئ الخلق .

خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراري ، فاستقبله جندي فسأله : أين العمران ؟ فأشار إلى القبرة ، فضرب رأسه فشجّه وأدماه ، فلما جاوزه قيل له : إن ذلك إبراهيم بن أدهم

(١) سورة الأعراف ١٩٩ .

(٢) سورة لقمان ٢٠ .

زاهد خراسان افرده إليه يعتذر . فقال إبراهيم : إنك لما ضربتني سألت الله لك الجنة . قال : لم سألت ذلك ؟ قال : علمت أنني أوجر على ضربك لي ، فلم أرد أن يكون نصيب منك الخير ، ونصيبك مني الشر .

وقال بعض أصحاب الجنيد اقدمت من مكة ، فبدأت بالشيخ كي لا يتعني إلي ، فسألت عليه ، ثم مضيت إلى منزلي ، فلما صليت الصبح في المسجد ، إذا أنا به خلت في النصف ، فقلت : إنما جئتكم أمس ثلثا تتعني ! فقال : ذلك فضلك ، وهذا حقك .

كان أبو ذر قلى حوض يسقى إليه ، فزاحه إنسان فكسر الحوض ، فجلس أبو ذر ثم اضطجع فقيل له في ذلك ، فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا غضب الرجل وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه ، وإلا فليضطجع » .

دعا إنسان بعض مشاهير الصوفية إلى ضيافة ، فلما حضر باب داره رده واعتذر إليه . ثم فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة ، والصوفي لا يفض ، ولا يضجر ، فدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخلق ، فقال : إنما تمدحني على خلقي تجد مثله في الكلب ؛ إن دعوته حضر ، وإن زجرته انزجر .

مر بعضهم وقت المهاجرة بسكة ، فألقى عليه من سطح طست رماد ، فنضب من كان في صحبته ، فقال : لا تفضبوا ، من استحق أن يصب عليه النار فصول على الرماد ، لم يجز له أن يفضب .

كان لبعض الخياطين جار يدفع إليه ثيابا فيخيطها ، ويدفع إليه أجرها دراهم زبوا ، فيأخذها ، فقام يوما من حانوته ، واستخلف ولده ، فجاء الجار بالدراهم الزائفة ، فدفعها إلى الولد فلم يقبلها ، فأبدلها بدراهم جيدة ، فلما جاء أبوه دفع إليه الدراهم ، فقال : ويحك ! هل جرى بينك وبينه أمر ؟ قال : نعم ، إنه أحضر الدراهم زبوا ، فردتها فأحضر هذه ،

فقال : بئس ما صنعت ! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملني بالزائف وأصبر عليه ، وأنفها في
بئر ، كي لا يفرّ غيري بها !

وقيل : الخلق السّيء هو أن يضيق قلب الإنسان عن أن يتسع لغير ما تحبه النفس
وتؤثره ، كالسكان الضيق لا يسع غير صاحبه .

وكان يقال : من سوء الخلق أن تقف على سوء خلق غيرك وتعيبه به .
قيل لرسول الله : ادعُ الله على المشركين ، فقال : « إنما بعثت رحمةً ،
ولم أبعث عذاباً » .

دعا على عليه السلام غلاماً له مراراً ، وهو لا يجيبه ، فقام إليه فقال : ألا تسمع
يا غلام ! قال : بلى ، قال : فما حملك على ترك الجواب ؟ قال : أمني لعقوبتك ، قال : اذهب
فأنت حرّ .



ومنها الكتمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استعينوا على أموركم
بالكتمان » .

وقال السري : علامة الحب الصبر والكتمان ، ومن باح بسرنا فليس منا .
وقال الشاعر :

كتمتُ حُبَّكَ حَتَّى مِنْكَ نَكْرَمَةٌ ثُمَّ اسْتَوَى فَيْكَ إِسْرَارِي وَإِعْلَانِي
كَأَنَّهُ غَاضٌ حَتَّى قَاضٍ عَنِ جَسَدِي فَصَارَ سَقَمِي بِهِ فِي جِسْمِ كِتْمَانِي
وهذا ضد ما يذهب إليه القوم من الكتمان ؛ وهو عذر لأصحاب السرّ والإعلان .
وكان يقال : المحبة قاضحة ؛ والله مع تمام .

وقال الشاعر :

لَا جَزَى اللَّهِ دَمْعَ عَيْنِي خَيْرًا وَجَزَى اللَّهِ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي

فاض دمي فليس بكم شيئا ووجدتُ اللسان ذا كتمان
يقال : إن بعض العارفين ، أوصى تلميذه بكتان ما يطلع عليه من الحال ، فلما شاهد
الأمر غلب ، فكان يطلع في بئر في موضع خالٍ ، فيحدثها بما يشاهد ، فنبتت في تلك البئر
شجرة سمع منها صوت يحكي كلام ذلك التلميذ ، كما يحكي الصدا كلام المتكلم ، فأسقط
بذلك من ديوان الأولياء .

وأنشدوا :

أبدا نحن إليكم الأرواح ورسالكم ريمائها والراح
وقلوب أهل وداكم تشاقكم وإلى لقاء جمالكم تراح
وارحةً للماشقين تحمّلوا ثقل الحبسة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائسين تباح

وقال الحسين بن منصور الجلاج :

إني لأكتم من على جواهره كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتننا
وقد تقدمني فيه أبو حسن إلى الحسين ، وأوصى قبله الحسنأ
يارب مكنون علم لو أبوح به لقل لي أنت تمن بعدد الوثنا !
ولاستحل رجال صالحو دمي برؤن أقيع ما يأتونه حسنا

ومنها الجود والتخاء والإبثار ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ
كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ^(١) :

وقال النبي صلى الله عليه وآله : السخى قريب من الله ، قريب من الناس ،

والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس. وإن الجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل.
قالوا : لا فرق بين الجود والسخاء في اصطلاح أهل العربية ، إلا أن الباري سبحانه
لا يوصف بالسخاء ، لأنه يشعر بسماح النفس عقيب التردد في ذلك ، وأما في اصطلاح
أرباب هذه الطريقة ، فالسقاء هو الرتبة الأولى ، والجود بعده ، ثم الإيثار ، فمن أعطى
البعض وأبقى البعض فهو صاحب السقاء ، ومن أعطى الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو
صاحب الجود ، والذي قاسى الضرر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب الإيثار .

قال أسماء بن خارجة الفزاري : ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة طلبها ؛ إن كان
كريمًا صُنْتُ عِرْضَهُ عن الناس ، وإن كان لثيماً صُنْتُ عنه عرضي .

كان مؤرق المجلى يتلطّف في برّ إخوانه ، يضع عندهم الفدرهم ، ويقول : امسكوها
حتى أعود إليكم ، ثم يرسل إليهم : أنتم منها في حل .

وكان يقال : الجود إجابة الخاطر الأول .

وكان أبو الحسن البوشنجي في الخلاء ، فدعا تلميذا له ، فقال انزع عني هذا القميص
وادفعه إلى فلان ، فقيل له : هلا صبرت ! فقال : لم آمن على نفسي أن تغير علي ما وقع لي
من التخلّق معه بالقميص .

رُئيَ عليّ عليه السلام يوماً باكياً ، فقيل له . لم تبكي ؟ فقال : لم يأتني ضيف منذ سبعة
أيام ؛ أخاف أن يكون الله قد أهانني .

أضاف عبد الله بن عامر رجلاً فأحسن قراءه ، فلما أراد أن يرتحل لم يمنه غلمانه . فسئل
عن ذلك ، فقال إنهم إنما يمينون من نزل علينا ، لا من ارتحل هنا .

ومنها الغيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا أحد أغير من الله ، إلا محارم
الفواحش ما ظهر منها وما بطن لغيرته » .

وفي حديث أبي هريرة : « إِنَّ اللَّهَ لِيَفَارَ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيَفَارَ » .

قال : والغيرة هي كراهية المشاركة فيما هو حقك .

وقيل : الغيرة الأنفة والحمية .

وحكى عن السري أنه قرئ بين يديه : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ^(١)) .

فقال لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ ؟ هذا حجاب الغيرة ، ولا أحد أغير من الله .

قالوا : ومعنى حجاب الغيرة ، أنه لما أصر الكافرون على الجحود طاق بهم بأن لم يجعلهم أهلاً لمعرفة أسرار القرآن .

وقال أبو علي الدقاق : إن أصحاب السكل عن عبادته ، هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخلدان ، فاختر لهم البعد ، وأجروهم عن محل القرب ، ولذلك تأخروا .

وفي معناه أنشدوا فقالوا :

أَنَا صَبٌّ مِنْ هَوْبَةٍ وَلَكِنْ مَا أَحْتِيَائِي فِي سُوءِ رَأْيِ التَّمَوِّإِلَى

وفي معناه قالوا : سقيم لا بعاد ، ومريد لا يراد .

وكان أبو علي الدقاق : إذا وقع شيء في خلال المجلس يشوش قلوب الحاضرين ،

يقول : هذا من غيرة الحق ؛ يريد به ألا يتم ما أملتاه من صفاء هذا الوقت .

وأنشدوا في معناه :

قَهَتْ يَأْتِيَانَا حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْمِرَاةِ نَهَاها وَجْهَهُ الْحَسَنُ

وقيل لبعضهم : أتريد أن تراه ؟ قال : لا ، قيل : لم ؟ قال أنزه ذلك الجلال عن

نظر مثلي . وفي معناه أنشدوا :

إِنِّي لِأَحْسُدُ نَاطِرِي عَلَيْكَ حَتَّى أَغْضُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ

وأراك تخطر في شمائلك التي هي ففتني ، فأغار منك عليك
وسئل الشَّيْطَانُ : متى تستريح ؟ قال : إذا لم أر له ذا كرا .

وقال أبو علي الدقاق في قول النبي صلى الله عليه وآله عند مبايعته فرساً من أعرابي
وأنه استغاله فأقاله ، فقال الأعرابي : عمرك الله ، فن أنت ؟ قال صلى الله عليه وآله :
« أنا امرؤ من قريش » ، فقال بعض الصحابة من الحاضرين للأعرابي : كفاك جفاء
الأنعرف نبيك ! فكان أبو علي يقول : إنما قال : « امرؤ من قريش » غيرةً ونوماً
من الأنفة ، وإلا فقد كان الواجب عليه أن يعترف لكل أحد أنه من هو ، لكن
الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي بقوله : « كفاك جفاء
الأنعرف نبيك ! »

وقال أصحاب الطريقة : مساكنة أحد من الخلق للحق في قلبك توجب الغيرة
منه تعالى .

أذن الشَّيْطَانُ مرة ، فلما انتهى إلى الشهادتين ، قال : وحقت لولا أنك أمرتني
ما ذكرتُ معك غيرك .

وسمع رجل رجلاً يقول : جلَّ الله ! فقال له : أحب أن تجله عن هذا .
وكان بعض العارفين يقول : لا إله إلا الله من داخل القلب ، محمد رسول الله من
قُرْطِ الأذن .

وقيل لأبي الفتوح السمروردي - وقد أخذ يحلب ليصلب على خشبة : ما الذي
أباحهم هذا منك ؟ قال : إن هؤلاء دعوني إلى أن أجعل محمداً شريكاً لله في الربوبية ،
فلم أقبل ، فقتلوني .

ومنها التفويض ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) ، فاستوقف من عقل أمره عن الاقتراح عليه ، وأفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه ، فالعاقل تارك للاقتراح ، على العالم بالصالح .

وقال تعالى : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَحْمِلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) ؛ فبعث على تأكيد الرجاء بقوله : ﴿ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

ولما فوض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله وقاه ﴿ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ ^(٣) كما ورد في الكتاب العزيز .

وحقيقة التفويض هي التسليم لأحكام الحق سبحانه ، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) ، فأسّ التفويض والباحث عليه هو اعتقاد المعجز عن مغالبة القدر ، وأنه لا يكون في الخير والشر - أعني الرخص والصحة وسعة الرزق والبلايا ، والأمراض والعِلل وضيق الرزق ، إلا ما أراد الله تعالى كونه ، ولا يصح التفويض ممن لم يعتمد ذلك ولم يعلمه علم اليقين .

وقد بالغ النبي صلى الله عليه وآله في التصريح به والنص عليه بقوله لعبد الله بن مسعود : « ليقُلْ هُتُك ؛ ما قدّر أُنَاك وما لم يقدر لم يَأْتِك ؛ ولو جهِد الخلق أن يَنْفَعوك بشيء لم يَكْتِبْه الله لك لم يقدرُوا عليه ، ولو جهِدُوا أن يَضُرُّوك بشيء لم يَكْتِبْه الله عليك لم يقدرُوا على ذلك » .

(٢) سورة النساء ١٩ .

(٤) سورة التوبة ٥١ .

(١) سورة البقرة ٢١٦ .

(٣) سورة غافر ٤٥ .

وفي صحيح مسلم بن الحجاج أنه قال لأبي هريرة في كلام له : « فإن أصابك شيء فلا تقل : لو فملت كذا لكان كذا ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان ، ولكن قل : ما قدر الله وما شاء فعل . »

وفي صحيح مسلم أيضاً عن البراء بن عازب : « إذا أخذت مضجعتك قل كذا... » إلى أن قال : « وجهت وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ منك إلا إليك . »

وكان يقال : معارضة المريض طبيبه ، توجب تعذيبه . وكان يقال : إنما الكيس الماهر من أمسي^(١) في قبضة القاهر .

وكان يقال : إذا كانت مغالبة القدر مستحيلة ، فما من أعوان تقوده إلى الحيلة .
وكان يقال : إذا التفتت المصادر ، فقوض إلى القادر .
وكان يقال : من الدلالة على أن الإنسان مصروف مغلوب ، ومدير مربوب ، أن يتبدل رأيه في بعض الخطوب ، ويمسى عليه الصواب المطلوب .
وإذا كان كذلك ، فربما كان تدميره في تدميره ، واغتياله من احتياله ، وهلكته من حرّكه .

وفي ذلك أنشدوا :

أبا من يمول في المشكلات	على ما رآه وما دبره ^(٢)
إذا أعضل الأمر فافزع به	إلى من يرى منه ما لم تره
تكن بين عطف يقيل الخطوب	ولطف يهون ما قدره
إذا كنت تجهل عفتي الأمور	ومالك حول ولا مقدره
فليم ذا العنا ، وعلام الأسى	ومم الحذر ، وفيه الشره

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « استسلم » .

(٢) الأبيات لابن ظفر ، وهي في كتابه سلوان المطامع ٨ .

وأنشدرا في هذا المعنى :

يَا رَبَّ مَغْتَبِطٍ وَمَغْجُوطٍ بِأَمْرِ فِيهِ هَلْكَةٌ ^(١)
وَمُنَافِسٍ فِي مُلْكٍ مَا يُشْقِيهِ فِي الدَّارَيْنِ مُلْكُهُ
عَلِمُ الْمَوَاقِبِ دُونَهُ سِتْرٌ ، وَلَيْسَ بِرَأْمٍ هَتَكُهُ
وَمُعَارِضُ الْأَقْدَارِ بِالْآرَاءِ سَتَى الْحَالِ ضَنْكُهُ
فَكُنْ أَمْرًا مَحْضُ الْيَقِينِ نِ وَزَيْفُ الشُّبُهَاتِ سَبْكُهُ
تَفْوِضُهُ تَوْحِيدُهُ وَعِيَادُهُ الْقِسْدَارِ شِرْكُهُ

ومنها الولاية والمعرفة ، وقد تقدم القول فيهما .

ومنها الدعاء والمناجاة ، قال الله تعالى : ﴿ اذْعُوْنِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ^(٢) .

وفي الحديث المرفوع : « الدعاء مخ العبادة » .

وقد اختلف أربابُ هذا الشأن في الدعاء ، فقال قوم : « الدعاء مفتاح الحاجة ،
ومستروح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطربين ، ومتنفس ذوي المآرب .

وقد ذمَّ الله تعالى قوماً فقال : ﴿ وَيَقْبِضُوْنَ اَيْدِيَهُمْ ﴾ ^(٣) فستروه وقالوا : لا يعذبونها
إليه في السؤال .

وقال سهل بن عبد الله التستري : خلق الله الخلق ، وقال : تاجروا فيّ ، فإن لم تفعلوا
فاسمعوا مني ، فإن لم تفعلوا فكونوا بياني ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي .

قالوا : وقد أثنى الله على نفسه ، فقال : ﴿ اَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ اِذَا دَعَاهُ ﴾ ^(٤) ، قالوا :
الدعاء إظهار فاقة العبودية .

(٢) سورة غافر ٦٠

(٤) سورة النمل ٦٢

(١) لابن ظفر ، سلوان الطاع ٨

(٣) سورة التوبة ٦٢ .

وقال أبو حاتم الأعرج : لأن أحرَمَ الدَّعاء أشدَّ حِلٍّ من أن أحرَمَ الإجابة .

وقال قوم : بل السكوت والخمود تحت جريان الحكم والرضا بما سبق من اختيار الحكيم العالم بالمصالح أولى ؛ ولهذا قال الواسطي : اختيار ما جرى لك في الأزل ، خير لك من معارضة الوقت .

وقال النبي صلى الله عليه وآله إخباراً عن الله تعالى : « مَنْ شَهِدَ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أَعْطَى السَّائِلِينَ » .

وقال قوم : يجب أن يكون العبدُ صاحبَ دعاء بلسانه ، وصاحبَ رضا بقلبه ، ليأتي بالأمرين جميعاً .

وقال قوم : إن الأوقات تختلف ، وفي بعض الأحوال يكون الدعاء أفضل من السكوت ، وفي بعض الأحوال يكون بالمكس ، وإنما يعرف هذا في الوقت ، لأنَّ علم الوقت يحصل في الوقت ، فإذا وجد في قلبه الإشارة إلى الدعاء فالدعاء أولى ، وإن وجد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم وأولى .

وجاء في الخبر : « إِنْ أَلَّهَ يُبْفِضُ الْعَبْدَ فَيَسْرِعُ إِجَابَتُهُ بِنُصَا لِسْمَاعِ صَوْتِهِ ، وَأَنَّهُ يَحِبُّ الْعَبْدَ فَيُؤَخِّرُ إِجَابَتَهُ حَبًّا لِسْمَاعِ صَوْتِهِ » .

ومن أدب الدعاء حضور القلب ، فقد روى عنه صلى الله عليه وآله : « إِنْ أَلَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دَعَاءَ قَلْبٍ لَامٍ » .

ومن شروط الإجابة طيب الطعمة وحل المكسب ؛ قال صلى الله عليه وآله لسعد ابن أبي وقاص : « أَطِيبْ كِسْبَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ » .

وينبغي أن يكون الدعاء بعد المعرفة ، قيل لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا ! قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .

كان صالح المري يقول كثيرا : ادعوا : فن أذن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، فقالت له رابعة العدوية : ماذا تقول ؟ : أغلق هذا الباب حتى يستفتح ! فقال صالح : شيخ جهل ، وامرأة علمت .

وقيل : فائدة الدعاء إظهار الفاقة من الخلق ، وإلا فالرب يفعل ما يشاء .

وقيل : دعاء العامة بالأقوال ، ودعاء العابد بالأفعال ، ودعاء العارف بالأحوال .

وقيل : خير الدعاء ما يهيج الأحران والوجد .

وقيل : أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء المضطرب ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا ﴾ .

قال أصحاب هذه الطريقة : السنة للبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدعاء ، والسنة المحققين الواصلين قد خرسست عن ذلك .

وكان عبد الله بن المبارك يقول : مادعوته منذُ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعوا لي أحد .

وقيل : الدعاء سلم المذنبين .

وقال من قال بتقيض هذا : الدعاء مراسلة ، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جليل بعد .

وقالوا : السنة للمذنبين دموعهم .

وكان أبو علي الدقاق يقول : إذا بكى المذنب فقد راسل الله .

وفي معناه أنشدوا :

دُمُوعُ الْفَتَى عَمَّا يَحْتَرِجُ وَأَنْفَاسُهُ تَبْدِينُ مَا الْقَلْبُ بِكُمْ

وقال بعضهم لبعض العارفين : أَدْعُ لِي ، فقال : كفاك من الإجابة ألا نجعل بينك وبينه واسطة .

ومنها التأمي ، قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(١) أي في مصابه وما نيل منه في نفسه وفي أهله يوم أحد ، فلا تجزعوا إن أصيب بعضكم . وجاء في الحديث المرفوع : لا تنظروا إلى مَنْ قَوْكُمْ ، وانظروا إلى مَنْ دُونَكُمْ ، فإنه أجدر ألا تزدروا نعم الله عليكم .
وقالت الخنساء ترى أخاها :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي^(٢)
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزَّتْ نَفْسِي عَنْهُ بِالتَّأْسِي

وحقيقة التأسي تهوين المصائب والنوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك ، ومن هو أرفع محلاً منك .

وقد فسر العلماء قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾^(٣) ؛ قال : إنه لا يهون على أحد من أهل النار عذابه ، وإن تأسى بغيره من المذنبين ، لأن الله تعالى جعل لهم التأسي نافعاً في الدنيا ، ولم يجعله نافعاً لأهل النار مبالغة في تعذيبهم ، ونفياً لراحة تصل إليهم .

(١) سورة الأحزاب ٢١ .

(٢) ديوانها ١٥٢ .

(٣) سورة الزخرف ٣٩ .

ومنها الفقر ، وهو شمار الصالحين ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اللهم أخيني مسكيناً ، وأمتي مسكيناً ، واحشرنى مع المساكين » .

قال اعلی عليه السلام : « إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بأحسن منها ، وهب لك حب المساكين ، فحملك ترضى بهم أتباعاً ، ويرضون بك إماماً » .

وجاء في الخبر المرفوع : « الفقراء الصبر جُلساء الله يوم القيامة » .

وسئل يحيى بن معاذ عن الفقير فقال : ألا تستغنى إلا بالله .

وقال أبو الدرداء : لأن أقع من فوق قصرٍ فأعظم أحب إلى من مجالسة الفنى

لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إياكم ومجالسة الموتى » ، فقيل له : وما الموتى ؟ قال : الأغنياء .

قيل للربيع بن خثيم : قد غلا السمر ، قال : نعم أهون على الله من أن يجيعنا ، إنما يجيع أوليائه .

وقيل ليحيى بن معاذ : ما الفقر ؟ قال : خوف الفقر .

وقال الشبلي : أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لواحدٍ فأنفقها في يوم

واحد ، ثم خطر بباله : « لو أمسكت منها قوت يوم آخر » ، لم يصدق في فقره .

سئل ابن الجلاء عن الفقر ، فسكت ثم ذهب قليلاً ، وعاد فقال : كانت عندي أربعة

دوانيق فضة ، فاستحييت من الله أن أنكلم في الفقر وهى عندي ، فذهبت فأخرجتها ، ثم

قعد فتكلم في الفقر .

وقال أبو علي الدقاق في تفسير قوله صلى الله عليه وآله : « مَنْ تَوَاضَعَ لِفَنَى ذَهَبِ

ثَلَاثًا دِينَهُ ، إِنَّ الْمَرْءَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ ، فَمَنْ تَوَاضَعَ لِفَنَى بِلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ ، ذَهَبَ ثَلَاثًا

دِينَهُ ، فَإِنْ تَوَاضَعَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ ذَهَبَ دِينُهُ كُلُّهُ .

ومنها الأدب ، قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾^(١) : حفظ أدب الحضرة .

قيل إنه عليه السلام لم يمدّ نظره فوق المقام الذي أوصل إليه ليلة شاهد الصدر ، وهي أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه البشرىون .

وفي الحديث للرفوع : « أدبى ربى فأحسن تأديبى » .

وقيل : إن الجنيد لم يمدّ رجلاه في الخلوة عشرين سنة ، وكان يقول : الأدب مع الله أولى من الأدب مع الخلق .

وقال أبو على الدقاق : من صاحب الملوك بغير أدب ، أسلمه الجهل إلى القتل .
ومن كلامه عليه السلام : ترك الأدب يوجب الطرد ، فمن أساء الأدب على البساط ، ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ، ردّ إلى ساحة الدواب .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس في الأدب ، وعندي أن الأدب معرفة الإنسان بنفسه .

وقال الثوري : من لم يتأدّب للوقت ، فوقته مقت .

وقال أبو على الدقاق في قوله تعالى ، حكاية عن أبوب : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسِيءَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٢) . قال : لم يقل : « فارحني » لأنه حفظ آداب الخطاب ، وكذلك قال في قول عيسى : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾^(٣) ، قال : لم يقل : « لم أفل » رعاية لأدب الحضرة .

(١) سورة النجم ١٧

(٢) سورة الأنبياء ٨٣

(٣) سورة المائدة ١١٦

ومنها المحبة ، وهي مقام جليل ، قالوا : المحبة أن تهب كغلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء .

قيل لبعض العرب : ما وجدت من حب فلانة ؟ قال : أرى القمر على جدارها أحسن منه على جذران الناس .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : المحبة أن تنار على محبوبك أن يحبه غيرك .

وقال النصر اباذى : المحبة نوعان : نوع يوجب حقن الدماء ، ونوع يوجب سفك الدماء .

وقال يحيى بن معاذ : المحبة الخالصة ألا تنقص بالجفاء ، ولا تزيد بالبر .

وقيل للنصر اباذى : كيف حالك في المحبة ؟ قال : عدتُ وصال المحبين ، ورزقتُ

حسرتهم ، فهو ذا أنا أحترق فيها . ثم قال : المحبة مجانية السلوة على كل حال .

وأنشدوا :

وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةً فَأَتَى مِنْ لَيْلَى لَهَا غَيْرُ ذَاتِي

وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلَقَهُ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةً بَارِقَ

وجاء في الحديث للرفوع : « المرء مع من أحب » ؛ ولما سمع سمعون هذا الخبر ،

قال : فاز المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، لأنهم مع الله تعالى .

وفي الحديث للرفوع : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله »

ورسوله » ، وهذا يتجاوز حد الجلالة والشرف .

وكان يقال : الحب أوله ختل ، وآخره قتل .

قيل : كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من محبته ، فكتب

إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض ، وما روى بعد ، ولسانه خارج ،

وهو يقول : هل من مزيد !

وأنشد :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ حَقِي وَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكَرُ مَا نَسِيتُ !
شَرِبْتُ الْحَبَّ كَأَسَا بَعْدَ كَأْسٍ فَاسْتَغْدِ الشَّرَابَ ، وَلَا زَوَيْتُ
وَقِيلَ : الْحَبَّةُ سَكْرٌ لَا يَصْحُو صَاحِبُهُ إِلَّا بِمُشَاهَدَةِ مَحْبُوبِهِ ؛ ثُمَّ السَّكْرُ الَّذِي يَحْصُلُ
عِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ لَا يُوصَفُ .

وأنشدوا :

فَأَسْكَرَ الْقَوْمَ دَوْرُ كَأْسٍ وَكَانَ سَكْرِي مِنَ الْمُدِيرِ

ومنها الشوق ، جاء في الخبر المرفوع : إِنَّ الْجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ إِلَى ثَلَاثَةٍ : حُلًى ،
وَسَلْمَانَ ، وَعَمَّارَ .

الشوق مرتبة من مراتب القوم ، ومقام من مقاماتهم . مثل ابن عطاء : الشوق
أَعْلَى أُمِّ الْحُبَّةِ ؟ فَقَالَ : الْحُبَّةُ ، لِأَنَّ الشَّوْقَ مِنْهَا يَتَوَلَّدُ .

ومن الأدعية النبوية الماثورة الدعاء الذي كان يدعوه به عمار بن ياسر رضي الله عنه :
« اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ ، أَحْيَيْ مَاعَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّيْ
مَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةً
الْحَقُّ فِي الرِّضَا وَالنُّغْصِ ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرَ ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَبِيدُ ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ
لَا تَنْقُطُ ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَأَسْأَلُكَ النَّظَرَ إِلَى
وَجْهِكَ » وَالشُّوْقُ إِلَى ثِقَاتِكَ ، مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ . اللَّهُمَّ زِينَا بَرِيَّةِ الْإِيمَانِ ، وَاجْعَلْنَا
هَدَاةً مُهْتَدِينَ . »

قالوا : الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب ، وَحَلَّى قَدْرُ الْحُبَّةِ بِكَوْنِ الشُّوْقِ ،
وَعَلَامَةُ الشُّوْقِ حُبُّ الْمَوْتِ .

وهذا هو السر في قوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) أي أن مَنْ كَانَ صاحب محبة يشمئ لقاء محبوبه ، فمن لا يقنئ ذلك لا يكون صادق المحبة .
قيل لبعض الصوفية : هل تشاق إليه ؟ فقال : إنما الشوق إلى غائب ، وهو حاضر لا يغيب .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتِ ﴾ ^(٢) : إنه تطبيب لقلوب المشتاقين .

ويقال : إنه مكتوب في بعض كتب النبوات القديمة : شوقناكم فلم نشاقوا ، وزمرنا لكم فلم ترقصوا ، وخوفناكم فلم ترهبوا ، ونحننا لكم فلم تحزنوا .

وقيل : إن شعيباً بكى حتى عوى ، فردَّ الله إليه بصره ، ثم بكى حتى عوى ، فردَّ عليه بصره ، ثم كذلك ثلاثاً ، فقال الله تعالى : « إن كان هذا للبكاء شوقاً إلى الجنة فقد أبحثها لك ، وإن كان خوفاً من النار فقد أجرتك منها » . فقال : وحقتك لا هذا ولا هذا ، ولكن شوقاً إليك ، فقال له : « لأجل ذلك أخدمتك نبي وكتبي عشر سنين » .

ومنها الزهد ورفض الدنيا ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَعْدُنَّ عُيُنتَكُمْ إِلَى مَائِمَتِنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(٣) .

وجاء في الخبر أن يوسف عليه السلام كان يجموع في سبي الجذب ، فقيل له : أجموع وأنت على خزائن مصر ! فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجيع .

وكذلك قال علي عليه السلام ، وقد قيل له : أهذا البأس لك ، وهذا ما كورك ، وأنت أمير

(١) سورة البقرة ٩٤

(٢) سورة النكبات •

(٣) سورة طه ١٣١

للمؤمنين ا فقال : نعم ، إن الله فرضَ عَلَى أئمة العِزْلِ أن يقدِّروا لأنفسهم كَضَمَّةَ النَّاسِ ،
كَيْلًا يَتَّبِعُ ^(١) بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ .

ومنع عمر بن الخطاب نفسه عام الرَّمَادَةِ الدَّسَمِ ، وقال : لَا آكُلُهُ حَتَّى يَهْبِئَهُ
المسلمون جميعاً .

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس تفهماً ؛ فَبَهِلَ أَنْ يَلِيَ الْخِلَافَةَ ، قَوَّمتْ ثِيَابَهُ
حِينَئِذٍ بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَقَوَّمتْ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ بِثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ .

واعلم أنَّ بعض هذه المراتب والمقامات التي ذكرناها تقوم قد يكون متداخلاً في
الظاهر ، وله في الباطن عندهم فرق يعرفه مَنْ يَأْنِسُ بَكِتَابِهِمْ ، وقد أثبتنا في تقسيم مراتبهم
وتفصيل مقاماتهم في هذا الفصل بما فيه كفاية .

(١) يتابع به فقره : أى يتلوه ويحمله على الشر .

(٢١٨)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ^(١) .
أَذْخَصُ مَسْئُولٍ حُجَّةً ، وَأَفْطَحُ مُفْتَرٍ مَعْدِرَةً . لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَانَةٌ بِنَفْسِهِ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ ، وَمَا أُنْكَرَ
بِكَ نَفْسِكَ !

أَمَّا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقَظَةٌ ! أَمَّا تَرَحَّمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرَحَّمُ
مِنْ غَيْرِكَ ! فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتَقْطِلُهُ ، أَوْ تَرَى اللَّيْلِي بِالْأَمْرِ يُبْحِضُ
جَسَدَهُ فَتَقْبِكِي رَحْمَةً لَهُ !

فَمَا صَبَرَكَ عَلَى دَائِكَ ، وَجَلَدَكَ عَلَى مُعَابِكَ ، وَعَزَاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ ،
وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ ؛ وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نَفْسٍ ؛ وَقَدْ تَوَرَّطَتْ
بِمَعَاصِيهِ مَذَارِجَ سَطَوَاتِهِ !

فَتَدَاوٍ مِنْ دَاءِ الْفِتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِمَزِيْمَةٍ ، وَمِنْ كَرَى الْقَفَلَةِ فِي نَاطِقِكَ بِيَقَظَةٍ ،
وَكَنَّ لِلَّهِ مُطِيعًا ، وَبَذِ كَرَمِ آنِسًا .

وَتَمَثَّلُ فِي حَالِ تَوَلُّيكَ عَنْهُ ، إِبْقَالَهُ عَلَيْكَ ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ ، وَتَقْفَمُوكَ
بِفَضْلِهِ ، وَأَنْتَ مُتَوَلِّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ .

فَتَعَالَى مِنْ قُوَى مَا أَكْرَمَهُ ! وَتَوَاضَعَتْ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَصِيبَتِهِ !
وَأَنْتَ فِي كَنْفِ سِرِّهِ مُقِيمٌ ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ ! فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ ، وَلَمْ يَنْهَكَ
عَنْكَ سِرُّهُ ، بَلْ آتَى مِنْ لُطْفِهِ مَطَرَفَ عَيْنٍ ؛ فِي نِسَةِ يُحْدِثُهَا لَكَ ، أَوْ سَيْئَةٍ
يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ ، فَمَا فَذَكَ بِهِ لَوْ أَطْلَمْتَهُ .

وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَفَقِّينَ فِي الْقُوَى ، مُتَوَازِينَ فِي الْقُدْرَةِ ،
لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذِمِّمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَعْمَالِ .
وَحَقًّا أَقُولُ أَمَا الدُّنْيَا غَرَمَتْكَ ، وَلَكِنْ بِهَا أَغْتَرَزْتَ ، وَلَقَدْ كَاثَفَتْكَ الْمِطَاطُ ،
وَأَذَنَّتْكَ عَلَى سَوَاءٍ .

وَأَيُّ مَا تَعِدُّكَ مِنْ تَزُولِ الْبَلَاءِ بِحُسْنِكَ ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ
أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغْرِبَكَ . وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهِمٌ ، وَصَادِقٍ مِنْ
خَبَرِهَا مُكْذَّبٌ .

وَلَكِنْ تَعَرَّفَتْهَا فِي الدِّيَارِ الْخَطَايَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنٍ تَذَكَّرِكَ ،
وَبَلَاغٍ مَوْعِظَتِكَ ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ ، وَالشَّجِيعِ بِكَ ! وَلَيْعَمَّ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ
بِهَا دَارًا ، وَتَحَلَّ مَنْ لَمْ يُوْطِنَهَا مَحَلًّا !

وَإِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا غَدًا هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ ، إِذَا رَجَعَتِ الرَّاجِفَةُ ، وَحَقَّتْ
بِحِلَالِهَا الْقِيَامَةُ ، وَلِحَقِّ بِكُلِّ مَنْسِكَ أَهْلُهُ ، وَبِكُلِّ مُعْبُودٍ عِبْدَتُهُ ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ
أَهْلُ طَاعَتِهِ ، فَلَمْ يَجْرِ فِي عَذَابِهِ وَقِطْعَةٍ يَوْمَئِذٍ خَرَقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا هَمْسُ
قَدِيمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَسَكَمَ حُجَّةَ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةً ، وَعَلَانِي عَذْرَ مُنْقَطِعَةً !
فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عَذْرُكَ ، وَتَذَبُّتَ بِحُجَّتِكَ ، وَخَذَّ مَا بَقِيَ لَكَ
مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ ، وَتَبَسَّرَ إِسْقَرِكَ ! وَشِمَّ بَرَقَ النُّجَاوِ ، وَارْحَلْ مَطَايَا النُّشِيرِ .

الْبَرْحُ :

لقائل أن يقول: لو قال : « ما غرك بربك العزيز أو المتعّم » أو نحو ذلك، لكان أولى لأنّ للإنسان المعاتب أن يقول : غرني كرمك الذي وصفت به نفسك !

وجواب هذا أن يقال : إنّ مجموع الصفات صار كشيء واحد ، وهو الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدّلك ، في أي صورة ما شاء ربك . والمعنى : ما غرك بربّ هذه صفته ، وهذا شأنه ، وهو قادر على أن يجعلك في أي صورة شاء . فما الذي يؤثّنك من أن يمسحك في صورة القرّدة والخنازير ونحوها من الحيوانات للعجم . ومعنى الكريم هاهنا : القياض على المواد بالصور ، ومن هذه صفته ينبغي أن يخاف منه تبدل الصورة .

قال عليه السلام : « أدحض مشول حُجّة » المبتدأ محذوف ، والحجة الداحضة : الباطلة .

والمعذرة بكسر الهمزة : العذر .

ويقال : لقد أبرح فلان جهالةً ، وأبرح لؤمًا ، وأبرح شجاعةً ، وأنى بالبرح من ذلك ، أي بالشديد العظيم . ويقال : هذا الأمر أبرح من هذا ، أي أشدّ ، وقتلوه أبرح قتل . وجهالةً منصوب على التمييز .

وقال القليل الراوندي : مفعول به ، قال معناه : جلب جهالةً إلى نفسه ، وليس بصحيح ؛ وأبرح لا يتعدى هاهنا وإنما يتعدى « أبرح » في موضعين : أحدهما أبرحه الأمر ، أي أهجه ، والآخر أبرح زيدٌ عِزًّا ، أي أكرمه وعظمه .

قوله : « ما جراك » بالهمزة ، وفلان جرى القوم ، أي مقدّمهم . وما أنسك بالتشديد ، وروى : « ما آنسك » بالذّ ؛ وكلاهما من أصل واحد ، وثانست

بفلان واستأنستُ بمعنى ، وفلان أنيس ومؤانسى ، وقد أنسى وأنسى كله بمعنى ،
أى كيف لم تستوحش من الأمور التى تؤدى إلى هلكة نفسك .

والْبُولُ : مصدر بَلَّ الرجل من مرضه ، إذا برى ، ويجوز « أبل » ، قال الشاعر :

إذا بَلَّ من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذى هو قَاتِلُهُ (١)

والضاحى لحر الشمس : البارز . وهذا داء محض ، أى مؤلم ، أمضى الجرح إمضاضاً ،

ويجوز « مَضَى » .

وروى : وجَلَدَكَ عَلَى مَصَاتِيكَ ، بصيغة الجمع .

وبيَّاتُ نعمة بفتح الباء : طروقها ليلاً ، وهى من الفاظ القرآن العزيز (٢) .

وتورط : وقع فى الورطة ، بتسكين الزاء ، وهى الهلاك ، وأصل الورطة أرض مطمئنة

لا طريق فيها ، وقد أَوْرَطَهُ ، وورطه توريطاً ، أى أوقعه فيها .

والمدارج : الطرق والمسالك ، ويجوز انتصاب « مدارج » ها هنا ، لأنها مفعول به

صريح ، ويجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض وحذفه ، أى فى مدارج سطواته .

قوله : و « تَمَثَّل » أى وتصور .

ويشتدك بفضلته ، أى بترك بعفوه ، وتسمى العفو والصفح فضلاً ؛ نسبة

للنوع بالجنس .

قوله : « مَطْرَفَ عَيْن » بفتح الراء ، أى زمان طرف العين ، وطرفها : إطباق أحد

(١) الصحاح ٤ : ١٦٤٠ (من غير نسبة) .

(٢) منه قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْهَمُ قَاتِلُونَ ﴾ .

٤ سورة الأعراف .

جفتها على الآخر ، وانتصاب «مطرف» هاهنا على الظرفية، كقولك : وردت مقدم الحاج ،
أى وقت قدومهم .

قوله : « متوازيين فى القدرة » ، أى متساويين ، وروى : « متوازنين » بالنون .
والعظات : جمع عظة ، وهو منصوب على نزع الخافض ، أى كاشتفتك بالعظات ، وروى
« العظات » بالرفع على أنه فاعل . وروى : « كاشتفتك النطاء » .
وآذنتك ، أى أعلمتك .

وعلى سواء ، أى على عدل وإنصاف ، وهذا من الألفاظ القرآنية ^(١) .

والراجفة : الصيحة الأولى ، وحققت بجلائلها القيامة ، أى بأمرها المظام . وللنبيك :
الموضع الذى تذبح فيه النساك ، وهى ذبائح القربان ويمحور فتح السين ، وقد قرئ بهما
فى قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْشِكًا ﴾ ^(٢) .

فإن قلت : إذا كان يلحق بكل معبود عبده ؛ فالنصارى إذن تلتحق بعبسى ،
والغلاء من المسلمين بعلى ، وكذلك اللاتكة ، فما القول فى ذلك ؟

قلت ، لا ضرر فى التعاق هؤلاء بعبوديتهم ، ومعنى الاتعاق أن يؤمر الأتباع فى
الوقوف بالتحيز إلى الجهة التى فيها الرؤساء ، ثم يقال للرؤساء : أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم ؟
فحينئذ يقبرون منهم ، فينجو الرؤساء ، وتهلك الأتباع ، كما قال سبحانه : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِبْنَاكُمْ
كَأَنَّا يَعْبُدُونَ ﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ
يَهُمُّ مُؤْمِنُونَ ^(٣) ، أى إنما كانوا بطيعون الشياطين المضلة لهم ، فعبادتهم فى

(١) من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَاتُهُ فَانِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

٥٨ سورة الأتفال .

(٢) سورة الحج ٦٧ .

(٣) سورة سبأ ٤١ .

الحقيقة للشياطين لآلنا ، وإسهم ما أطاعونا ، ولو أطاعونا لكانوا مهتدين ، وإنما أطاعوا شياطينهم .

ولا حاجة في هذا الجواب إلى أن يقال ما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(١) من تخصيص المصنوع بالآية الأخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ^(٢) .

فإن قلت : فما قولك في اعتراض ابن الزبير على الآية ، هل هو وارد ؟ قلت : لا ، لأنه قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ و « ما » لما لا يعقل ، فلا يرد عليه الاعتراض بالمسيح والملائكة ؛ والذي قاله المفسرون من تخصيص المصنوع بالآية الثانية تسكف غير محتاج إليه .

فإن قلت : فما الفائدة في أن قرآن القوم بأصنامهم في النار ؟ وأي معنى لذلك في زيادة التعذيب والسخط ؟

قلت : لأن النظر إلى وجه العدو باب من أبواب العذاب ، وإنما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التي ضلوا بها ، فكلما رأوها معهم زاد غمهم وحسرتهم . وأيضاً فإنهم قدروا أن يستشفعوا بها في الآخرة ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شيء أبغض إليهم منها .

قوله : « فلم يجر » قد اختلف الرواة في هذه اللفظة ، فرواها قوم « فلم يجر » وهو مضارع « جرى يجرى » ، تقول : ما الذي جرى للقوم ؟ فيقول من سألته : قدم الأمير من السفر ، فيكون المعنى على هذا : فلم يكن ولم يتجدد في ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلا بالحق والإنصاف . وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ ﴾

(١) سورة الأنبياء ٩٨ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

الحساب^(١)، ورواها قوم « فلم يحز »، مضارع « جازَ يحوز »، أى لم يسغ ولم يرخص ذلك اليوم لأحد من المكلفين في حركة من الحركات المحقرات للمستصرات؛ إلا إذا كانت قد فعلها بحق، وعلى هذا يحوز فعل مثلها، ورواها قوم: « فلم يحز » من « جار »، أى عدل عن الطريق، أى لم يذهب عنه سبحانه، ولم يضل ولم يشذ عن حسابه شيء من أمر محقرات الأمور إلا بحقه، أى إلا مالا فائدة في إثباته والمحاسبة عليه، نحو الحركات للباحة والمبئية التي لا تدخل تحت التكليف.

وقال الراوندى: « خَرَقَ بَصْرٍ » مرفوع لأنه اسم مالم بسم فاعله، ولا أعرف لهذا الكلام معنى.

والهمس: الصوت الخفى.

قوله: « فتحرَّ من أمرِك »، تحرَّيت كذا، أى توخيت وقصدته واعتمدته.
قوله: « وتيسَّر لسفرك »، أى هيئ أسباب السفر، ولا تترك لذلك عائقاً.
والشيم: النظر إلى البرق.

ورحلت مطيقي، إذا شددت على ظهرها الرحل، قال الأعشى:

رَحَلْتُ سُمِّيَّةً غَدَوَةً أَجْأَلَهَا غَضَبِي عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بِدَايَا^(٢)

والقشيم: الجدة والانكماش في الأمر.

ومعاني الفصل ظاهرة، وألفاظه الفصيحة تعطى وتدل عليها بما لو أراد للفسر أن

يعبر عنه بمبارة غير عبارته عليه السلام لكان لفظه عليه السلام أولى أن يكون تفسيراً لكلام ذلك المفسر.

(١) سورة غافر ١٧

(٢) مطلع قصيدته، ديوانه ٢٢.

(٢١٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَاللهِ لَأَنْ أُبَيِّتَ عَلَى حَاكِ السَّمَدَانِ مُسَهِّدًا ، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّدًا ،
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْمَبَادِرِ ، وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ
مِنَ الْخَطَايَا ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْيَسَلَى قَوْلُهَا ، وَيَطُولُ فِي
الْأَمْرِ حُلُولُهَا !

وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَقَدْ ائْتَقَ حَتَّى اسْتَحَاخَنِي مِنْ بُرْكُمْ صَاعًا ، وَرَأَيْتُ
صَبِيَانَةً شَمَّتِ الشُّعُورَ ، غُبِرَ الْأَلْوَانُ مِنْ قَهْرِهِمْ ، كَانَمَا سُودَّتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعِظِيمِ ،
وَمَا وَدَّعِي مَوْكِدًا ، وَكَرَّرَ عَلَى الْقَوْلِ مُرَدَّدًا ، فَأَضْغَيْتُ إِلَيْهِ تَمِيمِي ، فَظَنُّ أُنَى أَبِيئِهِ
دَيْبِي ، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي ، فَأُحِبُّتُ لَهُ حَدِيدَةً ، ثُمَّ أَذْنَبْتُهَا مِنْ
جِسْمِهِ لِعَقْرِ نَهَا ، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنْفٍ مِنْ أَمِيهَا ، وَكَادَ أَنْ يَخْتَرِقَ مِنْ مَيْسَمِيهَا ،
فَقُلْتُ لَهُ : تَكَلَّمْتَ النَّوَاكِلُ بِاعْقِيل ! أَتَيْنُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحَاهَا إِنْسَانُهَا لِلْعَبْرِ ،
وَتَجَرَّيْتُ إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِنَغْصِيهِ ! أَتَيْنُ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتِنُ مِنْ لَفَى !

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ طَرَفَنَا بِسَلْفُوقَةٍ فِي وَعَائِيهَا ، وَمَعْجُونَةٌ شَنِتُّهَا ؛ كَأَنَّمَا
عَجَّتْ بِرِيفِي حَيْفَ أَوْ قَيْئِيهَا ، فَقُلْتُ : أَمِلَّةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ
عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ ! فَقَالَ : لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ؛ وَلَسَكُنَّهَا هَدِيَّةٌ . فَقُلْتُ : هَبْ لَكَ الْهَبُولُ !
أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَنْ تَنْتَحِي لِنَخْدَعَنِي ! أَعْتَظِطُ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ ! وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ
الْأَقَالِيمَ السَّبْمَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا ، عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أُسْلِبَهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ

مَا فَعَلْتُهُ ؛ وَإِنْ دُنِيََا كَمْ عِنْدِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا .
مَا لِي لِي وَلَنَعِيمٍ يَفْقَى ؛ وَآذَةٌ لَا تَبْقَى ا نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ ، وَقُبْحِ
الزَّلَلِ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ .

البَّيْحُ :

السَّعْدَانُ : نَبْتُ ذَوْ شَوْكٍ ؛ يُقَالُ لَهُ : حَكَّ السَّعْدَانُ وَحَسَسَكَ السَّعْدَانُ ؛ وَتَشْبَهُ
بِهِ حَلْمَةُ النَّدَى ، فَيُقَالُ : سَعْدَانَةُ النَّنْدَوَةِ ، وَهَذَا التَّبْتُ مِنْ أَفْضَلِ مِرَاعِي الْإِبِلِ ، وَفِي
الْمَثَلِ « مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ » ؛ وَنُونُهُ زَائِدَةٌ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ « فَعْلَالٌ » غَيْرِ
مُضَاعَفٍ ، إِلَّا « خَزْعَالٌ » وَهُوَ ظُلْعٌ يُلْحَقُ النَّاقَةُ ، وَ« قَهْقَارٌ » ، وَهُوَ الْحَجَرُ الصَّلْبُ ،
وَ« قَسْطَالٌ » وَهُوَ الْغِيَارُ .

وَالسَّهْدُ : الْمَنْعُوعُ النَّوْمُ ، وَهُوَ السَّهَادُ .

وَالْأَغْلَالُ : الْقَيْودُ . وَالنَّصْفُ : الْمَقِيدُ . وَالْخَطَامُ : عُرُوضُ الدُّنْيَا وَمَتَاعُهَا ، شَيْءٌ
لَزْوَالِهِ وَسُرْعَةُ فَنَائِهِ بِمَا يَتَحَطَّمُ مِنَ الْعِيدَانِ وَيَقْكَسِرُ .

ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ أَظْلَمَ النَّاسُ لِأَجْلِ نَفْسٍ تَمُوتُ سَرِيعًا - يَعْنِي نَفْسَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ !
فَإِنْ قُلْتُ : أَلَيْسَ قَوْلُهُ : « عَنْ نَفْسٍ بِسُرْعٍ إِلَى الْإِبِلَى قَعُولُهَا » يُشْعِرُ بِمَذْهَبٍ مِنْ
قَالَ بِقَدَمِ الْأَنْفُسِ ، لِأَنَّ الْقَعُولَ الرَّجُوعَ ، وَلَا يُقَالُ فِي مَذْهَبِهِ لِلْمَسَافِرَةِ : قَافِلَةٌ إِلَّا إِذَا
كَانَتْ رَاجِعَةً .

قُلْتُ : لَا حَاجَةَ إِلَى الْقَوْلِ بِقَدَمِ الْأَنْفُسِ مُحَافِظَةً عَلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ
النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ حَادِثَةً فَقَدْ كَانَ أَصْلُهَا الْعَدَمَ ، فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عَدِمَتْ نَفْسُهُ فَرَجِعَتْ
إِلَى الْعَدَمِ الْأَصْلِيِّ ، وَهُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ بِالْإِبِلَى .

وأملق : افتقر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ ^(١) .
 واستأخني : طلب مني أن أعطيه صاعاً من الحنطة ، والصاع أربعة أمداد ، والمدُّ
 رطل وثلاث ، فجمع ذلك خمسة أرطال ، وثلاث رطل ، وجمع الصاع أصوع ، وإن
 شئت همزت . والصُّواع لغة في الصاع ، ويقال : هو إناء يشرب فيه .
 والعِظْلَم ، بالكسرة في الحرفين : نبت يصنع به ما يراد أسوداده ، ويقال :
 هو الوسمة :

وشعث الألوان ، أي غبر .

وأصفيت إليه : أملتُ سمى نحوه .

وأَتبع قياده : أطيعه وأنقاد له .

وأحيت الحديد في النار ، فهي محمأة ، ولا يقال : حيت الحديد .

وذى دَنف ، أي ذى سقم مؤلم .

ومن ميسمها : من أثرها في يده .

وكلتلك التواكل ، دعاء عليه ، وهو جمع ثاكلة ، وفواعل لا يجيء إلا جمع

المؤنث إلا فيما شذَّ ، نحو فوارس ، أي ثكلتك نساؤك .

قوله : « أحماها إنسانها » ، أي صاحبها ، ولم يقل « إنسان » ، لأنه يريد أن يقابل

هذه اللفظة بقوله : « حبارها » .

وسجَّرها ، بالتخفيف : أوقدها وأحماها ، والسَّجور ما يسجر به القنور .

قوله : « بملقوفة في وعائها » ، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الخلواء

تأثق فيه ، وكان عليه السلام يُبغض الأشعث ، لأنَّ الأشعث كان يُبغضه ، وغلن الأشعث

أنه يستميله بالمهاداة لغرض دنيوى كان في نفس الأشعث ، وكان أمير المؤمنين

عليه السلام بفطن لذلك ويعلمه ، ولذلك ردت هدية الأشعث ، ولولا ذلك لقبها ، لأن النبي صلى الله عليه وآله قبل الهدية ، وقد قبل على عليه السلام هدايا جماعة من أصحابه ، ودعاه بعض من كان يأنس إليه إلى حلّوا عملها يوم نوروز فأكل وقال : لم تحبّت هذا ؟ فقال : لأنه يوم نوروز ، فصعبت . وقال : نورزوا لفا في كل يوم إن استطعتم . وكان عليه السلام من لطافة الأخلاق وسجاجة الشيم على قاعدة عجيبة جميلة ، ولكنه كان ينفر عن قوم كان يعلم من حالهم الشنآن له ، وعن محاول أن يصانه بذلك عن مال المسلمين ، وهيات حتى يلين لضر من الماضغ الحجر !

وقال : بملفوفة في وعائها ، لأنه كان طبق منطى .

ثم قال : « ومعجونة شذّتها » ، أي أبيضتها ونفرت عنها . كأنها عجنت بريق الحية أو بقيتها ، وذلك أعظم الأسباب للنفرة من المأكول . وقال الراوندي : وصفها باللطافة فقال : كأنها عجّنت بريق الحية ، وهذا تفسير أبعد من الصحيح .

قوله : « أصيلة » ، أم زكاة أم صدقة ؛ فذلك محرم علينا أهل البيت ، الصلة : المطيعة لا يراد بها الأجر ، بل يراد وصلة التقرب إلى اللوصول ، وأكثر ما تفعل للذكر والصيت . والزكاة : هي ما تجب في النصاب من المال .

والصدقة ها هنا هي صدقة التطوع ، وقد تسمى الزكاة الواجبة صدقة ، إلا أنها هنا هي النافلة .

فإن قلت : كيف قال : « فذلك محرم علينا أهل البيت » ، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة ، ولا يحرم عليهم صدقة التطوع ، ولا قبول الصلّات ؟ قلت : أراد بقوله : « أهل البيت » الأشخاص الخمسة : محمدا ، وعلياً ، وفاطمة ، وحسناً ، وحسيناً

عليهم السلام، فهؤلاء خاصة دون غيرهم من بني هاشم، محرم عليهم الصلة وقبول الصدقة، وأما غيرهم من بني هاشم فلا يحرم عليهم إلا الزكاة الواجبة خاصة .

فإن قلت : كيف قلت : إن هؤلاء الخمسة يحرم عليهم قبول الصلوات ، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صلة معاوية ؟

قلت : كلاً لم يقبل صلته ، ومعاذ الله أن يقبلاها ! وإنما قيل منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقوقهما من بيت المال ، فإن سهم ذوى القربى منصوص عليه في الكتاب العزيز ، ولهما غير سهم ذوى القربى سهم آخر الإسلام من الغنائم .

قوله : « هبلك التَّهْبُول » أى تكلك أمك ، والتَّهْبُول التى لها عادة بشكل الولد .
فإن قلت : ما الفرق بين مختبط ، وذى جنة ، ويهجر ؟

قلت : المختبط : المصروع من غلبة الأخلاط السوداء أو غيرها عليه ، وذو الجنة من به مس من الشيطان . والذي يهجر هو الذى يهذى فى مرض ليس بصرع كالمحموم والمبرسم ونحوهما .

وجلب الشميرة ، بضم الجيم : قشرها ، وأجلب وأجلبة أيضاً جليلة نملو الجرح عند البرء ، يقال منه : جلب الجرح يجلب ويجلب ، وأجلب الجرح أيضاً ، ويقال للجليلة التى تجعل على القتب جلبة أيضاً .

وتقتضها بفتح الصاد ، والماضى تقيض بالكسر .

[نبذ من أخبار عقيل بن أبي طالب]

وعقيل ، هو عقيل بن أبي طالب - عليه السلام - بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأمه وأبيه ، وكان بنو أبي طالب أربعة : طالب ، وهو أسن من عقيل بعشر سنين ، وعقيل وهو أسن من جعفر بعشر سنين ، وجعفر وهو أسن من علي بعشر سنين ، وعلي وهو أصغرهم سنًا ، وأعظمهم قدرًا ، بل وأعظم الناس بعد ابن عمه قدرًا .

وكان أبو طالب يحب عقيلًا أكثر من حبه سائر بنيهِ ، فلذلك قال للنبي صلى الله عليه وآله وللمعبس حين أتياه ليقسما بينهما عام المحل ، فيخفقا عنه ثقلهم : « دَعُوا لِي عَقِيلًا ، وَخَذُوا مَن شِئْتُمْ » ، فأخذ المعبس جعفرًا ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله عليًا عليه السلام .

وكان عقيل يكنى أبا يزيد ، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « يَا أَبَا يَزِيدَ ، إِنِّي أَحَبُّكَ حُبِّينِ : حُبًّا لِقَرَابَتِكَ مِنِّي ، وَحُبًّا لِمَا كُنْتَ أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إِيَّاكَ » . أخرج عقيل إلى بدر مكرهاً كما أخرج العباس ، فأسيرَ وقْدِي ، وعاد إلى مكة ، ثم أقبل مسلماً مهاجراً قبل الحديبية ، وشهد غزاة مؤتة مع أخيه جعفر عليه السلام ، وتوفي في خلافة معاوية في سنة خمسين ، وعمره ست وتسعون سنة .

وله دارٌ بالمدينة معروفة ، وخرج إلى العراق ، ثم إلى الشام ، ثم عاد إلى المدينة ، ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً من حروبه أيام خلافته ، وعرض نفسه وولده عليه فأعفاه ، ولم يكلفه حضور الحرب .

وكان أنسب قريش وأعلمهم بأيامها ، وكان مبعثاً إليهم ، لأنه كان يمد مسأولهم .

وكانت له طينسة تطرح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيصلى عليها ،
ويجتمع إليه الناس في علم النسب وأيام العرب ، وكان حينئذ قد ذهب بصره ، وكان
أسرع الناس جوابا ؟ وأشدهم عارضة .

كان يقال : إن في قريش أربعة يُتبعكم إليهم في علم النسب وأيام قريش ، ويرجع
إلى قولهم : عقيل بن أبي طالب ، ومخرمة بن نوفل الزهري ، وأبو الجهم بن حذيفة
المدوي ، وحويط بن عبد المزي العامري .

واختلف الناس في عقيل ؛ هل النحق بمعاوية وأمير المؤمنين حي ؟ فقال قوم : نعم ،
وروي أن معاوية قال يوما وعقيل عنده : هذا أبو زيد ، لولا علمه أني خير له من أخيه
لما أقام عندنا وتركه . فقال عقيل : أخي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ،
وقد آثرت دنياي ، أسأل الله خاتمة خير .

وقال قوم : إنه لم يمد إلى معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ واستدلوا
على ذلك بالكتاب الذي كتبه إليه في آخر خلافته ، والجواب الذي أجابه عليه السلام ،
وقد ذكرناه فيما تقدم ، وسيأتي ذكره أيضا في باب كتبه عليه السلام ، وهذا القول هو
الأظهر عندي .

• • •

وروي الدائقي ، قال : قال معاوية يوما لعقيل بن أبي طالب : هل من حاجة فأقضيها
لك ؟ قال : نعم جارية عُرِضت علي وأبي أصحابها أن يبيعوها إلا بأربعين ألفا ، فأحب
معاوية أن يمازحه فقال : وما تصنع بجارية قيمتها أربعون ألفا وأنت أمي تجزئ
بجارية قيمتها خمسون درهما قال : أرجو أن أطأها فتلد لي غلاما إذا أغضبته يضرب
عنقك بالسيف . فضحك معاوية : وقال : ما زحناك يا أبا يزيد ! وأمر فابتيعت له الجارية

التي أولد منها مسلماً ، فلما أتت على مسلم ثمانى عشرة سنة - وقد مات عقيل أبوه - قال معاوية : يا أمير المؤمنين ، إن لى أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإنى أعطيت بها مائة ألف . وقد أحيت أن أبيعك إياها ، فادفع لى ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ، ودفع الثمن إليه .

فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكتب إلى معاوية : أما بعد ، فإنك غررت غلاماً من بنى هاشم ، فابتعت منه أرضاً لا يملكها ، فاقبض من الغلام ما دفعته إليه ، واردد إلينا أرضنا .

فبعث معاوية إلى مسلم ، فأخبره ذلك ، وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال : اردد علينا مالنا ، وخذ أرضك ، فإنك بعت مالنا لك ، فقال مسلم : أما دون أن أضرب رأسك بالسيف فلا ، فاستلقى معاوية ضاحكاً يضرب برجله ، فقال : يا بنى ، هذا والله كلام قاله لى أبوك حين ابتعت له أمك .

ثم كتب إلى الحسين : إنى قد رددت عليكم الأرض ، وسوَّغتُ مسلماً ما أخذ . فقال الحسين عليه السلام : أيثم يا آل أبى سفيان إلا كرموا !

وقال معاوية لعقيل : يا أبا يزيد ، أين يكون عمك أبو لهب اليوم ؟ قال : إذا دخلت جهنم ، فاطلبه تجده مضاجعاً لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية .

وقالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة : يا بنى هاشم ، لا يحبكم قلبى أبداً ، أين عنى ؟ أين أخى ؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة ، ترى آناهم الماء قبل شفاهم ، قال : إذا دخلت جهنم ، نخذلى قلبى شمالك .

سأل معاوية عقيلاً عن قصة الحديدة المحمّاة للذكورة ، فبكى وقال : أنا أحدثك
يامعاوية عنه ، ثم أحدثك عما سألت ، نزل بالحسين ابنه ضيف ، فاستسلف درهما اشترى
به خبزاً ، واحتاج إلى الإدام فطلب من قنبر خادمهم ، أن يفتح له زقاق من زقاق مسل
جاءتهم من اليمن ، فأخذ منه رطلاً ، فلما طلبها عليه السلام ليقيسها ، قال : يا قنبر ، أظن
أنه حدث بهذا الزق حدث ! فأخبره ، فنضب عليه السلام ، وقال : عليّ بحسين افرغ عليه
الدرة ، فقال : بحقّ عمي جعفر - وكان إذا سئل بحقّ جعفر سَكَن - فقال له : ما حلتك أن
أخذت منه قبل القسمة ؟ قال : إن لنا فيه حقاً ، فإذا أعطيناه رددناه ، قال : فذاك أبوك !
وإن كان لك فيه حقّ ، فليس لك أن تنزع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم ! أما
لولا أنّي رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقبل ثنيّتك لأوجعتك ضرباً ، ثم دفع إلى
قنبر درهما كان مصروراً في رداؤه ، وقال : اشتر به خبز مسل تقدّر عليه .

قال عقيلاً : والله لسكّاني أنظر إلى يديّ هلّ ، وهي كلّى فم الزق ، وقنبر يقليب
المسل فيه ، ثم شدّه وجعل يبكي ، ويقول : اللهم اغفر لحسين فإنه لم يعلم !

قال معاوية : ذكرت من لا ينكر فضله ، رحم الله أبا حسن ، فلقد سبق من كان
قبله ، وأهجر من يأتي بعده ! هلمّ حديث الحديدة .

قال : نعم ؛ أقوى وأصابني ضحضة شديدة ، فسألته فلم تندّ صفاته ، فجمعت صبياني
وجثته بهم ، والبؤس والضرّ ظاهران عليهم ، فقال : اتفق عشيّة لأدفع إليك شيئاً ، فجمته
يقودني أحد ولدي ، فأمره بالتفتّح ، ثم قال : ألا قدونك ، فأهويت - حريصاً قد غلبني
الجنس ، أغلقتها صرّة - فوضعتُ يديّ كلّى حديدة تلهب ناراً ، فلما قبضتها نبذتها ،
وخرت كما ينحور النور تحت يد جازره ، فقال لي : شكّلتك أمك ! هذا من حديدة

أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وبى غداً إن سُكِّنا في سلاسل جهنم ! ثم قرأ :
(إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ)^(١) .

ثم قال : ليس لك عندى فوق حقك الذى فرضه الله لك إلا ما ترى ، فانصرف
إلى أهلك .

فجمل معاوية يتمجّب ، ويقول : هيهات هيهات ! عَقِمَت النساء أن يلدن مثله !



(٢٢٠)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللهم صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِفْتَارِ ، فَأَسْتَزِقَ طَائِلِي رِزْقِكَ ،
وَأَسْقِطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ ، وَأُبْتَلِيَ بِحَمْدٍ مِّنْ أَعْطَانِي ، وَأَفْتَنَ بِذَمٍّ مِّنْ مَّنَعَنِي ،
وَأَنْتَ مِن وَرَاء ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالنَّمْرِ ؛ ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .



الشرح :

صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ ، أى استره بأن ترزقنى يساراً ونزوة ، أستغنى بهما عن
مسألة الناس .

ولا تبذل جاهى بالإفتار ، أى لا تسقط مروءتى وحرمتى بين الناس بالفقر الذى احتاج
معه إلى تكفف الناس .

وروى أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد رقت حاله في آخر عمره ،
لأن عبد الملك جفاه ، فراح يوماً إلى الجمعة ، فدعا فقال : اللهم إني عودتني عادة
جريت عليها ، فإن كان ذلك قد انقضى ، فاقبضني إليك . فلم يلحق الجمعة الأخرى .
وكان الحسن بن علي عليه السلام يدعو فيقول : « اللهم وسع علي فإنه لا يسعني
إلا الكبير » .

قوله : « فاسترزق » منصوب لأنه جواب الدعاء ، كقولهم : ارزقني بغير فاعل عليه .
بين عليه السلام كيفية تبذل جاهه بالإفتار ، وفسره فقال : بأن أطلب الرزق ممن يطلب
منك الرزق .

وأستعطف الأشرار من الناس ، أي أطلب عاطفتهم وإفضالهم ، ويلزم من ذلك
أمران محذوران :

أحدهما أن أبطل بحمد المعطي .

والآخر أن أفتن بدم المانع .

قوله عليه السلام : « وأنت من وراء ذلك كله » مثل يقال للمحيط بالأمر ،
القاهر له ، القادر عليه ، كما نقول للملك العظيم : هو من وراء وزرائه وكتابه ، أي مستعذمتهم
لتقبيهم وتعقبهم ، واعتبار حركاتهم ، لإحاطته بها وإشرافه عليها .

ووليّ ، مرفوع بأنه خير المبتدأ ، ويكون خبراً بعد خبر ، ويجوز أن يكون
« وليّ » هو الخبر ، ويكون « من » وراء ذلك ، جملة مركبة من جار ومجرور
منصوبة الموضع ؛ لأنه حال .

(٢٢١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

دَارُ بِالْبَلَاءِ مَخْشُوفَةٌ ، وَبِالْفَدْرِ مَعْرُوفَةٌ . لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا ، وَلَا يَسْلَمُ نَزَالُهَا .
أَحْوَالُ مُخْتَلِفَةٌ ، وَتَارَاتُ مُتَصَرِّفَةٌ ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا ^(١) مَقْدُومٌ ،
وَأَمَّا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدِفَةٌ ، تَرْمِيهِمْ بِسَهَامِهَا ، وَتُقْذِفُهُمْ بِحِصَامِهَا .

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ
مَضَى قَبْلَكُمْ ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَهْمَارًا ، وَأَقْصَرَ دِيَارًا ، وَأَبْقَدَ آثَارًا ؛
أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَاحُهُمْ زَاكِدَةً ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ،
وَأَثَارُهُمْ عَافِيَةً ، فَاسْتَبَدَّلُوا بِالْقُصُورِ لِلشَّيْئَةِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمُهْدَةِ ؛ الصُّخُورَ
وَالْأَخْجَارَ الْمُسْفَدَةَ ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ بِنَاوُهَا ،
وَشِيدَ بِالْثَّرَابِ بِنَاوُهَا ، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ ، وَمَسَاكِنُهَا مُقْتَرِبٌ ، بَيْنَ أَهْلِ تَحَلَّةٍ مُوَحِّشِينَ ؛
وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُنْشَاغِلِينَ ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطَانِ ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ ،
عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ ، وَدُنُو الدَّارِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ ، وَقَدْ طَعَنَهُمْ
بِكُنْكَالِهِ الْيَلَى ، وَأَكْتَثَّهُمُ الْجِنَادِلُ وَاللُّغَرَى ؛

وَكَأَنَّ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَارْتَهَنْتُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ ، وَضَعْتُمْ
ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعَ .

فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ ، وَبُسِطَتْ الْقُبُورُ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ

(١) ب : فيها .

نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١﴾ .

الشرح :

بالبلاء محفوفة : قد أحاط بها من كل جانب .

وتارات : جمع تارة ، وهي المرة الواحدة . ومتصرفة : منتقلة متحوّلة .

ومستهدفة بكسر الدال : منتصبه مهيأة الرمي ، وروى : « مستهدفة » بفتح الدال على المفعولية ، كأنها قد استهدفتها غيرها ، أى جعلها أهدافا .

ورباحهم راكدة : ساكنة . وآثارهم عافية : مندرسة .

والقصور المشيدة . العالية ، ومن روى : « المشيدة » بالتخفيف وكسر الشين ، فعناء

للمعولة بالشيد ، وهو الحصن .
والتأرق : الوسائد .

والقبور المأخذة : ذوات اللعود .

وروى : « والأحجار المسندة » بالتشديد .

قوله عليه السلام : « قد بُني على الخراب فناؤها » ؛ أى بنيت لالتكن الأحياء فيها
كما تبنى منازل أهل الدنيا .

والكاكل : الصنم ؛ وهو هاهنا استعارة .

والجنادل : الحجارة . وبمئرت القبور : أثيرت .

وتبلو كل نفس ما أسلفت : تخبر وتعلم جزاء أعمالها ، وفيه حذف مضاف ، ومن

قرأ : « تنلو » بالتاء بقطعين ، أى تقرا كل نفس كتابها . وضل عنهم ما كانوا يفتنون :
بطل عنهم ما كانوا يدعون به ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء .

[ذكر بعض الآثار والأشعار الواردة في ذم الدنيا]

ومن كلام بعض البلغاء في ذم الدنيا : أما بعد ، فإن الدنيا قد عانت نفسها بما أبدت
من تصرفها ، وأنبات عن مساوئها بما أظهرت عن مصارع أهلها ، ودلت على عورائها
بتغير حالاتها ، ونطقت السنة العبر فيها بزوالها ، وشهد اختلاف شئونها على فنائها ، ولم يبق
لمرتاب فيها ريب ، ولا ناظر في عواقبها شك ، بل عرفها جل من عرفها معرفة يقين ،
وكشفوها أوضح تكشيف ، ثم اختلجهم الأهواء عن منافع العلم ، ودلتهم الآمال بفرور ،
فلججت بهم في غمرات العجز ، فسبحوا في بحورها موقنين بالهلكة ، ورتعوا في عراصها
عارفين بالخدعة ، فكان يقيهم شكاً ، وعلمهم جهلاً ، لا بالعلم انتفعوا ، ولا بما عابوا
اعتبروا . قلوبهم عالمة جاهلة ، وأبدانهم شاهدة غائبة ، حتى طرقتهم المنية ، فأهملتهم عن
الأمنية ، فبغتتهم القيامة ، وأورثتهم الندامة ، وكذلك الهوى حلت مذاقته ، وصمت عاقبته ،
والأمل يُنسى طويلاً ، وبأخذ وشيكا ، فانتفع امرؤ بعلمه ، وجاهد هواه أن يضلّه ، وجانب
أمله أن يفرّه ، وقوى يقينه على العمل ، ونفى عنه الشك بقطع الأمل ، فإن الهوى والأمل
إذا استضعفا اليقين صرّعا ، وإذا تعاونا على ذي غيلة خدعا ، فصريرهما لا ينهض سالما ،
وخدبهما لا يزال نادما ، والقوى من قوى عليهما ، والحازم من احترس منهما . ألبسنا
الله وإياكم حجة السلامة ، ووقانا وإياكم سوء العذاب

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ • ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ • مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴾ ^(١) .

قال منصور بن عمار لأهل مجلده : ما أرى إساءة تسكبر على عفو الله فلا تيأس ، وربما آخذ الله على الصغير فلا تأمن ، وقد علمت أنك بطول عفو الله عنك عثرت بمجالس الاغترار به ، ورضيت لنفسك المقام على سخطه ، ولو كنت تماقب نفسك بقدر تجاوزه عن سيئاتك ، ما استقر بك لججاج فيما نهيت عنه ، ولا قصرت دون اللبالة فيه ، ولكنك رهين غفلتك ، وأسير حيرتك .

قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب : قدم علينا بعبادان راهب من الشام ، ونزل دبر ابن أبي كبشة ، فذكروا حكمة كلامه ، فحلى ذلك على لقاؤه ، فأتيته وهو يقول : إن لله عباداً سميت بهم همهم فهووا عظيم الدخاير ، فالتمسوا من فضل سيدهم توفيقاً يبينهم سموهم الهم فإن استطعتم أيها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا بيمض أمرهم ، فإنهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبهم ، فلم تجد الدنيا فيها ملبساً ، فالحزن بينهم ، والدمع راحتهم ، والهدوب وسيلتهم ، وحسن الظن قريانهم ، يحزنون بطول المكث في الدنيا إذا فرح أهلها ، فهم فيها مسجونون ، وإلى الآخرة منطلقون .

فما سمعت موعظة كانت أنفع لي منها .

ومن جيد شعر أبي نواس في الزهد ^(٢) :

يا بني النقص والنسيان وبني الضعف والخلو
وبني البعد في الطب ع على القرب في الصو

(١) سورة الشعراء ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) ديوانه ١٩٥ .

والشُّكُولُ الَّتِي تَبَا بِنُ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ
 أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ ذَوِي الْبِأْسِ وَالْخَطَرِ
 سَابِقُوا عَنْهُمْ الْمَدَا إِنْ وَاسْتَبَحُّوا الْخَيْرِ
 سَبَقُونَا إِلَى الرَّحِيلِ وَإِنَّا إِبِلَاتُورُ
 مَنْ مَضَى عِزَّةً لَنَا وَغَدَا نَحْنُ مُنْقَسِرُ
 إِنْ لَمُوتْ أَخَذَةً نَسْبِقُ اللَّحْمَ بِالْبَصْرِ
 فَكَأَنِّي بِكُمْ غَسَدًا فِي ثِيَابٍ مِنَ الْمَدَرِ
 قَدْ قُلْتُمْ مِنَ الْقُصُورِ رَأَى ظُلْمَةَ الْحُسُوفِ
 حَيْثُ لَا تَضْرِبُ الْقَبَا بَ عَلَيْكُمْ وَلَا الْحَجَرُ
 حَيْثُ لَا تَطْرَبُونَ مِنْهُ لِلَّهِ وَلَا سَمَرُ^(١)
 رَحِمَ اللَّهُ مَسِيحًا ذَكَرَ الْمَوْتَ فَازْدَجَرَ !
 رَحِمَ اللَّهُ مُؤْمِنًا خَافَ فَاسْتَشْعَرَ الْحَذَرَ !

ومن جيت شعر الرضى أبي الحسن رحمه الله في ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها^(٢) :
 وهل نحن إلا مراعى السَّهْمَا م يحفرها نابلٌ دائبٌ^(٣)
 نَسْرُ إِذَا جَارِنَا طَائِشٌ وَنَجْرُجُ إِنْ مَسَّنَا صَائِبٌ
 فَيَوْمِنَا قَدَرٌ لَا بَدَّ وَعِنْدَ غَدٍ قَدَرٌ وَائِبٌ^(٤)

(١) رواية الديوان :

حَيْثُ لَا تَطْهَرُونَ فِيهِ لِلَّهِ وَلَا سَمَرُ

(٢) ديوانه لوحة ٧١١ ، من قصيدة يرثي فيها عميد الجيوش أبا علي الحسن بن جعفر .

(٣) النابل : صاحب النبل . والدائب : المجد .

(٤) لا بد : مقيم .

طرائد تطردُها الثائبات ولا بدَّ أنْ يتركَ الطالبُ
أرى المرءَ يفعلُ فعلَ الحديدِ وهو غداً حَماً لازِبٌ^(١)
عوارى من سلبِ الهالكينَ يمدُّ يداً نحوها السالبُ
لنا بالردى موعدٌ صادقٌ ونيلُ المنى موعدٌ كاذِبٌ
حبائلُ للدهرِ مبثوثةٌ بُردتْ إلى جديها الماربُ
وكيف تُجاوِزُ غاياتنا وقد بلغَ المَوردُ القاربُ^(٢)
نصبُحُ بالكأسِ مجدحةً^(٣) ذُعافاً ، ولا يعلمُ الشاربُ^(٤)

وقال أيضاً ، وهي من محاسن شعره :
ما أقلُّ اعتبارنا بالزَّمانِ وأشدُّ اغترارنا بالأمانِ^(٥)
وقفاتٌ على غرورٍ ، وإقداً م على مُزلقٍ من الحدائقِ
في حروبٍ مع الردى فكأننا في هدنةٍ مع الأزمانِ
وكفانا مذكراً بالملأيا علمنا أننا من الحيوانِ
كلَّ يومٍ رزيةٌ بفلانٍ ووقوعٌ من الردى بفلانٍ
كم تراني أضِلُّ نفساً والهُو فكأنني وثقتُ بالوجدانِ
قلْ لهذا الهواملِ استوقفي السيرَ أو استنشدي عن الأعطانِ
واستقيمي قد ضلَّك اللَّقمُ النَّمِيجُ ، وغنى وراءك الحاديانِ^(٦)

(١) الحما : العطين الأسود اللين . واللازب : الصلب اللازق .

(٢) المورد : مكان ورود الماء . والقارب : الذي يطلب الماء .

(٣) نصبُح : نزل بها وقت الصبح . ومجدوحة : مخلوطة .

(٤) رواية الديوان :

• ولا علم لي أينما الشاربُ •

(٥) ديوانه لوحة ١٥٥ ، يرثى صديقاً له من بني العباس اسمه أبو عبد الله بن الإمام .

(٦) اللقم : معظم الطريق .

كم تحيىداً عن الطريق وقد فرّح خَلَجُ البُرى وجذب العِران
 نثني جازعين من عذوة الدهر ر وترتاع للمنايا الرّواني
 جفلة السّرب في الظلام وقد ذُء ذع روعاً من عذوة الذّوبان
 ثم نثني جرح الحمام وإن كان رغبياً ياقرب ذا النسيان !
 كل يوم تزايل من خليط بالزدي ، أو تباعد من دان (١)
 وسواء مضى بنا القدر الجسد عجولاً ، أو ماطل القصران

وأيضاً من هذه القصيدة :

قد مررنا على الديار خُشوعاً ورأينا البنا ، فأين الباني !
 وجهلنا الرُسوم ثم علمنا فذكرنا الأوطار بالأوطان
 انصافاً إلى القرون الخوالي هل ترى اليوم غير قرنٍ قان !
 أين رب السدير فالحيرة البيضاء ، أم أين صاحب الإيوان !
 والسيوف الحداد من آل بدر والقمنا الصم من بني الرّبان
 طردتهم وقائع الدهر عن لملمع طرد السّفاف عن سموات
 والمواصي من آل جفنة أرمى طنباً ملكهم على الجولان
 يكرعون العقار في قلق الإبريز كزعم الظّماء في المُذرّان (٢)
 من أباة اللعن الذين يُحيون ن بها في معاقب التّيجان
 تترامهم الوفود بعيداً ضارين الصّدور بالأذقان

(١) الخليط : الصديق ، والداني : القريب

(٢) الفلق : القطعة من الجفان

في رباحٍ من السَّاحِ حَوَالِ وجبال من الحُـلُومِ رِزَانِ
 وهمُ الماءِ أَذْ لِلنَّـاهِلِ الظُّنَّـانِ بَرْدًا وَالنَّارُ لِلْحـِـمْرِانِ
 كُلُّ مُسْتَقِظٍ الْجَنَانِ إِذَا أَغْلَمَ لَيْلُ النُّوَامَةِ الْمِيطَانِ
 يَفْتَدِي فِي السَّبَابِ غَيْرَ شَجَاعِ وَبُرَى فِي النَّزَالِ غَيْرَ جَبَانِ
 مَائَتٌ عَنْهُمْ اللَّفُونُ بَدَأَ شَوْ كَاءَ اطْرَافُهَا مِنَ الْمَرَانِ (١)
 عَطَفَ الذَّهْرُ فَرْعَهُمْ فَرَأَاهُ بَعْدَ بَسْدِ الذَّرَا قَرِيبَ الْجَانِ
 وَثَنَهُمْ بَعْدَ الْجَمَاحِ الْمُنَايَا فِي عَيْنِ النَّسِيمِ وَالْإِذْعَانِ
 عَطَلَتْ مِنْهُمْ الْمَقَارِي وَبَاخَتْ فِي حِمَامٍ مَوَاقِدُ النَّيْرَانِ (٢)
 لَيْسَ يَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ جَرَىءٌ فِي إِبَاءٍ ، أَوْ عَاجِزٌ فِي هَوَانِ
 لَا شَبُوبَ مِنَ الصَّوَارِ وَلَا أَهْلَقَ يَرعى مَنَابِتَ الْعِلْجَانِ
 لَا وَلَا خَاضِبٌ مِنَ الرَّبْدِ يَخْشَى لَ بَرِيْطٍ أَحْمَ غَيْرَ يَمَانِ (٣)
 يَرْتَمِي وَجْهَةَ الرِّثَالِ إِذَا آ نَسَ لَوْنُ الْإِظْلَامِ وَالْإِدْجَانِ
 وَعُقَابُ الْمَلَاعِ تُلْحِمُ فَرَحَـيْهَا بِأَزْلِيَّةٍ زُلُولِ الْقِنَانِ
 نَائِلًا فِي مَطَامِحِ الْجَوِّ هَاتِبٍ لَكَ وَذَا فِي مَهَابِطِ الْفَيْطَانِ

وهذا شعر فصيح نادر معرق في العربية .

• • •

(١) المران : الرماح .

(٢) باخت : خدعت .

(٣) الربط : جمع ربطة .

ومن شعره الجيد أيضا في ذكر الدنيا ومصائبها (١) :

أفلا نسي الظن بالعمرا	أو ما رأيت وقائع الدهر
هضباته ، والمضب ذي الأثر	بيننا الفقى كالطود تكفه
وبجاذب الأيدي على الفخر	بأبى الدينونة في عشرته
حشدت عليه بأوجه غر	وإذا أشار إلى قبائله
سبل يعب وعارض بسرى	يترادفون على الرماح فهم
فكأتما يدعون بالزجر	إن شهوا زادوا مقاربة
يتزاحون تزاحم الشعر	عدد النجوم إذا دعى بهم
سبلى الأنامل طيبي النثر	عقدوا على الجلى ما زدهم
ومواطئ الأقدام للمسر	زل الزمان بوطء أحصيه
واقر إقرارا على صفر	نزع الإباء وكان شملته
من ألم الصدفين بالقطر	صدع الردى ، أعيان نلاحه
أحمأ يدق السهل بالوعر	جر الجياد على الوجى ومضى
في قمر منقطع من البحر	حتى التقي بالشمس مغمدة
كالضفت بين الناب والظفر	ثم اثنت كيف للنون به
رد القضاء بماله الدثر	لم تستعز عنه الرماح ولا
لافت وهو مضيع الظفر	جمع الجنود وراءه فكأتما
أسى بمضيعة وما يدري	وبنى الحصون تمنا فكأتما
لحاميه كان الذى يرى	وبرى المعابل لعدا فكأتما

(١) من قصيدة يرثى بها أبا الحسن عبادته بن محمد ، ديوانه لوحة ١٣٢ .

إن التوق فرط متجزئ فدع القضاء بقدر أو بغيري
وحى الطعام للبقا وذى السآجال ملء فؤوجها تجري
لو كان حفظ النفس ينفعنا كان الطيب أحق بالعمري
الموت داء لا دواء له سيان ما يوبى وما يعمرى

وهذا من حر الكلام وفصيحه وناديه ، ولا عجب فهذه الورقة من تلك الشجرة ،
وهذا القبس من تلك النار !



(٢٢٢)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آتَى الْآسِينَ لِأَوْلِيَانِكَ ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ
عَلَيْكَ ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ ، وَتَطْلِعُ عَلَيْهِمْ فِي خِمَائِرِهِمْ ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ
بَصَائِرِهِمْ ، فَأَمْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ ، إِنْ أَوْحَشْتَهُمُ الْغُرْبَةَ ؛
آتَنَّهُمْ ذِكْرُكَ ، وَإِنْ حَبَّتْ عَلَيْهِمُ لَلصَّائِبُ لَجَّأُوا إِلَى الْأَسْعَجَارَةِ بِكَ ؛ عَلِمًا بِأَنَّ
أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ ، وَمَصَادِرُهَا عَنْ قَضَائِكَ .

اللَّهُمَّ إِنْ فَهِمْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي ، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طَلِبَتِي ، فَذُلْنِي عَلَى مَصَالِحِي ، وَخُذْ
بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِشُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ ، وَلَا بِبِدْعٍ
مِنْ كِفَايَاتِكَ .

اللَّهُمَّ أَحْيِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَذْلِكَ .

الشرح :

أنت : ضد وحشت ، والإيهاس : ضد الإيماش ، وكان القياس أن يقول :
إِنَّكَ آتَى التَّوَسِينَ ، لأن الماضي « أفعل » وإنما الآتون جمع آتس ، وهو الفاعل من
أنت بكذا ، لا من « أنت » ؛ فالرواية الصحيحة ، إذن « بأوليائك » أي أنت اكزهم أنت
بأوليائك وعظما وتحننا عليهم .

وأخضرم بالكفاية ، أي أبلغهم إحصارا لكفاية المتوكلين عليهم ، وأقومهم بذلك

تشاهدكم في سرائرهم ، أى نطلع على غيبهم ، والبصائر : العزائم ، نفذت بصيرته في كذا ، أى حقّ عزمه .

وقلوبهم إليك ملهوفة ، أى صارخة مستغيثة .

وفيهت عن مسألتى ، بالكسر : هييت ، والفهة والقهاة : التى ، رجل أفة ، ورجل فة أيضا ، وامرأة فية ، قال الشاعر :

فلم تُلغنى قها ولم تُلغى حاجتي ملججة أبى لها من يقيمها ^(١)

وقد فهيت يا رجل قها ، أى عيت ، ويقال سفيه فويه ، وفهيه الله ، وخرجت حاجة فأفهنى عنها فلان ، أى أنانيها .

ويروى : « أو عمت » بالهاء والهم المكسورة ، والعمة : التحير والتردد ، عمة الرجل ، فهو عيه وعاميه والجمع عمة ، وأرض عمة : لا أعلام بها .

والنكر . العجب والبدع المبتدع ، ومنه قوله تعالى . ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ أَرْسُلٍ ﴾ ^(٢) ؛ أى لم آت بما لم أسبق إليه .

ومثل قوله عليه السلام . « اللهم احملني على عفوك ، ولا تحملني على عدلك » قول الروائية لهاشمية لما قتل مروان في خبر قد اقتصصناه قديما . لسمعنا عدلكم ، قالت الهاشمية . إذن لا نبقى منكم أحدا ، لأنكم حاربتم عليا عليه السلام ، وتمسك الحسن عليه السلام ، وقتلتم الحسين وزيدا وابنه ، وضربتم علي بن عبد الله ، وخنقتم إبراهيم الإمام في جراب النورة .

قالت . قد لسمعنا عفوكم ، قالت . أما هذا فدم .

(١) الصحيح ١٢٤٥ من غير نسبة .

(٢) سورة الأحقاف ٩ .

[أدعية فصيحة من كلام أبي حيان التوحيدي]

ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة فصولٌ من كلام أبي حيان التوحيدي قلها .
 فيها : اللهم إني أبرأ من الثقة بآلائك ، ومن الأمل بآلائك ، ومن التسليم بآلائك ،
 ومن التفويض بآلائك ، ومن التوكل بآلائك ، ومن الطلب بآلائك ، ومن الرضا
 بآلائك ، ومن الدل بآلائك ، ومن الصبر بآلائك ، وأسألك أن تجعل
 الإخلاص قرين عقيدتي ، والشكر على نعمك شعارى ودثارى ، والنظر إلى ملكوتك
 دأبى ودينى ، والالتيام لك شأنى وشغلى ، والخوف منك أمانى وإيمانى ، والآيات بذكرك
 بهجتي وسرورى .

اللهم تقابع برك ، واتصل خيرك ، وعظم رفدك ، وتناهى إحسانك ، وصدق وعدك ،
 وبر قسمك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك ، ولم يبق حاجة إلا وقد قضيتها ، أوتكفأت
 بقضائها ، فآخيم ذلك كله بالرضا والمغفرة ؛ إنك أهل ذلك ، والقادر عليه ، والملى به .

ومنها : اللهم إني أسألك خفايا لطفك ، وفوايح توفيقك ، ومألوف برك ، وعوائد
 إحسانك ، وجاء المقدسين من ملائكتك ، ومنزلة المصطفين من رسلك ، ومكاثرة الأولياء
 من خلقك ، وعاقبة المتقين من عبادك .

وأسألك القناعة برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والورع في
 شبهاتك والقيام بحجبتك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليم لما أخفيت ، والإقبال
 على ما أمرت ، والوقوف عما زجرت ، حتى ألتخذ الحق حجة عندما خفت وثقل ، والصدق
 سنة فيما عسر وسهل ، وحتى أرى أن شعار الزهد أحرّ شعار ، ومنظر الباطل أشوء منظر ،

فأنت تختار في ملكوتك بفضفاض الرداء بالدعاء إليك ، وأبلغ الغاية القصوى بين خلقك
بالثناء عليك .

ومنها : اللهم إليك أرفع هجري وبحري ، وبك أستمع في عمري ويسري ،
وإياك أدعو رغباً ورهباً ، فإنك العالم بتسويل النفس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى ،
وصرف الدهر ، وتلون الصديق ، وباتقة الثقة ، وقنوط القلب ، وضعف الثقة ،
وسوء الجزع .

فغنى اللهم ذلك كله ، واجمع من أمرى شمله ، وانظم من شأنى شتيته ، واحرسنى عند
الفنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر ، وعند الكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من
الحسرة ، وعند الراحة من الفسولة ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان ،
وعند البحث من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التهمة لك .

وأسألك أن تجعل صدرى خزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى
خدم طاعتك ؛ فإنه لا عز إلا فى الدل لك ، ولا غنى إلا فى الفقر إليك ، ولا أمن إلا فى
الخوف منك ، ولا قرار إلا فى القلق نحوك ، ولا روح إلا فى الكرب لوجهك ، ولا ثقة
إلا فى تهمة خلقك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقسمك ، ولا عيش إلا فى جوار المقربين عندك .

ومنها : اللهم ببرهانك الصادع ، وبغور وجهك الساطع ؛ صل على محمد نبيك نبي الرحمة ،
وقائد الأمة ، وإمام الأئمة ، واحرس على إيمانى بك بالتسليم لك ، وخفف عني مؤنة الصبر
على امتعائك ، وواصل لي أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك ، واجعل بقية عمري فى
غنى عن خلقك ، ورضا بالمقدم من رزقك .

اللهم إناك إن آخذتنا بذنوبنا خَسَفْتَ الأرض بنا ، وإن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابنا، فإنك قلت: ﴿ قَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١).
اللهم إليك نشكو فسوة قلوبنا؛ وغل صدورنا؛ وقتنة أنفسنا، وطموح أبصارنا، ورقت أسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا ، وفُحِشُ لجائنا ، وقبح دعوانا، ونتن أشرارنا، وخيث أخيارنا ، ونلذق ظاهرنا ، وتمزق باطننا .

اللهم فارحمنا ، وارأف بنا ، واعطف علينا ، وأحسن إلينا، وتجاوز عنا، واقبل اليسور منا ، فإننا أهل عقوبة ، وأنت أهل مغفرة ، وأنت بما وصفت به نفسك أحق منا بما وسمَّنا به أنفسنا ، فإن في ذلك ما اقترن بكرمك ، وأدى إلى عفوك . ومن قبل ذلك وبعده ، فأب عشنا بنعمتك ، وأرح أرواحنا من كد الأمل في خلقك ، وخذ بأزمقنا إلى بابك ، وآله قلوبنا عن هذه الدار الفانية ، وازرع فيها محبة الدار الباقية ، وقلِّبنا على بساط لطفك ، وحشنا بالإحسان إلى كنفك ، ورقبنا عن التماس ما عند غيرك ، وانغض عيوننا عن ملاحظة ما حجب من غيرك ، وصل بيننا وبين الرضا عنك ، وارفع عنامؤنة العرض عليك ، وخفف علينا كل ما أوصلنا إليك ، وأذقنا حلاوة قربك ، واكشف عن سرارنا سوائر حجبك ، ووكل بنا الحنطة ، وارزقنا اليقظة ، حتى لا نترف سبئة ، ولا نفارق حسنة ، إناك قائم على كل نفس بما كسبت ، وأنت بما نغنى وما نملن خبير بصير .

ومنها : اللهم أنت الحي القيوم ، والأول الدائم ، والإله القديم ، والبارئ المصور ، والخالق المقدس ، والجبار الرفيع ، والقهار المنيع ، والملك الصفوح ، والوهاب المنوح ،

والرحمن الرءوف ، والحنان المطوف ، والنان اللطيف ، مالك القوائب والنواصي ، وحافظ
الأداني والأقاصي ، ومصرف المطيع والعامي .

الهم أنت الظاهر الذي لا يبعدك جاحد إلا زابلته الطمأنينة ، وأسلمه اليأس ،
وأوحشه القنوط ، ورحلت عنه العضة ، وتردد بين رجاء قد نأى عنه التوفيق ، وأمل قد
حقت به الخيبة ، وطمع يحوم على أرجاء التكذيب ، وسر قد أطاف به الشقاء ، وعلانية
قد أناف عليها البلاء ، موهون المنة ، منسوخ العقدة ، مسلوب العدة ، تشنؤه العين ،
وتقلبه النفس ، عقله عقل طائر ، ولبه لب حائر وحكه حكم جائر ، لا يروم قرارا إلا
أزيج عنه ، ولا يستفتح بابا إلا أرنج دونه ، ولا يقتبس ضراما إلا أجج عليه ، عثرته
موصولة بالثرة ، وحسرتة مقرونة إلى حسرة ، إن سمع زيف ، وإن قال حرف ،
وإن قضى حرف ، وإن احتج زخرف ، ولو قام إلى الحق لوجد ظله ظليلا ، وأصاب
نحته مشوى ومفिला ،

وأنت الباطن الذي لا يرومك رائم ، ولا يحوم على حقيقتك حائم ، إلا غشيه من
نور الهيئتك ، وعز سلطانك ، وهيب قدرتك ، وباهر برهانك ، وغرائب غيوبك ،
وحفي شائك ، وخوف سطوتك ، ومرجوت إحسانك ، ما يردّه خاسئا من مرزحاه عن
الناية ، خجلا مبهورا ، ويردّه إلى هجره ، ملتصقا بالقدم ، مرتديا بالاستكانة ، راجعا إلى
الصغار ، موقوفا مع الذلة . فظاهره يدعو إليك بلسان الاضطرار ، وباطنه يحير فيك لسمعة
قضاء الاعتبار ، وفعله يدل عليك الأسجاع والأبصار ، وحكته تعجب منك الألباب
والأسرار . لك السلطان والماسكة ، وبيدك النجاة والماسكة ، فإليك القرّة ، ومعك
القرّة ، ومعك صنوف الإحسان والبر ، أسألك بأصع سرّ ، وأكرم لفظ ، وأفصح لغة ،
وأتم إخلاص ، وأشرف همة ، وأفضل نية ، وأظهر عقيدة ، وأثبت يقين ، أن تصدّ عني

كل ما يصدّ عنك ، وتصلني بكل ما يصل بك ، وتحبب إليّ كل ما يحبب إليك ، فإنك الأول والثاني ، والمشار إليه في جميع المعاني ، لا إله إلا أنت .

ومنها : اللهم إني أسألك جداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريثاً من الجهل ، وعلا عرياً من الرياء ، وقولاً موشعاً بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة في سلامة صدور ، وراحة جسم راجعة إلى روح بال ، وسكون نفس موصولة بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة ، حتى تكون غايقي في هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل ؛ وطابقي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل ؛ من حياة طيبة أنت الواعد بها ، ونعم دائم أنت المبلغ إليه .

اللهم لا تحبب رجاء هو منوط بك ، ولا تُصغِر كفاً هي ممدودة إليك ، ولا انمذّب عيناً فتحتها بعمتك ، ولا تذلل نفساً هي عزيزة بمعرفتك ، ولا نسلّب عقلاً هو مستضى بنور هدايتك ، ولا تُخرس لساناً هو دونه الثناء عليك ، فكما كنت أولاً بالفضل ، فكُن آخراً بالإحسان .

الناصية بيدك ، والوجه عان لك ، والخير متوقع منك ، والمصير على كل حال إليك .

ألبسني في هذه الحياة البائدة ثوب العِصمة ، وحائني في تلك الدار الباقية بزينة الأمن ، واقطع نفسي عن طلب العاجلة الزائدة ، وأجرني على المادة الفاضلة ، ولا تجمعاني ممن سها عن باطن مالك عليه ، بظاهر مالك عنده ، فالشقي من لم تأخذ بيده ، ولم تؤمنه من غده ، والسعيد من آوئته إلى كدّف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقش في الحساب ، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

ومنها : اللهم اجعل غدوّنا إليك مقروناً بالتوكّل عليك ، ورواحنا عنك موصولاً

بالنجاح منك ، وإجابتنا لك راجعة إلى التهاك فيك ، وذكرنا إياك منوطاً بالسكون
معك ، وثقتنا بك هادية إلى التفويض إليك ، ولا نخلفنا من يد استوعب الشكر ،
ومن شكر يمتري خلف الزبد ، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترحين ، وصنع يفوق
ذرع الطالبين ، حتى نلقاك مبشرين بالرضا ، محكمين في المني ، غير مناقشين
ولا مطرودين .

اللهم أعِزنا من جشع الفقير ، ورغبة المنافق ، وتجليح^(١) المعاند ، وطيشة المعجول ، وفقرة
الكليل ، وحيلة السئيد وفنور العقل^(٢) ، وحيرة الهرج ، وحسرة الهوج ، وفلتنة
الذُهل ، وحرقة الشكول^(٣) ، ورقة الخائف ، وطمانينة المغرور ، وغفلة الغرور .

واكفنا مؤنة أخ يرصد مسكوناً إليه ، ويمكر موثقاً به ، ويخيس^(٤) معتمداً عليه .
وصل الكفاية بالسؤلة عن هذه الدنيا ، واجعل التهاقنا عليها حيننا إلى دار السلام ،
ومحل القرار ، وغلب إيماننا بالغيب على يقيننا بالعيان ، واحرسنا من أنفسنا ، فإنها بنا بيع
الشهوة ، ومفاتيح البلوى .

وأرينا من قدرتك ما يحفظ علينا هيبتك ، وأوضح لنا من حكمتك ما يقبلنا في
ملكوتك ، وأسعج علينا من نعمتك ما يكون لنا عوناً على طاعتك ، وأسعج في صدورنا
من نورك ما نتعجل به حقائق توحيدك .

واجعل ديدنا ذكرك ، وعادتنا الشوق إليك ، وعلمنا النصيح لخلقك ، واجعل غابتنا
الاتصال بك ، واحجبنا عن قول بيري من رضاك ، وعمل يمي صاحبه عن هداك ، وألف
بيننا وبين الحق ، وقربنا من معادن الصدق ، وأعصمنا من بوائق الخلق ، وانقلنا من
مضايق الرقى ، واهدنا إلى فوائد العتيق .

اللهم إنك بدأت بالصنع وأنت أهله ، فعد بالتوفيق فإنك أهله .

(٢) ١ : « الفعل » .

(٤) يخيس : يندر .

(١) جلع في الأمر : ركب رأسه .

(٣) ب : « الشكول » ، وما أنبت من ا

اللهم إنا نتضائلُ لك عند مشاهدة عظمتك، ونذلُ عليك عند تواتر برك، ونذلُ لك عند ظهور آياتك، ونلجُ عليك عند علمنا بجودك .

ونسألك من فضلك مالا يرزؤك ولا يسكوك، ونعوذُ إليك بتوحيده لا ينفعُ إليه خلق، ولا يفارقه حق .

ومنها : اللهم عليك أنوكلُ ، وبك أستعين ، وفيك أوالى ، وبك أنسب ، ومنك أفرق ، ومعك أستاذس ، ولك أحمّد ، وإياك أسأل : لساناً سجعاً بالصدق، وصدراً قد ملئ من الحق ، وأملاً منقطعاً عن الخلق ، وحالاً مكنوناً بيوئى الجنة ، وظاهرها يحقق الجنة ، وعاقبة تنسب ما سلف ، وتتصل بما يتمنى ويتوكل .

واسألك اللهم كبداً رجوا فاختوط ، ودّة ما نطوقاً شوقاً إليك، ونفساً مزوقاً إذعاناً لك ، وسراً فاقعاً بيزد الإيمان بك ، ونهاراً مشتملاً على ما كسب من مرضاتك ، وليلاً مالئاً بما أزلف لديك .

أشكو إليك اللهم نلتقى على ما يفوتنى من الدنيا ، وأنتى فى طاعة الهوى ؛ جاهلاً بحقك ، ساهياً عن واجبك ، ناسياً ماتكرره من وعظائك وإرشادك ، وبيانك وتنبيهك حتى كأن حلاوة وعدك لم تلج أذنى ، ولم تباشر فؤادى ، وحقى كأن مرارة عقابك ولائعتك لم تهتك حجابى ، ولم تعرض على أوصابى .

اللهم إليك الفرّ من دارٍ منهومها لا يشبع ، وحائتها لا ينفع ^(١) ، وطالبتها لا يربح ، وواجدها لا يقنع ، والمعيش عنك رقيق ، وللأمل فيك تحقيق .

اللهم كما ابتليت بحمكتك الخفية التى أشكّلت على القول ، وحارت معها البصائر ، فماف برحمتك اللطيفة التى تطاولت إليها الأعناق ، ونشوّفت نحوها السرائر ، وخذ معنا بالفضل الذى إليك هو منسوب ، وعنك هو مطلوب ؛ وافطيم نفوسنا من رضاع الدنيا ،

(١) الحائم : السطعان . ولا ينفع : لا يروى .

والطف بما أنت له أهل ؛ إنك على كل شيء قدير .

اللهم قدنا بأزمنة التوحيد إلى محاضر طاعتك ، واخْلُطْنَا فِي زُمْرَةِ الْمُخْلِصِينَ لَذِكْرِكَ ،
واجعل إجابتك من قبيل ما يتصل بكرم عفوك ، ولا تجعل خيبتنا من قبل جهلنا بقدرك ،
واضربنا عن أمرك ؛ فلا سائل أحوج منا ، ولا مستول أجود منك .

اللهم احجر بيننا وبين كل ما دلّ على غيرك ببيانك ، ودعا إلى سواك ببرهانك ،
واقطعنا عن مواطن العجز ، مرتقياً بنا إلى شرفات العزّ ، فقد استحوذ الشيطان ، وخبثت
النفوس ، وساءت العادة ، وكثر الصادقون عنك ، وقُلّ الداعون إليك ، وذهب المراءون
لأمرك ، وفقد الواقفون عند حدودك ، وخلت ديار الحق من سكّانها ، وبيع دينك
ببيع الخلق ، واستهزئ بشارع مجدك ، وأقصى المتوسل بك .

اللهم فأعد نصارة دينك ، وأفيض بين خلقك بركات إحسانك ، وامدد عليهم
ظلّ توفيقك ، واقع ذوى الاعتراض عليك ، واخسف بالمتحمين في دقائق غيبك ، واهتك
أستار الهاتكين لسرّ دينك ، والقارعين أبواب مراك ؛ الفاسقين بينك وبين خالقك .
اللهم إني أسألك أن تخصني بالإلهام أقتبس الحق منه ، وتوفيق بصحيفي وأصحبه ،
ولطف لا يغيب عني ولا أغيب عنه ؛ حتى أقول إذا قلت لوجهك ، وأسكت إذا سكنت بإذنك ،
وأسأل إذا سألت بأمرك ، وأبين إذا أبنت بحججك ، وأبعد إذا بعدت بإجلالك ، وأقرب
إذا قربت برحمتك ، وأعبد إذا عبدت مخلصاً لك ، وأموت إذا مت منتقلاً إليك .

اللهم فلا تكلني إلى غيرك ، ولا تؤتسني من خيرك .

ومنها : اللهم إنا بك نمرّ كما أنا بفيرك نذلّ ، وإياك نرحو كما أنا من غيرك نياس ،
وإليك نفوض ، كما أنا من غيرك نعرض ، أذنت لنا في دعائك ، وأدبنا إلى فيناك ،
وهيأتنا لمطائلك ، وخصصتنا بمحباتك ، ووسمتنا بولائك ، وحممتنا بآلائك ، وغممتنا
في نعمائك ، وناغيتنا بالسني ملكوتك عن دقان ما في عالمك ؛ ولا طفتنا بظاهر قولك

ونولينا بباطن فعلك ، فسمت نحوك أبصارنا ، وشامت بروق جودك بصائرنا ، فلما استقر ما بيننا وبينك ، أرسلت علينا مباء فضلك مدرارا ، وفتحت لنا منّا أسماعا وأبصارا ، فرأينا ما طاح معه تحصيلنا ، وسمنا ما قارقنا عنده تفضيلنا ، فلما ميرنا إلى خلقك من ذلك ذروا^(١) ، اتخذونا من أجله أمبا وهزوا فبقدرتك على بلوانا بهم ، أرنا بك الغنى عنهم . اللهم قيض لنا فرجا من عندك ، وأنح لنا مخلصا إليك ، فإننا قد تعبنا بخلقك ، وهزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربتهم في مخالفتك أقرب منا إلى متابذتهم في موافقتك ، لأنه لا طساقة لنا بدعائهم ، ولا صبر لنا على بلوانهم ، ولا حيلة لنا في شفاهم ، فنسألك بالضرعة القائمة وبالإخلاص المرفود ، ألا أخذت بأيدينا ، وأرسلت رحمتك علينا ، فما أقدرك على الإجابة ، وما أجودك بكل مصون ؛ يا ذا الجلال والإكرام !



ومنها : اللهم إنا قرُبنا بك فلا تملنا عنك ، وظهرنا لك فلا تبطننا دونك ، ووجدناك بما ألتيت إلينا من غيب ملكوتك ، وعرفنا من كل مالوانا عن بابك ، ووثقنا بكل ما وعدتنا في كتابك ، وتوكلنا بالسرى والعلن على لطيف صنعك .

اللهم إليك نظرت العيون فسادت خاشنة عبرى ، وفيك تفسمت الظنون فانقلبت ياسة حسرى ، وفي قدرتك حارت الأبصار ، وفي حكمتك طاحت البصائر ، وفي آلائك غرقت الأرواح ، وعلى ما كان منك تقطعت الأنفاس ، ومن أجل إعراضك التهب الصدور ، ولذكر ما مضى منك هلت الدموع .

اللهم توأنا فيما وليتنا حتى لا نتوكل عليك ، وأما بما حوَفَقْنَا حتى نقر معك ، وأوسعنا رحمتك ، حتى نطمئن إلى ما وعدتنا في كتابك ، وفرق بيننا وبين الفل حتى لا نعامل به خلقك ، وأغينا بك حتى لا نفتقر إلى عبادك ، فإنك إذا بستر أمرنا بستر ؛ ومهما بلوتنا فلا تبئنا بهجرك ، ولا تجرعنا مرارة سُخطك . قد اعترفنا بربوبيتك

(١) ذروا : طرنا .

عبودية لك ، فمرتفعا حقيقةً بالمفوقنا ، والإقبال علينا ، والرفق بنا ، يا رحيم !

ومنها : اللهم إن الرغبات بك منوطة ، والوسائل إليك متداركة ، والحاجات ببابك مرفوعة ، والثقة بك مستحصنة (أي مستحكمة) ، والأخبار بجودك شائعة ، والآمال بنحوك نازعة ، والأمانى وراءك منقطعة ، والثناء عليك متصل ، ووصفك بالكرم معروف ، والخلائق إلى لطفك محتاجة ، والرجاء فيك قوى ، والظفون بك جميلة ، والأعناق لمرك خاضعة ، والأنفوس إلى مواصلتك مشتاقة ، والأرواح لعظمتك مهوطة ؛ لأنك لإله العظيم ، والرب الرحيم ، والجواد الكريم ، والسميع العليم ، تملك العالم كله ، وما بعده وما قبله ، ولك فيه نصارى القدرة ، وخفيات الحكمة ، ونوافذ الإرادة ، ولك فيه مالا تدريه مما تخفيه ولا تبديه ، جللت عن الإجلال ، وعظمت عن التعظيم ، وقد أرف ورودنا عليك ، ووقوفنا بين يديك ، وغلطنا ما قد علمت ، ورجاؤنا ما قد عرفت ، فكن عند ظننا بك ، وحق رجاءنا فيك ، فإخافناك جراءة عليك ، ولا عصبيتك تقحما في سخطك ، ولا اتبعتنا هوأنا استهزاء بأمرك ونهيك ، ولسكن غلبت علينا جواذب الطيبة التي هجنتنا بها ، وبذور الفطرة التي أنبتنا منها ، فاسترخت قيودنا عن ضبط أنفسنا ، وعزبت ألبابنا عن تحصيل حظوظنا ، ولسنا ندعى حجة ، ولكن نسألك رافة ، فيسترك السابغ الذبيل ، وفضلك الذي يستوعب كل مقال ، إلا تمت ماسأف منك إلينا ، وعطفك بجودك الفياض علينا ، وجذبت بأضباعنا ، وأقررت عيوننا ، وحقت آمالنا ؛ إنك أهل ذلك ، وأنت على كل شيء قدير !

تم الجزء الحادى عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الثانى عشر

فهرس الخطب*

- الصفحة
- ١٩٦ - ومن كلام له عليه السلام في أن الدنيا دار مجاز . ٣
- ١٩٧ - من كلام له كان ينادى به أصحابه ، وفيها يذكرهم بأمر الموت . ٥
- ١٩٨ - ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير عندما تقيا عليه عدم الرجوع إليهما في الرأي . ٨، ٧
- ١٩٩ - ومن كلامه عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يستبون أهل الشام أيام حربهم بصفين . ٢١
- ٢٠٠ - ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام . ٢٥
- ٢٠١ - ومن كلام له عليه السلام لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة ٢٩
- ٢٠٢ - ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي ، وهو من أصحابه ، بموده . ٣٢
- ٢٠٣ - ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع ، وحما ٣٩، ٣٨
- في أيدي الناس من اختلاف الخبر . ٥١
- ٢٠٤ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله ووصف خلق الأرض . ٥١

(*) وهي الخطب الواردة في نهج البلاغة .

٢٠٥ - من خطبة له عليه السلام فيمن أعرض عن النصيح ، ونكص عن نصرة الله

٦٠

٢٠٦ - من خطبة له عليه السلام في تمجيد الله وتعظيمه

٦٣، ٦٢

٢٠٧ - من خطبة له عليه السلام في ذكر النبي عليه السلام ، وأنه

٦٦، ٦٥

خير خلقه

٢٠٨ - من كلام له عليه السلام كان يدعو به كثيرا

٨٤

٢٠٩ - من خطبة له عليه السلام خطبها بصفين

٩٢-٨٨

٢١٠ - من كلام له عليه السلام ردّ فيه على رجل من أصحابه أكثر

١٠٢، ١٠١

الثناء عليه

٢١١ - من كلام له عليه السلام يشكو فيه أسر قريش معه

١٠٩

٢١٢ - من كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه

١٢٢، ١٢١

عليه السلام

٢١٣ - من كلام له عليه السلام لما سر بطليحة بن عبيد الله وعبد الرحمن

١٢٣

ابن عتاب بن أسيد ، وهما قتيلان يوم الجمل

١٢٧

٢١٤ - من كلام له عليه السلام ، يصف فيه أحوال تقي عارف بالله

١٤٢

٢١٥ - من كلام له عليه السلام يحث فيه أصحابه على الجهاد

١٥٢-١٤٥

٢١٦ - من كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته : ﴿ الماكم التكاثر ﴾

٢١٧ - ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته : ﴿ يسبح له فيها

١٧٧، ١٧٦

بالقدر والأصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾

٢١٨ - من كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك

٢٣٩، ٢٣٨

بربك الكريم ﴾

- ٢١٩ - من كلام له عليه السلام في تهويل الظلم وتبرئه منه وبيان
صغر الدنيا في نظره
٢٤٦، ٢٤٥
- ٢٢٠ - من دعاء له عليه السلام
٢٦٦-٢٥٥
- ٢٢١ - من خطبة له عليه السلام في ذم الدنيا ووصف سكان القبور
٢٥٨، ٢٥٧
- ٢٢٢ - ومن دعائه عليه السلام أيضا
٢٦٧



مركز تحقيقات تكملة تراثنا

* فهرس الموضوعات

صفحة	
١٠ - ٢٠	من أخبار طلحة والزبير
٣٤ - ٣٧	ذكر بعض مقامات العارفين والزهاد
٤١ ، ٤٢	ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة محمد عليه السلام
٤٣ - ٤٨	ذكر بعض مامنى بن آل البيت من الأذى والاضطهاد
٤٨ - ٥٠	فصل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث
٦٧ - ٧٢	ذكر بعض المطاعن في النسب وكلام الجاحظ في ذلك
٧٢ - ٨٠	ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء
٩٣ - ٩٧	فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح لذلك
٩٧ - ١٠٠	الآثار الواردة في العدل والإنصاف
١١٥ - ١٢٠	فصل في أن جعفرا وحمزة لو كانا حيين لبايعا عليا
١٢٣ ، ١٢٤	عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد
١٢٥	بنو جمع
١٢٧ - ١٣٣	فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار
١٣٤ - ١٣٦	فصل في الرياضة النفسية وأقسامها
١٣٧	فصل في أن الجوع يؤثر في صفاء النفس
١٣٧ - ١٤١	كلام للفلاسفة والحكماء في المكاشفات الناشئة عن الرياضة

- بعض الأشعار والحكايات في وصف القبور واللوتى ١٥٦ - ١٥٩
إبراد أشعار وحكايات في وصف الموت وأحوال اللوتى ١٦٨ - ١٧٥
بيان أحوال العارفين ١٨١ - ٢٣٧
نبذ من أخبار عقيل بن أبي طالب ٢٥٠ - ٢٥٤
ذكر الآثار والأشعار الواردة في ذم الدنيا ٢٥٩
أدعية فصيحة لأبي حيان التوحيدي ٢٧١ - ٢٧٨

